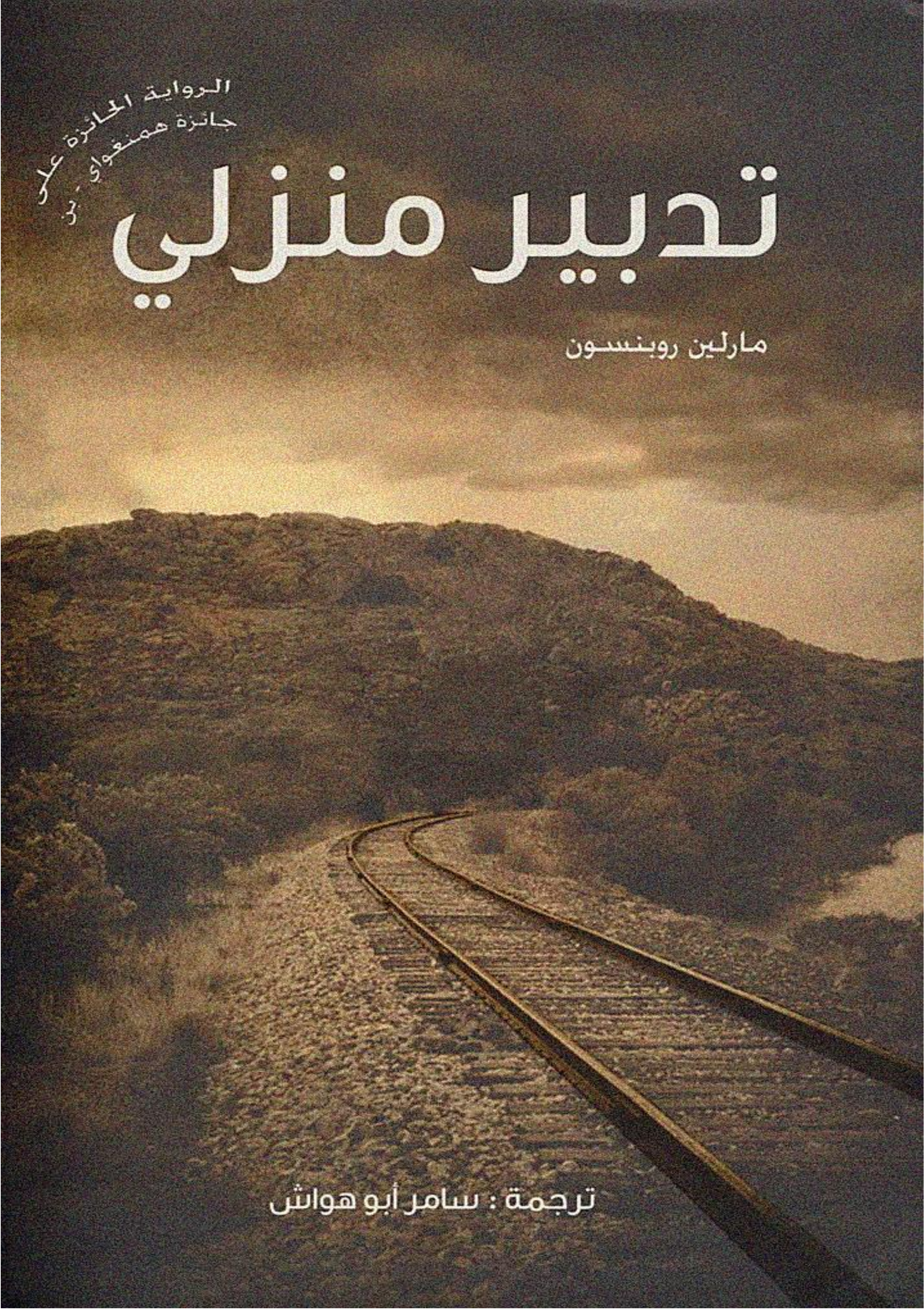
الرواية الحائزة على جائزة همنغواي - بن

تدبير منزلي

مارلين روبنسون



ترجمة : سامر أبو هواش

مارلين روبنسون

تدبير منزلي

ترجمة: سامر أبو هواش

نبذة عن المؤلفة:

ولدت مارلين روبنسون في العام 1943 في «ساندبوينت» بولاية إيداهو. درست الأدب الإنجليزي في جامعة واشنطن عام 1970. إضافة إلى الكتابة النقدية والأدبية. مارست تدريس الأدب في عدد من الجامعات الأمريكية. كما تعلم في «محترف أيوا للكتاب». في العام 1980 ظهرت روايتها الأولى «تدبير منزلي» وحققت نجاحاً فورياً. وحصلت على جائزة «همنغواي- بن» المرموقة ورشحت لجائزة بوليتزر. التي حصلت عليها عن روايتها الثانية «جلعاد» في العام 2005. كما حصلت عنها على جائزة «ناشيونال بوك كريتيك أوورد» في العام. 2004. بين الروايتين نشرت كتاب «موت آدم: مقالات في الفكر المعاصر» (1998). روايتها الأخيرة «البيت» صدرت عام 2009. وحصلت عنها على جائزة «أورانج» المرموقة.

نبذة عن المترجم:

ولد سامر أبو هواش في مدينة صيدا اللبنانية لأبوين فلسطينيين عام 1972. شاعر وروائي ومترجم. من ترجماته: "على الطريق" لجاك كرواك، "حياة باي" ليان مارتل، "بوذا الضواحي" لحنيف قريشي، "شجرة الدخان" لدنيس جونسون، "جلعاد"، "البيت" لمارلين روبنسون، "كتاب الشاي" لكاكوزو أوكاكورا، مشروع الشعر الأمريكي الذي صدر منه حتى الآن خمسة عشر كتاباً. له في الرواية: "عيد العشاق"، و"السعادة". ومن أعماله الشعرية "شجرتان على السطح"، و"تحية الرجل المحترم" و"تخيط ثوباً لتتذكر".

الطبعة الأولى 1432هـ 2011م
حقوق الطبع محفوظة

تدبير منزلي
مارلين روبنسون

PS3568.O3125 H612 2011
Robinson, Marilynne
تدبير منزلي / مارلين روبنسون؛ ترجمة سامر أبو هواش؛ - أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2011.
ص 253 : 14×21سم.
تدمك: 978-9948-01-603-8
ترجمة كتاب: Housekeeping
1-صراع الأجيال - قصة.
2-القصص الأمريكية-المترجمات الى العربية.
أ-أبو هواش، سامر

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
Marilynne Robinson
Housekeeping

كلمة
KALIMA
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

تدبير منزلي

تدبير منزلي

1

اسمي «رُوث». نشأت مع أختي الصغرى لوسيل في كنف جدتي السيدة سيلفيا فوستر، وعقب وفاتها، في كنف أختَي زوجها السيدتين ليلي ونونا فوستر، وبعد فرارهما، في كنف ابنتها السيدة سيلفي فيشر. وقد عشنا مع هذه الأجيال المختلفة من النسوة اللواتي يكبرننا سناً في منزل واحد هو منزل جدّتي الذي شيّده لها زوجها إدموند فوستر، موظّف السكك الحديدية، الذي فارق عالمنا هذا قبل وصولي إليه. وهو من جاء بنا أصلاً إلى هذا المكان النائي. فقد نشأ في الغرب الأوسط[1]، في منزل حُفر في الأرض، وجُعلت نوافذه بمستوى الأرض والعين تماماً، بحيث لم يكن يبدو من الخارج أكثر من رابية صغيرة، لا حصناً بشرياً

(1) Middle West: الغرب الأوسط، المنطقة الشمالية المركزية من الولايات المتحدة الأمريكية، وتضم ولايات مثل إلينوي، وإنديانا، وكنساس ومتشيغان ومنيسوتا وميزوري وأيوا التي هي مسقط رأس كاتبة الرواية، والمكان الذي تقع فيه بلدة «فينغربون» حيث تجري أحداث الرواية.

ضد الموت، بل ضريحاً، أما من داخله فكانت أفقية العالم الكاملة في ذلك المكان تضيق المنظر بشدة إلى درجة يبدو أنه لم يكن من شيء يحدّ هذا المنزل العشبي[1] سوى الأفق بعينه. ولهذا، بدأ جدّي يتصفّح كل ما يقع تحت يديه من أدب الرحلات، مقالات ويوميات تصف رحلات استكشافية إلى جبال أفريقيا والألب والأنديس والهيمالايا وروكي[2]. ثم ابتاع علبة من ألوان الرسم وقام بنسخ صورة من إحدى المجلات تمثل لوحة يابانية لجبل فوجي[3]. ثم بدأ يرسم المزيد من الجبال، التي لم تكن تشبه أي جبال معروفة، هذا إذا كانت تجسّد جبالاً قائمة في المقام الأول. كانت كناية عن أشكال رقيقة مخروطية الشكل أو هضاب، يصوّرها حيناً مفردة وأحياناً متسلسلة متراكبة، ويلوّنها بألوان خضراء أو بنية أو بيضاء، بحسب الموسم الذي يرسمها فيه، لكنها تكون دائماً مكلّلة بالثلوج، وتكون قممها زهرية أو بيضاء أو ذهبية بحسب الوقت الذي لوّنها فيه. وقد رسم في إحدى اللوحات الكبيرة جبلاً على هيئة

(1) Sod House: نمط من العمارة التي سادت في بداية الحملات الاستكشافية الاستيطانية في الولايات المتحدة وأمريكا، حيث لم تكن متوافرة في مناطق المروج prairie المواد الأساسية للبناء كالحجر والخشب فجرى اعتماد عشب البراري كمادة أساسية للبناء، وهو عشب يختلف جذرياً عن العشب الذي نعرفه عادة في الحدائق، حيث يتمتع بجذور شديدة الصلابة وبخاصية قاسية، تمكّن بعد تقطعه من استعماله في البناء، والمقصود هنا هو البنية الهشة للبيت وأيضاً شدة بعده عن أيّ مركز مديني.

(2) The Rockies أو The Rocky Mountains سلسلة من الجبال الصخرية تمتد من منطقة كولومبيا البريطانية في غرب كندا مرورا بولايات مونتانا وكولورادو، وويومينج، وأيداهو، ويوتا، وتنتهي بولاية نيو مكسيكو في الولايات المتحدة.

(3) Fujiama: أو باليابانية «فوجي سان»، أعلى جبل في اليابان، يبلغ ارتفاعه 3776 متراً عن سطح البحر.

جرس، جعله يحتل مقدّم اللوحة وكساه بأشجار دقيقة الخطوط، يقف كلّ منها بزاوية قائمة فوق الأرض، حيث نبتت تماماً كما يبرز الزغب على المخمل. وكلّ شجرة تحمل ثماراً فاقعة الألوان، وطيوراً مبهرجة تجثم على أعشاشها بين الغصون، وجاء كلّ ثمرة وطائر متوازياً في انتفاخه مع نتوءات التربة. كما تبرز على يمين اللوحة حيوانات عملاقة، منقطة ومخطّطة، تجري بحرية، بينما تقف حيوانات أخرى من جنسها متكاسلة على الطرف الأيسر. ما إذا كانت غرابة هذه اللوحة نابعة من الجهل أم من الوهم، فهو أمر لم أستطع حسمه يوماً.

وذات ربيع غادر جدّي منزله السفليّ هذا، ويمّم شطر محطة السكة الحديد، حيث استقلّ القطار المتّجه غرباً. وقال لقاطع التذاكر إنه يريد الذهاب إلى الجبال، ودبّر الرجل أمر إنزاله هنا، الأمر الذي لم يشكّل دعابة مقذعة، ولم يشكّل دعابة أساساً، بما أنه ثمة جبال، عدد لا يحصى منها، وحيث لا تجد الجبال تجد الهضاب. أما البقعة التي قامت عليها البلدة نفسها فهي مستوية نسبياً، بما أنها كانت في ما مضى امتداداً للبحيرة. ويبدو أنه جاء وقت عدّلت فيه الطبيعة أبعادها، مخلّفة عدداً من الهوامش المحيّرة، كما بين الجبال على حالها السابقة والجبال على حالها اليوم، أو بين البحيرة مثلما كانت والبحيرة مثلما هي اليوم. وأحياناً في الربيع تعود البحيرة القديمة وتحتلّ حيزها السابق. ويحدث عندئذ أن يفتح المرء باب القبو في منزله فيجد حشوات أحذية طويلة مشحمة طافية فوق الماء وقد مالت نعالها إلى الأعلى، وألواحاً خشبية ودلاء ترتطم بالحواف، وقد غمرت المياه السلّم المفضي إلى القبو ابتداء

من الدرجة الثانية. كما تجد الأرض وقد طفحت بالمياه وصارت التربة طينية ثم تحولت طمياً، وغمرت المياه الباردة العشب حتى أطرافه. وكان بيتنا يقع على طرف البلدة فوق هضبة صغيرة، فنادراً ما تكوّنت في قبونا أكثر من بركة سوداء يتراكض عليها البعوض. وكانت تتشكّل بريكة في البستان[1]، وتغمر مياه شفافة كالهواء العشب وأوراق الشجر المسودّة والأغصان الساقطة، وتحيط بها الأوراق اليابسة والعشب المخضّل بالماء، والأغصان المتداعية، أما على صفحة البريكة فتنعكس ضئيلة – كما الصور في حدقة العين – السماء والغيوم والأشجار ووجوهنا الحائمة وأيدينا المصقعة.

حصل جدي على وظيفة في شركة السكك الحديدية حال وصوله إلى البلدة، حيث يبدو أن صداقة ربطته بجامع تذاكر ذي شأن غير قليل. لم تكن وظيفة مرموقة بالضرورة. فقد عُيّن مراقباً أو ملوّحاً للقطارات. أياً يكن من أمر، فقد كان يلتحق بعمله ليلاً ويجول في المحطّة حتى الفجر حاملاً بيده قنديلاً. لكنه كان موظّفاً مطيعاً كادحاً، وقدّر له الارتقاء في مهنته. فلم يمرّ عقد من الزمن حتى بات المشرف على تحميل وتنزيل المواشي والشحنات الأخرى، وبعد ست سنوات أخرى صار مساعداً لناظر المحطّة. وقد شغل منصبه مدة عامين إلى حين انتهت حياته البشرية والمهنية – في طريق عودته من شأن ما في سبوكاين– إثر حادثة

(1) Orchard: بستان يضم أشجاراً مثمرة‌ن خاصة أشجار التفاح، وهذا ما يجري وصفه على امتداد الرواية، لا حديقة بالمعنى الاعتيادي الذي نجده في البيوت.

دراماتيكية خرج فيها القطار عن مساره. وعلى الرغم من أن الصحف نشرت الخبر، فوصل حتى دنفر وسان بول[1]، فلم يكن بالفعل بالحادث الدراماتيكي لأن أحداً لم يشهد على وقوعه. فقد وقعت الكارثة في وسط الطريق في ليلة غاب فيها القمر. وكان القطار، وهو قطار أسود اللون لماع يحمل اسم «كرة النار»، قد قطع أكثر من نصف المسافة فوق الجسر حين اندفعت مقدمته نزولاً باتجاه البحيرة، ثم تبعتها بقية القطار، كابن عرس ينزلق عن صخرة. وقد نجا من الحادث رجلان اثنان، هما حمّال ونادل (تربطهما قرابة بعيدة) كانا يقفان على الدرابزين في العربة الأخيرة من القطار، لكنهما لم يكونا شاهدين بأيّ معنى من المعاني، ذلك أن المنطق يفيد بأن الظلمة كانت دامسة إلى حدّ يستحيل على شخص واقف في آخر القطار أن يتبيّن ما جرى في مقدّمه.

هبط الناس إلى شطآن البحيرة، حاملين المصابيح، وظلّ معظمهم واقفاً هناك، وبعد مضي بعض الوقت أوقدوا ناراً. لكن بعض الفتية ذوي القامات الأطول والشبان تقدّموا إلى جسر السكة الحديدية حاملين الحبال والمصابيح. وقد طلا اثنان أو ثلاثة منهم أنفسهم بالشحم الأسود وأوثقوا أنفسهم بالحبال، وهبط بهم آخرون إلى المياه عند الموضع الذي قال النادل والحمّال إنهما يظنّان أن القطار غاص فيه واختفى. وبعد دقيقتين بالتمام والكمال، رُفعت الحبال ثانية وعاود الغطّاسون، الذين تصلبت أقدامهم، تسلّق دعامة الجسر، وجرى تحريرهم من الحبال

(1) Denver و St. Paul: الأولى عاصمة ولاية كولورادو والثانية عاصمة ولاية منيسوتا.

وتدثيرهم بالطانيات. كانت المياه باردة على نحو ينبئ بالهلاك.

ظلّ الغطاسون ينحدرون إلى المياه ويُرفعون ثانية حتى الفجر. وكلّ ما استطاعوا إنقاذه كان حقيبة سفر، وحِشية مقعد، وخسّة. وقد تذكّر بعض الغطّاسين أنهم ارتطموا ببعض الركام في أثناء غوصهم، لكن لابدّ من أنه طفا مبتعداً في الظلمة. وفي الوقت الذي انقطعت فيه آمالهم بالعثور على أيّ من الركّاب، لم يكن قد تبقى ما يمكن إنقاذه، ولا حتى شيئاً من المخلفات، سوى ثلاثة أشياء كان أحدها قابلاً للتلف بسرعة. فبدأوا يشكّون في أن هذا ليس هو المكان الذي سقط فيه القطار. وطُرحت أسئلة حول الكيفية التي يغرق فيها قطار. أيغوص مثل حجر على الرغم من سرعته، أم ينزلق مثل سمكة أنقليس على الرغم من وزنه؟ إذا كان قد خرج عن السكة عند هذا الموضع، فلعله استقرّ على بعد مئة قدم من ذلك المكان. أو ربما يكون قد تدحرج أو انزلق إلى مسافة أبعد بعد ارتطامه بقاع البحيرة،.بما أن دعامات الجسر كانت قائمة أعلى سلسلة من الهضاب المغمورة بالمياه، والتي تشكّل من الجانب الآخر سفح واد شاسع (كان هنالك سلسلة أخرى من الهضاب تبعد عشرين ميلاً لجهة الشمال، وبعضها جزر) ومن جانبها الآخر تتحوّل سلسلة من المنحدرات الصخرية. من الواضح أن هذه الهضاب كانت تشكّل حافة بحيرة أخرى، وقد تشكّلت من صخرة هشة قوّضتها المياه وحرفتها بعيداً عن موضعها. فإذا كان القطار قد انقلب إلى جهة الجنوب (وكانت شهادة الحمّال والنادل تفيد بذلك، لكن في تلك اللحظة كانت مصداقية ما يقولانه شديدة الانخفاض)، وانزلق أو تدحرج مرة أو اثنتين، فقد

يكون استقرّ على مسافة أبعد بكثير.

وبعد وقت جاء بعض الفتية الصغار وبدأوا يقفزون عن الجسر، بحذر في البداية ثم بحماسة، هاتفين صيحات تنمّ عن الروع. وحين أشرقت الشمس حجبت الغيوم النور كلطخة. واشتدّ البرد. ثم ارتفعت الشمس أكثر وتوهجت السماء كالقصدير. وكان سطح البحيرة ساكناً جداً. ومع ارتطام أقدام الفتية بالمياه سُمع صوت تمزّق صغير، وتمايلت قطع من الجليد الشفّاف مع الموج الذي تسبّبت به قفزاتهم، وحين سكنت صفحة المياه ثانية، عاودت هذه القطع الالتحام كشظايا صورة. وقد مضى أحد الفتية نحو أربعين قدماً بعيداً من الجسر، ثم باتجاه البحيرة القديمة، متحسساً طريقه على جدار الجسر، ذلك الحجر الصلد الأعمى، سابحاً ورأسه أولاً ثم منقلباً على ظهره وسابحاً بقدميه. لكنه ارتعب فجأة حين أدرك أنه صار بعيداً بمفرده، فقفز في الهواء، لتحتك قدمه عند هبوطه ثانية بشيء ما، سطح أملس، بموازاة القعر، لكنه كما قال أعلى من القعر بنحو سبعة أو ثمانية أقدام. كان بحسبه نافذة. وقد حطّ القطار في الماء بصورة جانبية، فلم يستطع بلوغ هذا الشيء مرة أخرى، إذ رفعته المياه إلى الأعلى. وقال إن ذلك السطح الأملس، من بين كلّ ما لامسه، لم يكن مكسواً بمادة رخوة كالطمي. كان هذا الفتى كذاباً داهية، ولدا مستوحداً لديه جوع دائم إلى لفت الأنظار. فلم يصدّق أحد قصته ولا كذّبها أحد.

في وقت رجوعه إلى الجسر وانتشاله وإخباره الرجال بالموضع الذي كان فيه، كانت المياه قد أصبحت قاتمة كمداء كالشمع عقب سكبه لكي

يبرد. وكانت الشظايا تتطاير حين يصعد أحد الغطّاسين إلى السطح، ويعاود الغشاء الجليدي، الذي كان قد تمزّق، التشكّل، فيبدو جديداً، زجاجياً، أسود اللون. ثم خرج جميع الغطّاسين من المياه وبحلول المساء كانت البحيرة قد أقفلت على نفسها.

خلّفت هذه الكارثة وراءها ثلاثة أرامل جديدات في «فينغربون»[1]: جدتي، وزوجتا الشقيقين المسنين، صاحبي متجر الأقمشة الجاهزة. وكانت هاتان المرأتان تقيمان في «فينغربون» منذ ثلاثين سنة ونيف، لكنهما رحلتا بعيد الحادثة، إحداهما للعيش مع ابنتها المتزوجة في «نورث داكوتا» والأخرى لكي تعثر على أي أصدقاء أو أقرباء لها في «سويكلي»، بنسلفانيا، التي كانت قد رحلت عنها عروساً. قالتا إنهما ما عادتا قادرتين على العيش في جوار البحيرة، فالهواء يحمل لهما رائحتها، كما باتتا تشمانها في مياه الشرب، وما عادتا تحتملان رائحة البحيرة ومذاقها أو حتى منظرها. فلم تنتظرا إتمام مراسم التأبين أو وضع الشاهدتين، حين مشت مجموعة من المعزّين والنظّارة، يتقدّمهم ثلاثة ضباط من شركة السكة الحديدية، على الجسر، معتمدين على درابزين شيّد للمناسبة، وطرحوا أكاليل الزهر فوق جليد البحيرة.

ومن الصحيح أن المرء يشعر دائماً بحضور البحيرة في «فينغربون»، يشعر بقاعها، وبتلك المياه المعتمة الساكنة التي تعتمل في ذلك القاع.

(1) Fingerbone: بلدة متخيلة، لكن يرى بعض النقاد أنها تستند من خلال وصف الكاتبة لها ومن خلال موقعها الجغرافي إلى مدينة ساندبوينت Sandpoin في ولاية آيداهو مسقط رأس المؤلفة.

فحين تُحرث الأرض في الربيع وتشق، فما ينبعث من تلك الأثلام إلا الرائحة المائية النفاذة عينها. كما تأتي الريح محملة برذاذ البحيرة، وجميع الآبار والغدران والقنوات تفوح منها تلك الرائحة المائية غير مشوبة بأيّ رائحة أخرى. ثمة في أساس المكان تلك البحيرة القديمة المكتومة المجهولة السوداء. ثم هناك «فينغربون»، البحيرة التي نراها على الخرائط وفي الصور الفوتوغرافية، التي تنتشر فوقها أشعة الشمس، وتحتفظ بحياة خضراء وبثروة سمكية، والتي يمكن أن ينظر إليها المرء في ظلّ الرصيف البحري فيرى قعراً صخرياً، لا يختلف كثيراً عن اليابسة. وفوق ذلك، هناك البحيرة التي يرتفع منسوب المياه فيها في الربيع فيتحوّل العشب قائماً قاسياً كالخيزران. وفوق ذلك هناك المياه العالقة في شعاع الشمس، الماثلة للعيان كنَفس حيوان، التي تطفح داخل دائرة من الجبال.

يبدو أن جدتي لم تأخذ الرحيل عن البلدة في الحسبان. فقد عاشت طوال حياتها في «فينغربون». ورغم أنها لم تأت على ذكر الموضوع، وبلا ريب نادراً ما فكرت به، فقد كانت امرأة متدينة ترى الحياة كدرب يسافر عليه المرء، درب سهل بما فيه الكفاية يمتد عبر منطقة شاسعة يتحدّد فيها اتجاه المسافر منذ الخطوة الأولى، وكذلك وجهته الأخيرة، التي، بعد مسافة محسوبة سلفاً، تبرز له في الضوء الاعتيادي مثل بيت بسيط يدخل إليه ويحيي البشر المحترمين هناك الذين يدلونه إلى حجرته التي يجد فيها كل ما فقده يوماً وقد اجتمع معاً، في انتظار مجيئه. تقبّلت فكرة أنها يوماً ما ستلتقي جدي ثانية وسيستأنفان حياتهما معاً، دونما

قلق بشأن المال، وفي ظلّ طقس أكثر اعتدالاً. أملت أن جدي سيحصل بطريقة ما على المزيد من الاستقرار، ومن رجاحة العقل أيضاً. وهذه مسألة لم تكن لها علاقة بتقدّمه في السن، ولم تكن جدتي ممن يعتقدون بإمكانية تحوّل الفرد. الأمر الوحيد الذي كان يؤلمها في وفاته، بما أنها كانت تملك بيتاً وراتباً تقاعدياً وكانت بناتها قد كبرن إلى حدّ ما، أن موته بدا لها نوعاً من التخلي، وهو تخلّ لم يكن مفاجئاً كلياً لها. فكم مرة صحت من النوم صباحاً ووجدته قد رحل؟ وأحياناً كان يمشي لأيام بمفرده مغنياً بصوت منخفض، ويتكلم إليها وإلى أطفاله مثلما يتكلّم رجل بالغ التهذيب إلى الغرباء. والآن ها قد اختفى كلياً. وكانت تأمل أنها حين تتحد به ثانية سيكون قد تغير، بصورة جوهرية، إلا أنها لم تعلّق آمالا على ذلك. على هذا النحو دخلت إلى حياتها كأرملة، وأتقنت هذه الحياة، مثلما أتقنت حياتها كزوجة.

بعد موت والدهن، ظلت الفتيات ملتصقات بها، يراقبن كل ما تفعله، ويتبعنها في أرجاء البيت، ويعترضن طريقها. كانت مولي في السادسة عشرة في ذلك الشتاء؛ وأمي هلين في الخامسة عشرة، وسيلفي في الثالثة عشرة. كنّ، حين تجلس أمهن لترتق بعض الملابس، يقعين أرضاً ويحطن بها، محاولات ألا يكنّ مزعجات، وقد ألقين رؤوسهن على ركبتيها أو على مقعدها، متململات كالأطفال. كنّ يسحبن شراريب الحصيرة، ويطوين هُدب ثوبها، ويتشاجرن أحياناً، بينما يتحادثن بخمول حول المدرسة أو يتذمرن حول أمور صغيرة لا تنتهي، ملقيات الاتهامات على

بعضهن بعضاً. بعد فترة يشغلن المذياع وتبدأ الاثنتان الأخريان بتمشيط شعر الثالثة، سيلفي، الذي كان بنياً خفيفاً وسميكاً وطويلاً يصل حتى خاصرتها. وكانت الأختان الكبيرتان خبيرتين في عقصه في جدائل عند الأذنين والعنق. وكانت سيلفي تجلس واضعة رِجلاً على رِجل، متصفحة المجلات. وحين يستبد بها النعاس تمضي إلى غرفتها وتأخذ قيلولة، ثم تنزل لتناول العشاء في حين شعرها الرائع الجميل مشعث متشابك. ومع ذلك، لا شيء كان من شأنه دفعها إلى الخيلاء.

كن، عندما يحين وقت العشاء، يتبعن أمهن إلى المطبخ، فيجهّزن المائدة، ويرفعن أغطية الأوعية. ثم يجلسن إلى المائدة ويتناولن الطعام معاً، مولي وهلين نيّقتين متمهلتين، وسيلفي عجولة، يرتسم الحليب حول ثغرها. وحتى في تلك الأثناء، في ذلك المطبخ المضاء ذي الستائر البيضاء التي تحجب عتمة الخارج، كانت تشعر بهن متحلقات حولها، يحملقن في وجهها ويديها.

منذ كنّ صغيرات لم يلتصقن بها على هذا النحو، ولا كانت هي واعية على هذا النحو برائحة شعورهن، ونعومتهن، وبحضورهن الطاغي. وكان هذا يملأها ببهجة غريبة، بالمتعة نفسها التي كانت تشعر بها عندما كنّ يرضعن ثديها في طفولتهن، وتروح الواحدة منهن تحملق بوجهها، بينما تبحث عن ثديها الآخر، وعن شعرها، وشفتيها، جائعة للمس، توّاقة للامتلاء والنوم.

لطالما عرفت ألف طريقة لكي تحيطهن جميعاً بما بدا نعمة بكل تأكيد. كانت تعرف ألف أغنية. وكان خبزها طرياً ومربياتها شهية،

وكانت في الأيام الماطرة تعدّ الكعك المحلّى وشرائح التفاح المطهية. وفي الصيف تبقي وروداً في الأصص على البيانو، ووروداً ضخمة ضوّاعة، وحين تتفتّح وتسقط بتلاتها، تضعها في مرطبان صينيّ طويل، مع كبش القرنفل والزعتر وعيدان القرفة. وكانت تنيم بناتها على ملاءات مكوية جيداً[1] تحت طبقات من اللحف، وفي الصباح تمتلئ ستائرها بالضوء على نحو ما تمتلئ الأشرعة بالريح. بالطبع كنّ يعانقنها ويتحسسنها وكأنها عادت للتوّ من بعد غياب. ليس بسبب خوفهن من أن تختفي مثلما فعل والدهنّ، لكن لأن اختفاءه المفاجئ جعلهن يدركن حضورها.

بعد مضي فترة قصيرة على زواجها استنتجت أن الحب ليس إلا نوعاً من التوق الذي لا يساعد التملك على التخفيف من حدّته. ذات مرة، عندما كانا بعد بلا أطفال، وجد إدموند ساعة جيب على الشاطئ. وكان إطارها وسطحها الزجاجي ما زالا سليمين، لكن الدواليب المسننة داخل الساعة نفسها، كانت متأكلة من الصدأ. ففتح الساعة وأفرغها، ووضع مكان الدواليب المسننة ورقة مدوّرة رسم عليها فرسي بحر. وقدّمها لها كقلادة تعلقها بسلسلة على رقبتها، لكنها بالكاد وضعتها لأن السلسلة كانت قصيرة جداً بحيث لا يمكنها النظر بسهولة إلى فرسي البحر. وخشيت من أن تتضرّر إذا علقتها على حزامها أو وضعتها في جيبها. وربما ظلت لمدة أسبوع تحمل القلادة في روحاتها

(1) في الأصل starched، أي غسلت بالماء والنشاء أو أضيفت إليها طبقة من النشاء قبل كيها، وذلك لإكسابها المزيد من النعومة وإزالة التجاعيد عنها.

وغدواتها، حتى في داخل الغرف، ولم يكن هذا لأن إدموند صنعها لها، أو لأن الرسم كان أقلّ غرابة وبهرجة من الرسومات التي اعتاد رسمها، ولكن لأن فرسي البحر نفسيهما كانا عجيبين جداً، وبالغي التقوس، وفي غاية النبالة. كان فرسا البحر هما ما ترغب في رؤيته حالما تبعد ناظريها عنهما، وما ترغب في رؤيته حتى وهي تنظر إليهما. ولم تكن تخمد هذه الرغبة حتى يقصي اهتمامها عنها شيء ما، شجار ما، أو زيارة ما. وبالطريقة نفسها كانت بناتها يتحسسنها ويراقبنها ويتبعنها، لفترة من الوقت.

أحياناً كنّ يصرخن ليلاً، صرخات صغيرة رفيعة لم تكن توقظهن. وكان الصوت يتوقف لحظة تبدأ بارتقاء السلم، مهما يكن وقع خطوها ناعماً، وحين تصل إلى غرفهن تجدهن جميعاً غافيات بهناء، وقد اختفى مصدر الصرخة في الصمت، مثل صرّار ليل. كان مجرد مجيئها يكفي لتهدئة الكائن.

في حقيقة الأمر، كانت السنوات الفاصلة بين وفاة زوجها ورحيل كبرى بناتها، سنوات من الصفاء التام. وإذا كان جدي يتكلم أحياناً على خيبة الأمل، فقد تحررن برحيله من احتمالات النجاح والتقدم والاعتراف المؤرقة. لم يعد لديهن ما يتطلعن إليه، ولا ما يأسفن عليه. وقد التفت حيواتهن حول هذا العالم الدوّار مثلما يلتف خيط في مغزل: موعد الإفطار، وموعد الغذاء، وموعد الليلك، وموعد التفاح. إذا كانت الجنة هي هذا العالم وقد طهّر من الكوارث والعبث، وإذا كان الخلود هو هذه الحياة وقد جمّدت في لحظة ثابتة، وإذا كان يمكن اعتبار

أن هذا العالم المطهّر وهذه الحياة الثابتة قد رُدّا إلى طبيعتهما الحقيقية، فلا عجب أن هذه السنوات الخمس الصافية الخالية من الأحداث، قد دفعت جدتي إلى نسيان ما لم يجدر بها قطّ نسيانه. فقبل ستة أشهر من رحيل ابنتها الكبرى مولي كانت الأخيرة قد تغيرت كلياً. فقد أصبحت شديدة التديّن. وباتت تنشد التراتيل على البيانو، وترسل بالبريد رسائل مطوّلة إلى الجمعيات الإرسالية، تضمنها سجلات عن تحولها الأخير ونسخاً من قصيدتين طويلتين، إحداهما عن البعث والأخرى عن زحف كتائب المسيح في العالم. وقد قرأت هاتين القصيدتين. وتتكلم الثانية بعاطفة كبيرة تجاه الوثنيين، ولاسيما تجاه الإرساليات، «تأتي الملائكة لترفع الحجارة المطبقة على الأضرحة».

خلال ستة أشهر تدبّرت مولي أمر سفرها إلى الصين، لكي تنضمّ إلى جمعية إرسالية. وبينما كانت مولي تملأ الدنيا كلاماً على «أرض الميعاد»[1] وبترتيلة «أيها الرب، إننا نستطيع»[2]، فقد كانت أمي هلين تمضي الوقت في الأيكة متكلمة برقة وجدية إلى شخص يدعى ريجنالد ستون، والدنا الافتراضي (لا أذكر هذا الرجل إطلاقاً، لكنني رأيت له صورتين فوتوغرافيتين، التقطتا في يوم مراسم زواجه الثانية، ويبدو فيهما رجلاً شاحب الوجه ذا شعر أسود ناعم، يقف مسترخياً ببزته الداكنة، من دون أن يحسب نفسه موضوع أيّ من الصورتين. ففي إحداهما

(1) Beulah Land نشيد ديني معروف، يرتل في الكنائس.

(2) God, we are able: ترتيلة مستوحاة من إنجيل مرقس: «فقال لهما يسوع لستما تعلمان ما تطلبان أتستطيعان أن تشربا الكأس التي أشربها وأن تصطبغا بالصبغة التي أصطبغ بها أنا، فقالا له نستطيع... (إنجيل مرقس، 10: 38).

ينظر إلى أمي، التي تخاطب سيلفي، التي تدير ظهرها للكاميرا. وفي الثانية يسوّي الانبعاجات في قبعته، بينما تقف جدتي وهلين وسيلفي قربه جنباً إلى جنب ناظرات إلى الكاميرا). بعد ستة أشهر من مغادرة مولي إلى سان فرانسيسكو ثم سفرها شرقاً، استعدّت هلين لكي تكون ربة منزل في سياتل مع ستون هذا، الذي يبدو أنها تزوجته في نيفادا. وقد روت سيلفي كم كان استياء جدتي عظيماً من زواج الخطيفة هذا الذي تمّ في ولاية أخرى، وقالت إنها لن تعتبرها متزوجة حقاً ما لم تعد إلى البيت وتتزوج ثانية أمام ناظريها. وقد وصلت هلين وزوجها بالقطار مع صندوق محمّل بثياب العرس، وعلبة من زهور الزينة والشمبانيا المخزّنة في الجليد الجاف. ليس لديّ ما يدعوني إلى الظنّ أن أمي وأبي كانا مرتاحين مادياً، فلابدّ لي من أن أفترض إذن أنهما تجشّما الكثير من العناء لكي يحقّقا رغبة جدتي. ومع ذلك، بحسب سيلفي، لم يكملا يوماً في «فينغربون». ولكن لابدّ من أن العلاقات أصلحت بشكل ما، لأنه بعد بضعة أسابيع، ركبت سيلفي – التي ارتدت معطفاً وقبعة وزوج حذاء، كلها جديدة، فضلاً عن أفضل قفازين وحقيبة يد وحقيبة سفر تملكها أمها – القطار إلى سياتل، لكي تزور أختها المتزوجة. ولدى سيلفي صورة فوتوغرافية تظهر فيها لماعة ونضرة وأنيقة وهي تلوح من باب عربة القطار. وبحسب علمي، عادت سيلفي إلى المنزل مرة واحدة فحسب، لكي تقف حيث وقفت هلين في حديقة جدتي وتتزوج رجلاً يدعى فيشر. ومن الجليّ أنه لم تلتقط أيّ صور لهذه المناسبة.

في عام كان منزل جدتي محتشداً بثلاث فتيات ميالات إلى الصمت،

وفي العام الذي تلاه بات البيت شاغراً. ولابدّ من أن جدتي حسبت أن ميل بناتها هذا إلى الصمت، نبع من أن عادات حيواتهن وتقاليدها قد حرّرتهن تقريباً من الحاجة إلى الكلام. كانت سيلفي تضيف إلى قهوتها قطعتين من السكر، وكانت هلين تحب التوست محمصاً جيداً، وكانت مولي تتناول التوست دون زبدة. كانت هذه أشياء معروفة. مولي تبدّل غيارات الأسرّة. وتقشّر سيلفي الخضروات. وتغسل هلين الأطباق، وأحياناً تعدّ الحلوى. وبين الحين والأخر، تبحث مولي في غرفة سيلفي عن الكتب غير المعادة إلى المكتبة. وأحياناً تعدّ هلين الحلوى، وتقطف سيلفي باقات الورد. وقد استقرّ هذا الصمت التام في منزلهن في أعقاب موت والدهن، حدث زعزع ركيزة حياتهن، وقد حمل إليهن الزمن والهواء وأشعة الشمس موجات متتابعة من الصدمة، حتى خمدت هذه الصدمة، وعاد الهدوء إلى الزمن والمكان ونور الشمس إلى هدوئها السابق، ولم يعد يبدو أن شيئاً يرتعش مضطرباً أو يجنح عن مساره. خرجت الكارثة عن مجال الرؤية، مثل القطار نفسه، وإذا لم يكن الهدوء الذي أعقبها أعظم من الذي سبقها، فلقد بدا كذلك على الأقل. وعاودت الحياة الاعتيادية العزيزة الالتئام مثل صورة ساكنة على سطح الماء.

لنقل إن جدتي حملت ذات يوم سلة الملاءات لكي تنشرها في شعاع شمس الربيع، مرتدية أسود الحداد، ممارسة طقوس العيش الاعتيادي كفعل من أفعال الإيمان. ولنقل إن الثلج القديم كان بسماكة نحو إنشين أو ثلاثة إنشات، وإن التربة كانت ترشح هنا وهناك من صدوع الجليد،

وإن شعاع الشمس كان دافئاً، عندما لا تبدّده الريح، وقل إنها انحنت مقطوعة النفس بسبب مشدّها، لكي تحمل ملاءة مبللة من أطرافها، وقل إنها حين علقت ثلاثة من أطرافها على الحبل بدأت الملاءة تعصف بين يديها، مرفرفة، مرتعشة، يتوهّج النور على صفحتها، وأن عصفها كان جذلاً وقوياً وكأنها روح ترقص في الكفن. لعلها قالت: يا لها من ريح! لأنها جعلت أطراف معطفها تلتصق بساقيها وطيّرت خصلات شعرها. جاءت الريح من البحيرة وكانت رائحتها تحمل عذوبة الثلوج، وعفونة الثلوج الذائبة، مذكّرة بالأزهار الصغيرة القليلة التي كانت هي وإدموند يسيران معاً مسافة نصف يوم لقطفها، وإن كانت جميعها، في يوم آخر، تكون ذابلة. كان إدموند يحمل دلوين ومجرفة، ويقتلعها مع تربتها، ويأتي بها إلى البيت لكي يزرعها، فتموت. كانت زهوراً نادرة تنبت في أوكار النمل وروث الدببة ولحوم الحيوانات النافقة. كانا يتسلقان حتى يتصبّبا عرقاً، ويطاردهما ذباب الخيل[1]، وتحمل لهما الريح الصقيع. وحيث تتقهقر الثلوج، قد يرون رميم شيهم[2]، ناباً هنا، أو ذيلاً هناك. وتكون الريح فاسدة مفعمة برائحة الثلج القديم والموت وعصارة الصنوبر الراتنجيّ[3] والزهور البرية.

وبعد شهر من ذلك تبرعم تلك الأزهار. بعد شهر تنهض الحياة من سباتها ويعاود التحلّل رحلته من جديد. وبعد شهر تنهي الحداد، لأنه

(1) Horsefly: نوع من الذباب كبير الحجم الذي يمص دم الخيول.

(2) Porcupine: الشيهم أو النيص، حيوان شائك من القوارض.

(3) Pitch Pine: نوع من الصنوبر، ينمو خصوصاً في شرق أمريكا الشمالية.

في هذا الفصل لم تشعر قط أنهما كانا متزوجين، هي وذلك الميتودي[1] الصامت إدموند الذي كان يضع ربطة عنق وحمالات البنطال حتى إذا ذهب ليقطف الأزهار البرية، والذي يتذكر بالضبط أين تنمو من عام لعام، مغمساً منديله في بريكة موحلة لكي يغلف السويقات، والذي كان يمدّ ذراعيه لها لكي يساعدها على عبور الأماكن الصخرية العميقة، برصانة صامتة وباردة، ما كانت تعترض عليها لأنها لم ترغب يوماً في أن تشعر بأنها متزوجة حقاً من أيّ كان. أحياناً كانت تتخيله رجلاً داكن البشرة، خطّت خطوط فظة على وجهه وبطنه الضامرة، وقد ستر أعضاءه التناسلية بخرقة، وتدلت العظام من أذنيه، وزيّن ذراعاه وخاصرته وعنقه وكاحلاه بالريش والعظام والأنياب والصلصال والمخالب والعضلات والجلود، ليمثل جسده بأكمله منحوتة مخيفة أكثر من الموت الذي كسا جسده بتذكاراته تلك. كان إدموند هكذا، قليلاً. وكان مجيء الربيع يثير فيه حماسة جدية ملغزة، تجعله غافلاً عنها. كان يلتقط قشور البيض، أو جناح طائر، أو عظام فك، أو قطعة هشّة من عش زنبور. ويروح يحدّق في كل منها بأقصى اهتمام وكأنه يستطيع قراءتها، ثم يضعها في جيوبه وكأنه يستطيع امتلاكها. هذا الموت في يدي، هذه الفضلات في جيب صديري، حيث أضع نظارات القراءة. وفي مثل هذه الأوقات

(1) أحد أفراد الكنيسة الميتودية Methodism: كنيسة بروتستانتية نشأت عام 1729 بين بعض طلاب جامعة أوكسفورد، وذلك بعد حركة إحياء أو نهضة شهدتها كنيسة إنكلترا، قادها الأخوان جون وشارل ويسلي، وقد انتشرت هذه الكنيسة في الولايات المتحدة الأمريكية، وشهدت الانقسامات عينها التي شهدتها في إنكلترا، قبل أن تتوحد في =

= العام 1968 في ظل «الرابطة الميتودية العالمية» التي تضم أربعين كنيسة وينضوي تحتها نحو أربعين مليون شخص، نصفهم في الولايات المتحدة الأمريكية.

يكون غافلا عنها كما عن حمالات بنطاله وإيمانه الميتودي، ومع ذلك فقد كانت تحبه في تلك الأوقات أكثر من أي وقت آخر، بوصفه روحاً مفردة ووحيدة مثلها.

إذن فالريح التي عصفت في ملاءاتها أعلنت لها عن انبعاث الاعتيادي. سرعان ما ينبت الملفوف المنتن[1]، وتعود رائحة السدر إلى الأيكة، وتعود الفتيات إلى غسل وتنشية[2] وكي فساتينهن القطنية (غسل فساتينهن القطنية وتنشيتها وكيها). وكل أمسية تأتي بغرابتها الأليفة، وتصدح جداجد الليل[3] طوال الليل، تحت نوافذ منزلها، وعلى امتداد ذلك القفار الأسود الذي يسوّر «فينغربون» من كلّ جانب. وعندئذ تشعر بتلك الوحدة القاسية التي لطالما شعرت بها في كل من الأماسي الطويلة منذ طفولتها. كان ذلك النوع من الوحدة الذي يجعل عقارب الساعات تبدو بطيئة صاخبة وتجعل الأصوات أشبه بأصوات آتية جهة الماء. وقد عرفت امرأتين هرمتين، أولاً جدتها ثم أمها، اللتين كانت تجلس كلّ منهما على كرسيها الهزّاز على على الشرفة في المساء، وتدمدم أغنيات حزينة، غير راغبة في محادثة أحد.

والآن، لكي تؤاسي نفسها، باتت جدتي تصرف فكرها عن قسوة أطفالها، أو عن الأطفال عموماً. لقد لاحظت مرات عدة أن وجوه

(1) skunk cabbage يختلف عن الكرنب العادي ويصدر رائحة نتنة تبعد الحيوانات عنه ويأتي الاسم تشبيها بالظربان الأمريكي (skunk) الذي يصدر رائحة كريهة جدا يستعملها وسيلة دفاع تبعد عنه أخطار الثعالب والذئاب وحتى الدببة.

(2) من النشاء، الرش بالنشاء قبل الكيّ، على ما جاء ذكره سابقاً.

(3) Cricket: جدجد الليل أو صرّار الليل، لأنه يصدح أو يصدر صريره ليلاً، حشرة نطّاطة شبيهة بالجراد.

الفتيات تكون دائماً رقيقة ورزينة وباطنية وساكنة حين تنظر إليهن، تماماً مثلما كنّ في صغرهن، تماماً هنّ اليوم في نومهن. وإذا كان ثمة صديق ما في الحجرة فإنهن كنّ يحدّقن في وجه هذا الصديق أو الصديقة بتركيز، ويقمن باستفزاز أو مداعبة أو مجاملة هذا الشخص، ويقسن ويتجاوبن، بمن فيهن سيلفي، مع أقلّ تبدّل، يشهده وجهه، لو رغبن في ذلك. لكن لم يكن يخطر لهنّ أن يكيفن سلوكهن أو ألفاظهن مع نظراتها إليهن، ولم تكن تريد ذلك. في حقيقة الأمر، غالباً ما كانت تجد نفسها مندفعة، أو متريثة، بفكرة الاحتفاظ بحالة اللاوعي هذه لديهن. كانت تتخذ عندئذ موقف المرأة الوقور، ليس بسبب طولها ووجهها الضخم حاد الملامح فحسب، ولا بسبب أسلوب تنشئتها لبناتها فحسب، لكن أيضاً لأن هذا يناسب غرضها، أي أن تظهر بهذا المظهر لكي لا تجفل بناتها أو يفاجأن، وأن تضطلع بجميع وضعيات ربة المنزل ومهامها، لكي تفرّق حياتها عن حيواتهن، فلا تشعر واحدة منهن أنها عرضة للتطفّل الخارجي عليها. كانت تحبهن حباً مطلقاً متساوياً، وكانت تربيتها لهن كريمة صرفة. كانت ثابتة كضوء النهار، ومثله اعتيادية لا يلحظ وجودها، فقط لتشاهد ذلك الهدوء الداخلي مرتسماً على وجوههن. كيف حدث الأمر. ذات أمسية صيفية خرجت إلى الحديقة. كانت التربة في صفوف الزرع خفيفة وناعمة كالرماد، كناية عن طين أصفر شاحب، وكانت الأشجار والنباتات يانعة، وقد اكتست خضرة اعتيادية، وراحت تخشخش بنعومة. وفوق التربة الشاحبة والأشجار الزاهية كانت السماء زرقاء داكنة كالرماد. وحين انحنت فوق الزّرع

سمعت نبات الخطميّ الورديّ يرتطم بجدار السقيفة. شعرت بالريح الرقيقة المحملة بالرذاذ ترفع الشعر عند عنقها، ورأت الأشجار تحتشد بالريح وسمعت جذوعها تصدر صريفاً كصواري السفن. دست يدها في نبتة بطاطا وشعرت بالبهجة وهي تتحسّس الحبات الجديدة في شبكتها الجافة من الجذور، الناعمة كالبيض. وضعتها في مئزرها وعادت إلى البيت وهي تفكّر: ما الذي رأيته، ما الذي رأيته. الأرض والسماء والحديقة، ليست كما هي دائماً. ورأت وجوه بناتها ليست كما كانت دائماً، أو كما كانت وجوه الآخرين، كانت هادئة ومنعزلة ومترقبة، لكي لا تجفل تلك الغرابة فتبعدها. لم تعلمهن قطّ أن يكنّ لطيفات معها.

مرّ ما مجموعه سبعة أعوام ونصف بين رحيل هلين من «فينغربون» وعودتها إليها، وحين عادت أخيراً كان ذلك صبيحة يوم أحد، حيث تعلم أن أمها لن تكون في البيت، ولم تبق سوى الوقت الكافي لكي تضعني أنا ولوسيل على المقعد في الشرفة ذات الستارة، مع علبة كاملة من بسكويت غراهام[1] لكي تحول دون أن نتشاجر عليها أو أن نصاب بالسأم بينما ننتظر هناك.

ربما بدافع من الكياسة لم تسألنا جدتي قطّ عن حياتنا مع أمنا. ربما لم تكن مهتمة بالأمر. ربما كانت تشعر بمهانة عميقة من سلوك هلين

(1) Graham Crackers: نوع من البسكويت، الذي صنعه للمرة الأولى عام 1822 القس سيلفستر غراهام في نيوجيزري، لكي يكون نوعاً من الغذاء الصحي كونه مصنوعاً من الطحين الأبيض وغنياً بالألياف.

السري بحيث أنها حتى الآن ظلت ترفض الاعتراف به. ربما لم تكن راغبة في أن تعلم بصورة غير مباشرة ما لم ترد هلين إعلامها به مباشرة.

لو سألتني لأخبرتها أننا عشنا في شقة من غرفتين في أعلى بناية رمادية، وكانت جميع نوافذ الشقة - كانت خمسة، إضافة إلى باب مكوّن من خمسة ألواح من المضلعات الصغيرة - تطلّ على رواق أبيض صغير، هو قمة سقالة ضخمة ذات درجات بيضاء وممرات، وكانت هذه السقالة ثابتة تتصل متداخلة بالمبنى كحافة ماء متجلدة ممتدة من جرف صخري، وكان سطحها رمادياً محبّباً كالملح الجاف[1]. ومن هذا الرواق كنا نطلّ على أسطح واسعة من طنف إلى طنف، وقد امتدت مثل خيام كئيبة فوق أكداس البضائع، وفوق البندورة واللفت والدجاج، وفوق السلاطعين والسلمون وفوق ناد راقص فيه «جوكبكس» تصدح فيها أغنيات مثل «عندليب على الشجرة» و«عمت مساء يا أيرين»[2]، قبل الإفطار. لكن من هذا كله، من موقعنا المطلّ هذا، لم نكن نرى سوى أسطح الخيام. وكانت النوارس تقف في صفوف على درابزين شرفتنا

(1) المقصود بالسقالات هنا على الأغلب ما يعرف بسلم الحريق الخارجي في بعض الأبنية.

(2) Sparrow in the treetop أغنية ذاع صيتها في الخمسينات من القرن العشرين من تأليف بوب مريل، وأعيد غناؤها مرات عدة. ولعل صلتها غير المباشرة بالرواية هنا هو السطر الذي يقول فيها «إنني عندليب على قمة شجرة، أخشى العودة إلى البيت لأن الوقت تأخر كثيراً»، وهذه الصلة ستتضح أكثر في سياق الرواية. أما الأغنية الثانية التي يكثر ذكرها في هذه الرواية وهي Good Night, Irene فتعود إلى مطالع الثلاثينات من القرن العشرين وتعدّ من الأغنيات الشعبية الأمريكية، وهي أغنية حب يتكلم فيها المغني عن حبه الضائع آيرين، لكن أهميتها في الرواية كونها تشير إلى الانتحار، وخصوصاً في السطر الذي يقول «يخطر لي أحياناً أن أرمي نفسي في البحيرة وأغرق»، وهذه الصلة ستتضح أيضاً أكثر في سياق العمل.

متصيدة الفضلات.

بما أن نوافذ الغرفتين كانت على واجهة المبنى، فقد كان ضوء النهار يملأ البيت، عند ذلك الموضع، لكنه يزداد عتمة داخل الشقة أكثر. كان ثمة في عمق الحجرة الرئيسية باب ينفتح على رواق فرش بسجادة، ولم يكن يفتح أبداً، فقد أقفل في الحقيقة بكنبة خضراء شديدة الضخامة بشعة تبدو كأنها رفعت من عمق أربعين قدماً من المياه. إضافة إلى مقعدين طينيي اللون وضعا متقابلين، وعلق أعلى الجدار نصفا أوزتين بريتين من السيراميك في وضعية الطيران. أما بقية الحجرة فتضمنت طاولة قمار مستديرة غطيت بمشمّع مربّع النقش، وثلاجة، وخزانة أوان زرقاء فاتحة، ونضداً صغيراً وضع عليه موقد غاز، ومغسلة ذات حاشية من المشمّع. وقد مدّت هلين حبل غسيل طويل جعلت في طرفيه اثنين من أحزمتنا وعلقته على مقبض الباب، الأمر الذي كان يشجعنا على النظر من الرواق الخارجي حتى عندما تكون الرياح شديدة.

كانت برنيس التي تعيش في الشقة تحتنا، زائرتنا الوحيدة. وكانت شفتاها أرجوانيتين وشعرها برتقالي وحاجباها مقوسين وقد رسم كل منهما في خطّ بني منفرد، وكان ثمة منافسة بين العناية والإهمال تنتهي بأحد هذين الخطين عند أذنها. كانت امرأة مسنّة، لكنها نجحت في أن تظهر بمظهر شابة مصابة بمرض عضال. كانت تقف ساعات على مدخل شقتنا، مقوّسة ظهرها الطويل وشابكة ذراعيها فوق بطنها الكروي، راوية حكايات فضائحية بصوت هامس يأخذ في الاعتبار أنه لا يجدر بي وبلوسيل سماع ما تقوله، وفي خضم سردها تلك الحكايات

كانت تتسع عيناها في ذهول التذكر، ومن وقت لآخر تضحك وتلكز ذراع أمي بأظافرها الأرجوانية. وكانت هلين تقف مستندة عند الباب، وتطرق مبتسمة، وهي تجدل شعرها.

كانت برنيس تحبنا. ولم تكن لديها عائلة أخرى ما عدا زوجها تشارلي الذي اعتاد الجلوس على الشرفة واضعاً يديه على ركبتيه وبطنه في حضنه، وجلده مبرقش كالنقانق، وعروق غليظة تنبض على صدغيه وعلى ظاهر يديه. كان يتكلم باقتضاب كأنما يصون أنفاسه. كلما نزلنا الدرج ينحني ببطء نحونا ويقول: «مرحى!». وكانت برنيس تحب أن تأتي لنا بالكاسترد ذي الطبقة الصفراء السميكة وتحتها سائل له كثافة الدمع. كانت هلين تبيع مستحضرات التجميل في صيدلية، فتعتني بنا برنيس عندما تكون هي في العمل، مع أن الأخيرة نفسها كانت تعمل طوال الليل عاملة صندوق في سناك للشاحنات. كانت تحاول أن تجعل نومها خفيفاً كفاية بحيث تصحو على صوت أي عراك بالأيدي، أو تحطم للأثاث، وسوى ذلك من نوبات النكد المنزلي. وقد نجحت طريقتها هذه، وإن كانت تصحو برنيس أحياناً بوازع غير محدد، وتهرع على الدرج بثوب النوم ومن دون حاجبي العينين، وتطرق نوافذنا، في حين نكون جالستين بهدوء مع أمنا. ولم تكن تشعر بحنق أقلّ لأن أسباباً ذاتية هي التي قطعت نومها. لكنها كانت تحبنا كرمى لأمنا.

وقد أخذت عطلة أسبوع من العمل لكي تتمكن من إعارتنا سيارتها لزيارة «فينغربون». فحين علمت من هلين أن أمها حية ترزق، بدأت تحثها على العودة إلى البيت لبعض الوقت، وكم كانت مسرورة حين

اقتنعت هلين أخيراً. واتضح أن تلك كانت رحلة مصيرية. حين أخذتنا هلين عبر الجبال والصحراء وإلى الجبال ثانية، وأخيراً إلى البحيرة وفوق الجسر إلى البلدة، يساراً عند الإشارة الضوئية إلى شارع «سيكامور» ثم مباشرة عبر ستة أحياء. وضعت حقيبتينا على الشرفة الخارجية المحاطة بإطار منخّل التي كان يقطنها قط وغسالة قديمة، وقالت لنا أن ننتظر بهدوء. ثم عادت إلى السيارة وقادت شمالاً إلى ما قبل «تايلر» حيث قفزت بسيارة برنيس من أعلى جرف يدعى «ويكسي روك» لتحطّ في أعمق أعماق البحيرة.

وقد جرى البحث عنها. وأرسل الخبر عبر مئات الأميال في كل اتجاه للتنبه إلى شابة في سيارة وصفتها أنا بأنها زرقاء اللون، وقالت لوسيل إنها خضراء. بعض الفتية الذين كانوا يصطادون السمك ولا علم لديهم بأمر عملية البحث رأوها جالسة شابكة القدمين على سطح سيارتها، التي غاصت في المرج بين الطريق والجرف. وقالوا إنها كانت تحملق بالبحيرة وتتناول الفراولة البريّة، الذي كانت حباته ضخمة ووافرة تلك السنة. سألتهم بلطف شديد أن يساعدوها على جرّ السيارة من الوحل، وساعدوها إلى حدّ وضع ملاءاتهم ومعاطفهم تحت العجلات لتسهيل العملية. وحين تمكنوا من إعادة «الفورد» إلى الطريق شكرتهم وأعطتهم حقيبتها، وأخفضت زجاج النافذتين الخلفيتين، وشغلت السيارة وانطلقت مسرعة إلى اليمين ثم مضت منحدرة عبر المرج حتى حلقت من حافة الجرف.

أمضت جدتي أياماً في غرفة نومها. أحضرت من الردهة مقعداً ومسنداً وضعتهما عند النافذة التي تطل مباشرة على الأيكة، وجلست هناك، وكان الطعام يجلب لها إلى حيث هي. لم تكن راغبة في الحراك. كان يمكنها أن تسمع، إن لم يكن الكلمات والمحادثات بدقة، فعلى الأقل أصوات الناس في المطبخ، تلك المجموعة اللطيفة والرسمية من الأصدقاء والمعزّين الذين استقرّوا في منزلها للاعتناء بالأمور. كانت صديقاتها مسنات جداً، محبات لتناول الكعك الأبيض ولعب البيناكل. وكن يتطوعن اثنتين اثنتين أو ثلاث ثلاث للاعتناء بنا، في حين تلعب الأخريات الورق على مائدة الإفطار. وكان ينزهنا رجال طاعنون في السن متوترون حازمون، يروننا القطع المعدنية الإسبانية والساعات وخناجر الجيب متعددة الأشكال والاستعمالات، وذلك لكي يبقوننا على مقربة منهم بعيداً عن درب الازدحام المحتمل. وكان هناك عجوز ضئيلة تدعى إتي، كان جلدها بلون فطر الغاريقون السام و كانت ذاكرتها مدمّرة إلى حدّ يمنعها من لعب الورق، وكانت تجلس وحدها على الشرفة، وقد أمسكت يدي مرة وأخبرتني أنها في سان فرانسيسكو، قبل نشوب الحريق، عاشت بجوار كاتدرائية، وفي المنزل المقابل لمنزلها عاشت سيدة كاثوليكية تربي على شرفتها ببغاء كبيراً. حين تقرع أجراس الكاتدرائية تخرج السيدة واضعة شالاً على رأسها وتصلي، ويصلي معها الببغاء، ويستمر صوت المرأة والببغاء، بين الصخب والقعقعة. وبعد فترة مرضت السيدة أو على الأقل ما عادت تخرج إلى الشرفة، لكن الببغاء ظلّ هناك، وظلّ يصفر ويصلي

ويحرّك بذيله كلما رنّ قرعت الأجراس. وقد أتى الحريق على الكنيسة والأجراس وبلا شك على الببغاء أيضاً، وربما على السيدة الكاثوليكية أيضاً. وأخيراً لوحت إتي بيدها وكأنها تتخلص من الحكاية برمتها وتظاهرت بالنوم.

اعتنت بنا جدتي خير عناية طوال خمس سنوات. اعتنت بنا وكأنها تعاود عيش يوم طويل في حلم، ومع أنه كان يبدو عليها شرود الحالمين، فأظن أنه بدا عليها ما يفوق تطلب الوضع الراهن، فقد ازداد اهتمامها، وفي الوقت نفسه داخلته الحيرة، جراء إدراكها أنها عاشت هذا الحاضر قبلاً، وأن نتائجه حسمت سلفاً. ولا ريب في أنها شعرت أنها تعاود عيش هذا الحاضر لأنه فيه بالذات ضاع أو نسي شيئ ما. فكانت تعكف على الاهتمام بنا من تلميع أحذيتنا وعقد خصل شعرينا وإعداد الدجاج المقلي لنا وترتيب سريرينا، وإذ فجأة يستبد بها الخوف وتتذكر أن جميع بناتها قد اختفين على نحو ما، جميعهن. كيف حصل ذلك؟ أنى كان لها أن تعرف؟ وكانت تلمّع الأحذية وتعقد خصل الشعر وترتّب الأسرة، وكأن إعادة تمثيل أمر عام، ستجعله عاماً من جديد، أو كأنها تستطيع أن تعثر على الصدع والخلل في نسيج حياتها شديد الانتظام والاعتيادية، أو تكتشف على الأقل ما ينبئها بأن بناتها الثلاث سيختفين مثلما فعل والدهن. لذا حين كانت تبدو شاردة أو سارحة الفكر، أظن أنها كانت في حقيقة الأمر في حال من الوعي بشتى الأمور معاً، وليس لديها وسيلة تساعدها على ترتيبها وفقاً لأهميتها، وأن وعيها هذا لا

يمكن أن يزول، بما أنه بين الأمور التي كانت تحسبها اعتيادية أن هذه الكارثة قد حصلت.

ولابدّ من أنه بدا أيضاً، أنها تمتلك الوسائل الأوهن والأقل ملاءمة لأكثر الاستعمالات إلحاحاً. وقد أخبرتنا ذات مرة، أنها حلمت بأنها رأت طفلاً يسقط من طائرة وحاولت الإمساك به في مئزرها، وذات مرة حاولت إخراج طفل من بئر بمصفاة للشاي. وقد اعتنت بي وبلوسيل بكثير من الدقة، وقليل من الثقة بالنفس، وكأن ما تقدّمه لنا من السنتات وكعك الشوكولاته من شأنه أن يستبقينا، أن يستبقي روحينا، هنا في مطبخها، وإن كانت تعلم يقيناً أن هذا غير صحيح. وقد أخبرتنا أن أمها عرفت امرأة كانت غالباً حين تنظر من نافذتها ليلاً ترى أشباح أطفال يبكون على جانب الطريق. وكان أولئك الأطفال بسواد السماء ويرقصون عراة تماماً في البرد ويمسحون دموعهم بظواهر أكفهم وبواطنها، ثائرين غضباً، وكانوا يستحوذون على جل اهتمام المرأة جسداً وروحاً. فكانت تضع لهم الحساء في الخارج، فتتناوله الكلاب، وتضع البطانيات التي تجدها في الصباح رطبة من الندى دون أن يطرأ عليها أي تغيير. كان الأطفال يمصون أصابعهم ويطوقون أذرعهم حول خواصرهم جوعاً كالسابق لكنها ظنت أنها ربما استرضتهم على نحو ما لأنهم صاروا أكثر عدداً وصاروا يجيئون بوتيرة متزايدة. وحين ذكرت لها أختها أن الناس يرون من الغريب أن تضع الحساء في الخارج للكلاب، كان ردّها المنطقي أن كل من يرى هؤلاء الأطفال المساكين سيفعل الأمر نفسه. أحياناً بدا لي أن جدتي رأت روحينا السوداوين

ترقصان في البرد المظلم وتقدم لنا فطيرة التفاح كإشارة عن حسن النية واليأس.

وكانت طاعنة في السن. لم تكن امرأة معتادة على الإفراط في أيّ شيء، وبالتالي فإن تقدّمها في السن كان بالأحرى مستغرباً. صحيح أنها كانت مستقيمة القامة ونشيطة وحاضرة الذهن في حين كانت جميع صديقاتها مرتعشات الرؤوس، مشوّشات الكلام، أو غرقن في الكراسي النقالة أو الأسرة. لكن في السنوات الأخيرة أخذ يستقر جسدها في الشيخوخة وفي الانكماش. فارتخى فمها وتراجع جبينها إلى الخلف، والتمعت جمجمتها بلون زهري وتبقعت بسديم من الشعر، الذي كان يحوم حول رأسها مثل ذكرى شيء متحوّل. بدت كأن الهالة البشرية فيها بدأت بالخبو وأخذت بالتحول إلى قرد. وقد نبت الشعر كثيفاً معقوصاً على حاجبيها، ونبتت شعرات بيضاء قاسية على شفتيها ووجنتيها. وحين كانت ترتدي فستاناً قديماً كان صدر الثوب يبدو فارغاً أما حاشيته فتمسح الأرض. وصارت القبعات القديمة تسقط متهدلة فوق عينيها. وأحياناً كانت تضع يدها على فمها وتضحك، مغمضة عينيها وهازة كتفيها. في أولى ذكرياتي عنها كانت جدتي قد طعنت في السن. أتذكر جلوسي تحت لوح الكيّ، الذي كان ينزل من جدار المطبخ، بينما تكوي ستائر الردهة وتدمدم «روبين أداير»[1]. وكانت الستائر تسقط تباعاً حولي، مبيضة وعطرة، فتراودني أحلام

(1) Robin Ader: أغنية شعبية تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر، ويمكن أن نجد صلتها بالرواية عبر المقطع التالي منها: «أين كل البهجة والفرح/ اللذين جعلا هذه البلدة جنة على الأرض/ آه لقد رحلا معك يا رون أداير».

يقظة غامضة بأنني مختبئة أو معزولة، بينما أشاهد السلك الكهربائي يهتز، وأتأمل زوج حذائها الضخم، وساقيها بالجوربين البنيين المائلين إلى البرتقالي، بلا حواف تشكّلها العضلات، بل عظمتين غليظتين فحسب. حتى في ذلك الحين كانت مسنة.

بما أنه كان لدى جدتي بعض المدخول، وكانت تمتلك بيتها بالكامل، فلطالما شعرت بشيء من الرضا حين تفكر بالمستقبل، الذي سيتقاطع فيه مصيرها البسيط الخاص مع السياقات الكبرى الخاصة بالقانون والمال - أي بعد موتها. فجميع العادات والأنماط والممتلكات التي استقرت حولها، الحوالات الشهرية من المصرف، والبيت الذي عاشت فيه منذ كانت عروساً، والأيكة المليئة بالأعشاب البرية التي تسوّر الباحة الخارجية من ثلاثة جوانب حيث تسقط كل عام ثمار التفاح والخوخ والمشمش أصغر حجماً وأكثر عفونةً من العام السابق، كل هذه الأشياء كانت فجأة تصير سائلة، قادرة على اتخاذ أشكال جديدة. وكلها ستنتقل ملكيتها لي وللوسيل.

كانت تقول لنا وقد لاحت عليها الجدية والحكمة: «فلتبيعا الأيكة، لكن احتفظا بالبيت. ما دمتما تعتنيان بصحتيكما، وتمتلكان السقف الذي يظللكما، فأنتما آمنتان بقدرِ أي إنسان آخر..»، خاتمة كلامها «بإذن الله». كانت جدتي تحب الكلام على هذه الأشياء. وحين تفعل ذلك تجول عيناها على الأشياء التي راكمتها دون تفكير واحتفظت بها بحكم العادة، وتتكلم عليها بتوق وكأنها توصلت إلى استعادتها.

كانت خطتها تقضي بأن تأتي أختا زوجها نونا وليلي للاعتناء بنا

حين تأتي الساعة. كانت إحداهما تصغر جدتي بعشر سنوات والثانية باثنتي عشرة سنة، لكنها في سنها ذاك ظلت جدتي تعتبرهما شابتين. كانتا معوزتين تقريباً، فكان توفير الإيجار، دون ذكر فوائد استبدال غرفة فندقية صغيرة تحت الأرض ببيت محاط بنبات عود الصليب (وشجيرات الورد)، أسباباً كافية بحسبها لبقائهما معنا ورعايتنا حتى نكبر.

2

حين توفيت جدتي في صبيحة يوم شتويّ، بعد نحو خمس سنوات، استُدعيت ليلي ونونا من «سبوكاين» وتوليتا رعاية المنزل في «فينغربون»، تماماً كما رغبت جدتي. وكان هلعهما جلياً منذ البداية، في الحركة المتوترة التي بحثتا فيها في حقائبهما وجيوبهما عن الهدية الصغيرة التي جلباها (كانت علبة كبيرة من حبوب تخفيف السعال التي كانتا تعتبرانها مفيدة للصحة ولذيذة المذاق في آن معاً). كان شعر كلاهما أزرق فاتحاً وكانت كل منهما ترتدي معطفاً أسود مع خرزات سوداء لماعة على طية الصدر. وقد مال جسداهما الضخمان إلى الأمام عند الوركين، وانتفخت أذرعهما وسيقانهما. وعلى الرغم من أنهما سيدتان عذاراوان، فقد أسبغ عليهما جسداهما الممتلئان مظهراً أمومياً يتباين بصورة غريبة مع طريقتهما الفظة في التربيت علينا وطبع قبلاتهما الخشنة على وجنتينا.

بعد أن أدخلتا الحقائب، وقبلتانا وربتتانا، أشعلت ليلي النار وأخفضت نونا الستائر. حملت الأولى بعض الشتلات الكبيرة إلى الشرفة وسكبت نونا المزيد من الماء في الأصص. ثم بدتا ضائعتين. سمعت ليلي تذكّر نونا بأنه بقي ثلاث ساعات قبل العشاء، وخمس ساعات قبل موعد النوم. نظرتا إلينا بأسف مشوب بالتوتر. وجدتا بعض الأعداد من مجلة Reader's Digest وراحتا تتصفحانها وهما تلعبان الورق على الحصيرة قرب الموقد. مضت ساعة طويلة قبل أن تقدّما لنا العشاء. ثم ساعة أخرى قبل أن تضعانا في السرير. اضطجعنا في السرير نصغي إلى حديثهما، الذي كان دائماً مسموعاً بوضوح، لأن سمعهما كان ثقيلاً. وقد بدت طريقة تحادثهما في ذلك الحين كما في كل حين من الاستفاضة والتزويق اللذين يؤكدان على اتفاقهما في الرأي في كل شيء، وهو اتفاق دقيق متين مثل جحر نمل أبيض.

«يا حرام!».

«يا حرام حقاً!».

«لم تكن سيلفيا مسنّة».

«ولا صغيرة».

«كانت أكبر سناً من أن تعتني بالطفلتين».

«وأصغر من أن تموت».

«في السابعة والستين؟».

«أكانت في السابعة والستين؟».

«هذا ليس كثيراً».

«لا».

«ليس قياساً بعائلتها».

«أتذكر أمها».

«كانت فتاة في الثامنة والثمانين».

«لكن حياة سيلفيا كانت أصعب بكثير».

«بكثير».

«بكثير».

«أولئك البنات».

«كيف ساءت الأمور إلى هذا الحدّ؟».

«هي نفسها كانت تتساءل».

«أي شخص كان ليتساءل».

«أعرف أنني كنت لأتساءل».

«وهلين تلك».

«حسناً، ماذا بشأن الصغيرة، سيلفي؟».

أصدرتا أصواتاً فموية أشبه بقوقأة الدجاج.

«على الأقل ليس لديها أطفال».

«على حدّ علمنا على الأقل».

«امرأة مرتحلة».

«عاملة مهاجرة».

«جوّالة».

ساد صمت.

«يجب إعلامها بوفاة أمها».

«يجب ذلك».

«فقط لو نعرف بمكانها».

«قد يساعد وضع إعلان في الصحيفة».

«لكنني أشكّ في ذلك».

«وأنا أيضاً».

ساد صمت آخر.

«تلك الفتاتان الصغيرتان».

«كيف أمكن لأمهما أن تتركهما هكذا؟».

«دون رسالة حتى».

«لم يُعثر على أيّ رسالة».

«لا يعقل أن يكون ما جرى لها حادثاً».

«لم يكن حادثاً».

«وتلك السيدة المسكينة التي أعارتها السيارة».

«شعرت بالأسف من أجلها».

«لقد لامت نفسها».

نهضت إحداهما عن الطاولة ووضعت حطباً في النار.

«تبدوان فتاتين لطيفتين».

«شديدتا الهدوء».

«لكنهما ليستا جميلتين بقدر هلين».

«كان شعرها جميلاً».

«لكنهما لا تفتقران إلى الجاذبية».

«المظهر ليس بمهم جداً».

«أكثر أهمية للفتيات طبعاً».

«وسيكون عليهما تدبير أمرهما في الحياة».

«يا للمسكينتين».

«مسكينتان حقاً».

«أنا مسرورة كونهما هادئتين».

«الهارتويك لطالما كان هادئاً»[1].

«هذا صحيح».

«هذا صحيح حتماً».

حين أوتا إلى النوم نهضتُ ولوسيل من السرير وذهبنا إلى النافذة وجلسنا متدثرتين بلحاف متأملتين الغيوم القليلة في السماء. كان القمر منيراً محاطاً بهالة، ووضعت لوسيل الخطط لتصميم ساعة قمرية[2] من الثلج تحت نافذتنا. كان الضوء على النافذة ساطعاً بما فيه الكفاية للعب الورق، لكن ليس للقراءة. فبقينا مستيقظتين طوال الليل لأن لوسيل كانت خائفة من أحلامها.

بقيت معنا ليلي ونونا طوال أبرد فترة من فصل الشتاء. لم تكونا معتادتين على الطبخ، وكانتا تعانينان من داء المفاصل. وقد دعتهما

(1) اسم الفندق حيث كانتا تقيمان في «سبوكاين».

(2) Moon Dial: قرص لحساب الوقت ليلاً بحسب القمر.

صديقات جدتي للعب «البيناكل» لكنهما لم تتقنا قواعد اللعبة قطّ. وما كانتا تشاركان في التراتيل الكنسية بسبب خشونة صوتيهما. وأظن أنه لم يكن من شيء تستمتعان به بقدر الرتابة والعادة، التكرار الدقيق لليوم نفسه كل يوم. ولم يكن هذا سهلاً في «فينغربون» حيث كل شخص من المعارف هو جديد بحكم الضرورة وبالتالي مذموماً أكثر من حال العزلة، وحيث أنا ولوسيل نشكل تهديدا دائماً لأننا معرضتان للمرض كالإصابة بالسعال أو أن ننمو ونغدو بحاجة إلى أحذية جديدة.

كان شتاء صعباً. تراكم الثلج أخيراً أعلى من رأسينا بكثير. وقد ارتفع فوق أطناف أحد جوانب المنزل. وكان بعض البيوت في «فينغربون» ينهار ببساطة من ثقل الثلج على سقوفه، وكان هذا مصدر قلق دائم لعمتيّ أمي، اللتين اعتادتا طويلاً على البيوت الحجرية، وعلى العيش تحت الأرض. أحياناً تكون الشمس دافئة بما فيه الكفاية إلى درجة تتسبّب بسقوط قطع كبيرة من الثلج عن السطح، وأحياناً تهتزّ أشجار التنوب فيسقط عنها الثلج فجأة مصدراً صوتاً صاخباً، الأمر الذي كان يرعب عمتيّ أمي. ولكن بفضل هذا المناخ القاتم والمدمّر تمكنا من الذهاب كثيراً للتزلج في البحيرة، بسبب إدراك ليلي ونونا أنَّ بيتنا عرضة للانهيار، وأننا على الأقل قد ننجو من الموت جراء ذلك، لنموت من الالتهاب الرئوي فحسب.

لسبب من الأسباب كانت البحيرة مصدر بهجة خاصة لسكان «فينغربون» في ذلك العام. فقد تجلدت مياهها باكراً وظلت طويلاً كذلك. وجرى جرف أكرات كثيرة منها حتى امتدت مستوية على

مساحات شاسعة. وقد كوم المتزلجون الثلج على شاطئ البحيرة مشكلين منحدراً صاروا يندفعون عليه باتجاه الجليد. وانتشرت البراميل لإنشاء النيران، وجاء الناس بالصناديق للجلوس عليها وبألواح خشبية وأكياس من الخيش لتسوير البراميل بها، وجلبوا النقانق للشواء، وملاقط الغسيل لتعليق القفازات على حواف البراميل. وبدأ عدد من الكلاب يمضي معظم وقته على الجليد. كانت جراء أليفة طويلة القوائم أخذت تعبّر عن ابتهاجها بالطقس، لاهية في استعادة قطع الجليد الصغيرة التي انتشرت بسرعة هائلة بعيداً على سطح البحيرة. أخذت الكلاب تؤدي بقوتها وسرعتها فكاهتها الفتية الشجاعة، معبّرة عن لا مبالاة مطلقة تجاه سلامة قوائمها. واعتدت أنا ولوسيل على أن نأخذ مزالجنا معنا إلى المدرسة، لكي نتمكن من الذهاب مباشرة إلى البحيرة ونبقى هناك إلى ما بعد الغروب. وكنا نتزلج عادة على طول حافة الجليد المجروف، متبعتين تعرجات البحيرة، حتى نصل إلى نهايتها، حيث نقعي على الثلج ونشاهد «فينغربون» وراءنا.

هناك كنا نشعر أننا بعيدتان إلى حدّ التهوّر عن الشاطئ، على الرغم من أن البحيرة كانت صلبة جداً في ذلك الشتاء بحيث أنها يمكن أن تحمل جميع سكان فينغربون على سطحها، سواء الذين عاشوا فيها في الماضي أو الموجودين الآن أو أولئك الذين سيولدون. ومع ذلك فقط نحن وجارفو الجليد كنا نبتعد حتى هذه المسافة، ووحدنا كنا نمكث هناك.

بدت البلدة نفسها شديدة الضآلة من هناك. ولولا الثلج المتراكم

على الشاطئ، والنيران وأعمدة الدخان المرتعشة بصورة ثابتة فوق البراميل، وبالطبع لولا صخب المتزلجين وصيحاتهم العالية، لأمكن ألا يلاحظ المرء وجود البلدة على الإطلاق. فقد تكلّلت الجبال خلفها بالثلوج واتحدت ببياض السماء، وكذلك بدت البحيرة مقفلة متوارية، بيد أن انخساف الجبل والبحيرة لم يجعل البلدة أشدّ بروزاً. بالطبع، كان في وسعنا من مكاننا ذاك أن نشعر بامتداد البحيرة بعيداً خلفنا وأمامنا من الجانبين، في صمت فسيح بدا أنه يرنّ كالزجاج. أنا ولوسيل تمرنا في تلك الشتوية على التزلّج إلى الخلف، وعلى الدوران على محور رجل واحدة. كنا غالباً آخر من يغادر البحيرة لشدّة استغراقنا في التزلج وفي الصمت المهيمن وفي العذوبة الناعسة التي تملأ الأجواء. وأخذت الكلاب تهرع نحونا، ضاجّة مشاكسة، طافحة بالفرح لأنه ثمة من لم يغادر بعد، محاولة نهش قفازاتنا، جارية في دوائر حولنا بحيث لا يبقى أمامنا في النهاية سوى المغادرة. وبينما نمضي متزلجتين على الجليد نحو «فينغربون»، نصير أكثر وعياً بالظلمة المحيطة، والقريبة جداً منا، مثل حضور ملموس لشيء ما في منام. كانت الأنوار الصفراء الخفيضة المنبعثة من البلدة تشكّل عزاء وحيداً لنا، وهي لم تكن بالأنوار الكثيرة. لو أن كلّ بيت في «فينغربون» تهاوى أمام أنظارنا، وانطفأ كلّ ضوء، فمن شأن ذلك أن يلامس حواسنا بنعومة شديدة كتقليب الجمر، ثم تدنو الظلمة الدامسة أكثر.

عثرنا على جزمنا وخلعنا مزاليجنا بينما الكلاب التي أثارتها حركتنا المستعجلة تضع خطومها في وجوهنا وتلحس ثغرينا وتجري مع لفاعينا.

فقالت لوسيل متذمّرة: «آه، كم أكره هذه الكلاب»، وأخذت ترشقها بكريات الثلج، التي سعت الكلاب وراءها بمسرة أكبر وأخذت تطحنها بأسنانها. ثم تبعتنا وصولاً إلى البيت. وفي الطريق قد استبدّت بنا الغيرة حتى الغضب من ساكني البيوت التي نمرّ بها، لأنهم اعتادوا على الضوء وعلى دفء بيوتهم. وكانت الكلاب تقحم خطومها في راحات أيدينا وتجري حولنا، محاولة نهش أطراف معطفينا. حين وصلنا أخيراً إلى البيت، الذي كان منخفضاً ومنعزلاً بسبب الأيكة المحيطة به، لم نفاجأ من رؤية أن البيت ما زال واقفاً في مكانه، وأن أنوار الشرفة والمطبخ مشتعلة بدفء كأنوار أي بيت مررنا به. خلعنا جزمنا على الشرفة، متشمّمتين دفء المطبخ، وانسللنا إلى المطبخ بجواربنا، شاعرتين بالبرد يقرص أيدينا وأرجلنا ووجوهنا، لنجد عمتينا جالستين وقد تورّدت خدودهما من البخار المتصاعد من حساء الدجاج وفطيرة التفاح المخبوزة.

ابتسمتا لنا بتوتر ونظرتا إلى بعضهما. «هذا وقت متأخر كثيراً على فتاتين صغيرتين للعودة إلى البيت». قالت ليلي وهي تبتسم لنونا. أخذتا تنظران إلينا بتوتر وجدية لكي تريا نتيجة لومهما على وجهينا.

قالت لوسيل: «مرّ الوقت بسرعة. إننا آسفتان جداً».

«كما تريان نحن لا يمكننا الخروج بحثاً عنكما».

«كيف لنا أن نجدكما؟».

«قد نتوه أو نقع على الطريق».

«الريح هنا رهيبة، والشوارع غير منارة. والطرقات غير معبّدة».

«والكلاب طليقة».

«والبرد لاذع».

«يمكن أن نموت برداً. إننا نشعر بالبرد حتى في داخل البيت».

قلت: «لن نعود ثانية بعد حلول الظلام».

لكن بما أن ليلي ونونا لم تكونا حانقتين حقاً، فلم يكن من حاجة إلى مسايرتهما. لقد شعرتا بالقلق فحسب. وها نحن ذا، خدودنا متوردة وعيوننا لماعة، وربما كنا محمومتين، أو نموت من الصقيع، لكن ربما كان مقدراً في تلك الليلة أن نرتمي حالمتين على أرضية القبو، تحت أطنان من الثلج والألواح الخشبية بينما يبحث الجيران فوقنا عن أثر حطب مشتعل. وحتى لو كان مضموناً أن يوفّر هذا الشتاء وحتى الشتاء الذي يليه حياتينا، فما زالت أمامنا محن البلوغ والزواج والولادة، وكلها أمور عظيمة الشأن في حدّ ذاتها، لكن كم مرة تشابكت مع تاريخنا الغريب؟

فكّرت ليلي ونونا بمستقبلنا واستبدّت بهما الحيرة، حتى بدأتا تعانيان من اضطرابات في الأكل والنوم. وفي تلك الليلة بالذات هبت عاصفة ثلجية قوية عندما كنا نتناول العشاء، واستمرت أربعة أيام. كانت ليلي تسكب لنا مرق الدجاج عندما طار غصن من شجرة التفاح وارتطم بجدار البيت، وبعد أقل من عشر دقائق انقطع سلك كهربائي في مكان ما، أو وقع عامود إنارة، فغرقت «فينغربون» في ظلمة دامسة. ولم يكن هذا بالأمر غير الاعتيادي. فكل حجرة مؤنة في «فينغربون» مزوّدة برزمة من الشموع الغليظة، التي لها لون الصابون

منزلي الصنع، بغرض استعمالها في مثل هذه الأوقات. لكن عمتاي التزمتا الصمت وجعلتا تحملقان في بعضهما. تلك الليلة حين أوينا إلى الفراش (مع مناديل منقوعة بالفيكس على مناديل حول أعناقنا) جلستا أماما الموقد، مقلبتين فكرهما حول حقيقة أن فندق «هارتويك» الذي كانتا نزيلتيه منذ زمن طويل، لم يعرف عنه استضافته الأطفال، ولو لليلة واحدة.

«قد يكون جميلاً أن نصحبهما معنا».

«ستكونان آمنتين أكثر».

«وأكثر دفئاً».

قرقرتا كالدجاج.

«سنكون جميعاً أكثر راحة هناك».

«وقريبات من المستشفى».

«هذه ميزة، بوجود الأطفال».

«أنا متأكدة من أنهما ستحسنا السلوك».

«إنهما عاقلتان جداً».

«الفتيات دوماً كذلك».

«بنات سيلفيا كن كذلك».

«أجل كنّ كذلك».

بعد برهة قلّبت إحداهما النار.

«سنحصل على مساعدة»

«على مشورة ما».

«لوتي دونهيو تلك يمكنها المساعدة. فقد ربّت أولادها تربية حسنة».

«التقيت ابنها مرة».

«أجل أخبرتني بذلك».

«كان منظره غريباً. يرمش دائماً. وأظافره مقضومة».

«أجل أذكر ذلك، كان ينتظر المحاكمة على جنحة ما».

«لا أذكر ماذا فعل».

«لم تقل أمه شيئاً».

ملأت إحداهما إبريق الشاي.

«الأطفال متعبون».

«على أيّ كان».

«ولطالما استبعدهم فندق هارتويك».

«وأفهم هذا».

«لا ألومهم».

«لا».

«لا».

صمتتا وجعلتا تحركان الشاي.

«لو كنا في مثل سن هلين...».

«... أو سيلفي».

صمتتا ثانية.

«الشباب يفهمون الأطفال أكثر».

«لا يقلقون كثيراً عليهم».

«هما ذاتهما ما زالتا طفلتين».

«هذا صحيح. لم تريا كفاية من الحياة لتقلقا شأننا نحن».

«هذا صحيح».

«هذا أفضل».

«أظن أنه أفضل».

«إنهما تحبان صحبة الأطفال على ما أظن».

«هذا أفضل للطفلتين».

«على المدى القصير».

«نحن نشغل بالنا أكثر من اللزوم بالمستقبل البعيد».

«وبقدر ما نعرف فالبيت قد يقع الليلة على رؤوسنا».

صمتتا.

«أتمنى لو نسمع خبراً من سيلفي».

«أو على الأقل عنها».

«لم يرها أحد منذ سنوات».

«ليس في فينغربون».

«ربما تكون قد تغيرت».

«لا شك في ذلك».

«تحسّنت».

«هذا محتمل. فالناس يتحسّنون».

«هذا وارد».

«أجل».

«ربما مع بعض الاهتمام من عائلتها...».

«المسؤولية تفيد».

ظلت الملعقتان تدوران وتدوران في الكوبين حتى قالت إحداهما أخيراً «... الإحساس بالبيت».

«سيكون منزلاً لها».

«أجل سيكون كذلك».

«هذا صحيح».

لذا لابدّ من أنه بدا تدبيراً إلهياً حين استلمتا رسالة من سيلفي نفسها. كانت مكتوبة بخط كبير وأنيق على على ورقة دفتر رقيقة رديئة الصنع وقد قصّت بعناية من أحد جوانبها، ربما لجعلها متناسبة مع مضمون الرسالة، إذ قالت فيها فحسب:

أماه العزيزة، ما زال يمكنك الاتصال بي على العنواني التالي: لوست هيلز هوتيل، بيلينغز، مونتانا. راسليني قريباً. ارجو ان تكوني بخير.

س.

كانت ليلي ونونا قد كتبتا رسالة تطلبان فيها من أي شخص يعرف بكيفية الوصول إلى سيلفي فيشر لكي يرسل المعلومات إلى... متبوعاً بعنوان جدتي. أي صيغة أخرى كانت ستفيد بموت جدتي، وما كانت عمتاي لتسمحا بأن تعلم سيلفي بأمر كهذا من قسم الإعلانات الشخصية في الصحيفة. كانتا تكرهان الصحف، وتكدّرهما فكرة

أن يظهر أي شيء يخصهما أو يخص عائلتيهما في الصحف. ولابدّ من أنه ساءهما أن ورقة النعي الأصلية قد جعّدت بلا ريب لكي تلف بها حلى الميلاد بغرض تخزينها، أو لإشعال نار بها، مع أنها كانت ورقة نعي جميلة وحظيت بالكثير من الإطراء. ذلك أن موت جدتي أعاد ذكرى الكارثة التي جعلت منها أرملة. حادثة خروج القطار عن الخط، التي وإن كانت في حدّ ذاتها أكثر غرابة من أن تكون لها أي دلالة أو عاقبة، فقد كانت الأمر الأكثر إثارة للصدمة في تاريخ البلدة، وكان ينظر إليها على هذا النحو. فأحيط جميع الذين ارتبطوا على هذا النحو أو ذاك بتلك الحادثة بهالة من التبجيل، مما جعل خبر موت جدتي يستحق صفحة ذات إطار أسود في صحيفة «ديسباتش»[1]، مع صور للقطار التقطت يوم أضيفت للخبر، ولعمال يعلّقون على الجسر شارات الحداد وأكاليل الزهر، إضافة إلى صورة يظهر فيها صف من الرجال المحترمين، من بينهم جدّي. كانوا جميعاً يضعون الياقات العالية وقد صففت شعورهم حتى غدت مسطّحة على جباههم. وقد انفرجت شفتا جدي قليلاً وهو ينظر باتجاه الكاميرا نظرة جانبية بعض الشيء، وبدا على وجهه الذهول. لم يكن هنالك صورة لجدتي. كما لم يكن من ذكر لموعد الدفن. وقد خمّنت نونا وليلي أنه إذا ما حملت الرياح بطريقة ما هذه الصفحة ذات الإطار الأسود إلى نظر سيلفي، فلن تعرف أن موت أمها تزامن مع فتح أرشيف البلدة الهزيل هذا، وإن بدت الصفحة نفسها مهيبة مثل فتح القبور.

(1) صحف عدة في عدد من الولايات الأمريكية يحمل هذا الاسم.

على الرغم من حذف حتى المعلومات المهمة عن جدتي («لم يرغبوا في ذكر هلين»، قالت ليلي بصوت موسيقي مبحوح ، على نحو ما تفعل حين تحكم على مسائل كهذه)، فقد اعتبرت تلك الصفحة تحية مؤثرة لها ويجدر بها بالتالي أن تكون مصدر فخر لنا. لكنني ببساطة شعرت بالهلع. إذ أوحى لي ذلك ذلك بأن التربة قد فتحت. وقد حلمت أنني أمشي على جليد البحيرة، وكان يتكسّر متزعزعاً تحت قدمي مثلما يفعل في الربيع. لكن سرعان ما اتضح لي أن سطح البحيرة كان مكوناً من الأيدي والأذرع والوجوه المقلوبة إلى الأعلى والتي كانت تتقلب سريعاً عندما أخطو، وتغوص لثانية فحسب تحت ثقلي. وقد خلق الحلم وصفحة النعي في ذهني القناعة بأن جدتي قد دخلت إلى فضاء آخر تطفو فيه حيواتنا منعدمة الوزن، غير محسوسة، متعذرة المزج والفصل، مثل الانعكاسات على سطح الماء. إذن، فقد حملت جدتي إلى الأعماق، إلى الماضي غير المتمايز، ولم يكن ثمة في مشطها دفء اليد، أكثر مما كان من دفء في يد هلين طروادة.

حتى قبل وصول رسالة سيلفي القصيرة، بدأت ليلي ونونا بخط رسالة لكي تعلمانها بخسارتها، ولكي تدعوانها إلى البيت لمناقشة مسألة منزل أمها. ذلك أن وصية جدتي لم تأت على ذكر سيلفي، ولم تتضمن البنود الخاصة بنا فيها أيّ ذكر لها. وقد بدا هذا غريباً لليلي ونونا – إن لم تعتبراه غير منطقي، وبالتأكيد غير لطيف. كانتا تؤمنان أن مغفرة الوالدين يجب أن تطاول دوماً الابن الضال، ولو بعد الموت. فبدأت أنا ولوسيل نترقب ظهور خالتنا بكل الأمل المذنب الذي في

قلب راعيتينا الأبيضين. ستكون بعمر أمنا، وقد تذهلنا شدة شبهها بأمي، وقد نشأت مع أمنا في هذا البيت، وفي كنف جدتنا. لا ريب في أننا أكلنا من الكسرولات نفسها، وسمعنا الأغنيات نفسها، وتعرضنا للتوبيخ بالعبارات نفسها. بدأنا نأمل، وإن في لا وعينا، بأن سنشهد تعويضاً مهماً. وقد سمعنا عفو الخاطر ليلي ونونا تتحادثان في المطبخ ليلاً، وهما تطرزان آمالهما. ستشعر سيلفي بالسعادة هنا. فهي تعرف البلدة، وأمكنتها الخطرة، وأناسها البغيضين، ويمكنها أن تحيطنا برعايتها، كما ليس في وسعهما فعل ذلك. بدأتا تعتبران أن تفضيل جدتي لهما على سيلفي لرعايتنا هو سوء حكم من قبلها، وبدتا مترددتين في إرجاع ذلك إلى سنّ جدتي. وشعرنا أنهما محقتان في ذلك. فكلّ ما يمكن سوقه ضدّ سيلفي هو أن أمها حذفت اسمها من كافة أحاديثها، ومن وصيتها. ورغم الإساءة في هذا الأمر، فإنه يعطينا نحن أو أو عمتيّ أمّنا سبباً للخشية. قد يكون ترحّلها[1] مجرد نبذ بسيط. وقد لا يكون تجوالها، إذا ما أنعمنا النظر فيه، أكثر من تفضيل للحياة المستقلة، وإن بدا غريباً في حالتها بسبب افتقارها للمال. بقيت نونا وليل مع أمهما حتى ماتت، ثم انتقلتا غرباً لكي تكونا على مقربة من شقيقهما، وعاشتا لسنوات مستقلتين ووحيدتين على المال الذي حصلتا عليه من بيع مزرعة أمهما.

(1) هناك أوصاف عدة تستعمل في سياق الرواية في وصف حال سيلفي، فهي جوّالة، ومترحّلة، وفارة، وجميعها تشير إلى التشرد، لكنني آثرت غالباً صفة المترحّلة، لا المتشردة، لأن الأولى توحي أكثر من الثانية بالخيار الفردي، المهم في سياق السرد وفهم شخصية سيلفي، أما التشرّد فقد يكون حالة اجتماعية دفعت إليها الظروف وانعدام البدائل، لا خياراً فردياً.

ولو أنهما نبذتا وحرمتا من الميراث - كانتا تقولان بصوتهما المقوقئ ذاك «لكنا نتنقل بعربات الشحن أيضاً». استغرقتا في الضحك حتى تزحزح كرسياهما. ثم قالت إحداهما: «هذه هي الحقيقة، فقد كانت أمها لا تطيق كثيراً أولئك الذين اختاروا عدم الزواج».

«كانت تقول هذا».

«في وجهينا».

«مرات عدة»

«رحم الله روحها».

سمعنا ما يكفي عن سيلفي لنعرف أنها اختارت ببساطة ألا تتصرف كامرأة متزوجة، وإن كانت قد تزوجت زواجاً يسمح لها قانوناً بتغيير اسمها. لكننا لم نسمع شيئاً عمن يكون فيشر هذا. وقد اختارت ليلي ونونا ألا تكترثا بأمره. وأكثر فأكثر باتتا تريان في سيلفي امرأة عذراء، لا تختلف عنهما إلا في كونها قد نبذت دون ما يعيلها. لو تعرفان بمكانها لدعتاها إلى المجيء. «وعندئذ نحكم بأنفسنا». بعد وصول رسالة سيلفي القصيرة، شرعتا بوضع اللمسات الأخيرة على رسالتهما لها، حريصتين على أن تقترحا عليها، وإن دون وعد بذلك، بأنها قد تأخذ مكان أمها في تدبير البيت إذا شاءت. ما أن أرسلت الرسالة حتى بدأنا نعيش جميعاً في حال من الترقّب. وقد تجادلت ولوسيل ما إذا كان شعرها سيكون بنياً أو أحمر. فقالت لوسيل: «أعرف أنه بني مثل شعر أمنا»، ورددت عليها: «شعر أمنا لم يكن بنياً، بل أحمر».

تشاورت ليلي ونونا معاً وقررتا أنهما يجب أن ترحلا (إذ عليهما

أخذ صحتيهما في الاعتبار، وقد تاقت نفسيهما للعودة إلى تلك الحجرة تحت الأرض في فندق هارتويك القرميدي، مع ملاءاته النظيفة وأدوات مائدته اللماعة، حيث خادم الفندق المصاب بالتهاب المفاصل، وخادمتي الغرف، يلائمون جميعاً يحترمون سنهما وعزلتهما وفقرهما)، وأن سيلفي يجب أن تعود.

3

كنا ما زلنا في آخر الشتاء حين أرسلتا تدعوانها للعودة، ولم يكن قد حلّ الربيع بعد حين جاءت. وقد حثتاها في ذلك الخطاب، الذي تطلبت كتابتها أياماً عدة، على التفكير جيداً قبل اتخاذ قرارها، وأكدتا لها كثيراً وبألطف الكلام أنهما لا تلحّان في ما تدعوانه إليه، وأنها يجب أن تتأنى في تسوية أمورها قبل أن تأتي، إذا كان يمكنها ذلك. ثم ذات يوم بينما نتناول العشاء في المطبخ، والعمتان تفصحان عن قلقهما لأنه لم يصلهما منها رداً بعد، وتتذكرانها بوصفها حالمة جداً وغارقة في ذاتها إلى درجة لا يكون لديها أي اعتبار لهما، وتعبران عن قلقهما من أن تكون مريضة، قرعت سيلفي الباب.

ذهبت نونا لتفتح الباب محفحفة بثيابها (كان الرواق الممتدّ من المطبخ إلى الباب الرئيسي شديد الانحدار، وإن خفّفت زاوية الانعطاف بدرجة وضعت في وسط الطريق). وسمعناها تدمدم:

«يا عزيزتي! كم أنت باردة! أجئت مشياً؟ ادخلي إلى المطبخ!». ثم سمعنا مجدداً حفيف ثوبها وطرق حذائها الثقيل على الرواق ولم نسمع صوتاً آخر.

دلفت سيلفي خلفها إلى المطبخ بهدوء هو مزيج من الرقة والسرّية وطمس الذات. كانت طويلة نحيلة في نحو الخامسة والثلاثين. وكان شعرها بنياً متموجاً وقد عقدته بالدبابيس وراء أذنيها، وبينما وقفت هناك، عاودت تمسيد الشعرات الشاردة لكي تظهر بمظهر لائق أمامنا. كان شعرها مبللاً، ويداها حمراوين متقشرتين من الصقيع، ورجلاها حافيتين إلا من الخفين[1]. وكان معطفها المطري دميماً فضفاضاً يوحي بأنها وجدته ملقى على مقعد ما. حملقت ليلي ونونا ببعضهما، رافعتين حواجبهما. وساد بعض الصمت، ثم وضعت سيلفي بتردد يدها الباردة على رأسي وقالت «أنت روثي. وأنت لوسيل. لوسيل هي صاحبة الشعر الأحمر الجميل».

عندئذ وقفت ليلي وأمسكت كلتا يدي سيلفي، وانحنت سيلفي نحوها لكي تسهّل عليها تقبيلها. «هنا اجلسي قرب المدفأة». قالت العمة وهي تجذب لها كرسياً. فجلست.

قالت نونا: «الجو أدفأ أمام الموقد، اخلعي معطفك، وسرعان ما ستشعرين بالدفء يا عزيزتي. سأقلي لك بيضة»[2].

(1) Loafers: الحذاء خفيف بلا كعب، شاع استعماله بين المتشردين والمتسكعين لسهولة السير فيه، ولهذا السبب فإن الكلمة نفسها تعني المتشرد أو المتبطّل أو المتسكّع.

(2) هي في حقيقة الأمر طريقة في إعداد البيض تتوسط بين القلي والسلق، تقوم على طهي البيض بالماء، بحيث يكون رخواً وناضجاً في آن معاً.

وسألتها ليلي: «أتفضّلين البيض المسلوق؟ يمكنني أن أسلق لك واحدة».

قالت سيلفي «لا بأس بالحالين، بيضة مقلية ستكون رائعة»، ثم فكّت أزرار معطفها وسحبت ذراعيها من الكمين، فهتفت ليلي: «يا له من ثوب رائع!». مسدت سيلفي تنورتها بيديها الطويلتين. كان الثوب أخضر غامقاً، له لمعة تشبه لمعة الساتان. وكان كماه قصيران وله قبة كبيرة دائرية عليها دبّوس، وحفنة من الزنابق.

نظرت إلينا جميعاً ثم عاودت النظر إلى ثوبها، وبدا عليها السرور كونه أثار الإعجاب. «أجل، تبدين رائعة يا عزيزتي. رائعة جداً». قالت لونا بصوت مرتفع إلى حدّ ما. وكان إطراؤها هذا في الحقيقة إشارة موجهة لأختها، مثلما إطراء الأخيرة إشارة لها. كانت كلّ منهما تصرخ، لكي تفهم الأخرى ما تقوله، ولأنها لم تكن قادرة على قياس صوتها جيداً، وتعتبر سمع الأخرى أسوأ من سمعها، فتتكلم بنبرة أعلى قليلاً مما هي مضطرة إلى ذلك. وقد عاشتا طوال حياتهما معاً، فباتتا تشعران أن هنالك لغة مشتركة بينهما. لذا حين قالت ليلي، وهي تحدّق بنونا: «يا له من ثوب رائع!»، فكأنها تقول لشقيقتها: «تبدو عاقلة نوعاً ما! تبدو طبيعية إلى حدّ ما». وحين ردّت نونا مخاطبة سيلفي فكأنها تقول لليلي: «ربما ستنفع للمهمة! ربما تستطيع البقاء ونستطيع الرحيل!». جلست سيلفي في ضوء المطبخ الخافت مطرقة باتجاه يديها الملقتين في حجرها، بينما تنقلت ليلي ونونا بأرجلهما العجوز المتصلبية محضّرتين البيض وساكبتين الخوخ المطهي، متوردتين ومبتهجتين بالتفاهم السري بينهما.

سألت ليلي: «أعرفت أن السيد سيمونز مات؟».

قالت سيلفي: «لابدّ من أنه كان طاعناً في السن».

«وهل تذكرين داني رابابورت؟».

هزّت سيلفي رأسها نفياً.

«كان يصغرك بصف واحد في المدرسة».

«أظن أنني ينبغي أن أتذكره».

«حسناً، لقد مات، لا أعرف كيف».

قالت نونا: «لقد أعلن عن المأتم في الصحيفة، لكن لم يكن من مقالة عنه. ظننا أن هذا كان غريباً. لا أكثر من صورة».

قالت ليلي: «وليست حديثة أيضاً، بدا فيها في التاسعة عشرة. ليس من تجعيدة واحدة في وجهه».

«أجرت مراسم دفن أمي بصورة حسنة؟».

«رائعة».

«آه أجل كانت بغاية الروعة».

نظرت العجوزان إلى بعضهما.

قالت نونا: «لكنه كان محدود الحضور».

«أجل، لقد أرداته كذلك. لكن ليتك رأيت الأزهار! لقد امتلأ البيت بها. وقد تبرعنا بنصفها للكنيسة».

قالت نونا: «لم ترد الزهور، كانت تعتبرها هدراً».

«ولا أرادت المراسم».

«فهمت».

ساد صمت. مسحت نونا قطعة من خبز التوست بالزبدة ووضعت فيها البيضة الرخوة وكسرتها بشوكة وكأنها تعدّها لطفل. اتخذت سيلفي مكاناً إلى المائدة وتناولت الطعام مسندة رأسها بيدها. صعدت نونا إلى الطابق الأعلى وعادت بعد بضع دقائق، حاملة قنينة من المياه الحارة. «وضعتك في غرفة النوم في الرواق. إنها حبيسة الهواء بعض الشيء، لكنها أفضل من التيار الهوائي. هناك ملاءتان سميكتان على السرير وثالثة أخف، كما وضعت لحافاً على الكرسي». ملأت القنينة الحارة بالمياه من الإبريق ولفتها بمناديل الشاي. حملت حقيبة وحملت لوسيل الثانية وتبعنا سيلفي إلى الطابق الأعلى.

كان الدرج عريضاً صقيلاً، مع درابزين ثقيل دائري القضبان، وقد بناه جدي في مرحلة كان واثقاً فيها بما فيه الكفاية بمهاراته في أعمال النجارة بحيث استعمل مواد جيدة وبنى أشياء يمكن اعتبارها دائمة. لكن السلم ينتهي بطريقة غريبة إلى بويب أو باب مسحور، لأنه عند أعلى السلم يجد المرء نفسه وجهاً لوجه أمام جدار أساسي لتثبيت السقف (الذي كان دائماً يرتخي من الوسط) بحيث لم يتمكن جدي من فتح باب آخر فيه. وللتعويض عن الباب لجأ إلى ذلك البويب (الذي كان من بقايا الزمن الذي كانت فيه الأرضية مجرد علية يتم الوصول إليها بسلم) جاعلاً إياه يفتح ويغلق بجهاز ذي بكرات وثقالات تجعله يرتفع عند أقل دفعة باليد ثم يغلق ثانية تلقائياً بلكزة صغيرة. (هذا الجهاز حدّ من تسلل التيارات الهوائية عبر الدرج، وبالتالي من ملء الرواق بالماء، والانحدار منه منه بطبيعة الحال إلى المطبخ). كانت حجرة سيلفي كناية عن منامة

ضيقة[1] مع ستارة تحجبها عن الرواق. كانت تحتوي على سرير خفيف احتشد بالملاءات والوسائد، وعلى مصباح صغير، تركته نونا مشتعلاً على الرف. كما كان هناك نافذة واحدة دائرية صغيرة وعالية كقمر مكتمل. وكان نضد الزينة وكرسيه يقعان خارج الستارة، واحد منهما عند كل جهة منها. استدارت سيلفي في الرواق شبه المعتم وطبعت قبلة على خد كلّ واحدة منا. وقالت بصوت خفيض: «سأحضر لكما الهدايا، ربما غداً». ثم قبلتنا ثانية ودلفت خلف الستارة، إلى الحجرة الضيقة.

لطالما تساءلت عن الإحساس الذي انتاب سيلفي لدى عودتها إلى المنزل، الذي منذ مغادرتها له طرأت عليه حكماً بعض التغيرات. أتخيلها حاملة حقيبتيها بيديها العاريتين في وسط الطريق، الذي ضيقه الثلج المتراكم على الجانبين، والبريكات المتشكلة هناك. كانت سيلفي تمشي دائماً مطرقة الرأس مميلة إياه جانباً، وقد علاه تعبير مجرد متفكّر، وكأنها تصغي إلى شخص ما يكلمها همساً. لكنها كانت ترفع رأسها أحياناً لتنظر إلى الثلج الذي اصطبغ بلون الغيوم الثقيلة، وإلى السماء، التي اتخذت لون الثلج الذائب، وإلى الألواح الخشبية السوداء المبللة والقضبان وجذوع الأشجار التي تعاود البروز مع ذوبان الجليد.

كيف كان إحساسها وهي تخطو في الرواق الضيق الذي ما زال يحتفظ (كما بدا لي) ببعض العبق المزعج لأزهار مأتم جدتي قبل أن تحزم

(1) Dormer: بسبب انحدار السقف في هذا النوع من البناء، فإن هذه الحجرة في الطابق العلوي غالباً ماتكون ضيقة.

نونا أمرها وتتخلص منها. لابدّ من أن يديها وقدميها آلمتها من الدفء المفاجئ. أذكر كيف بدت يداها محمرتين معقوفتين، وهي تضعهما في حجرها فوق ثوبها الأخضر وكيف ضغطتهما على كشحيها. وكيف جلست هناك على الكرسي الخشبي في المطبخ الأبيض، مملسة فستانها الذي يبدو مستعاراً ومخرجة قدميها من خفيها، متحملة حملقتنا بها بتلك الحشمة الهادئة التي تميّز عذراء تحبل. كانت سعادتها جلية.

في اليوم التالي لوصول سيلفي استيقظتُ ولوسيل باكراً. كانت عادتنا أن نجوس البيت فجراً، وعادة ما يكون البيت ملكنا لساعة أو نحوها، لكن في ذلك الصباح وجدنا سيلفي جالسة في المطبخ أمام الموقد، مرتدية معطفها، تتناول بسكويت المحار من كيس سيلوفان صغير. رمشت لنا مبتسمة. قالت: «كان الجو لطيفاً مع الضوء مطفئاً»، فتزاحمت أنا ولوسيل في عجالتنا لكي نجرّ سلسلة إطفاء النور في السقف. أوحى لنا ارتداؤها المعطف أنها ربما تتأهّب للرحيل، فكنا مستعدتين لتقديم فروض الطاعة كافة لإقناعها بالبقاء. قالت: «أوليس الجو ألطف هكذا». في الحقيقة كانت الريح تعصف بالبيت قاذفة حبيبات الجليد على النوافذ. جلسنا على الحصيرة قرب قدميها ورحنا نحملق بها. ناولت كل واحدة منا حبة من بسكويت المحار. قالت أخيراً: «أكاد لا أصدّق أنني هنا، كنت ركبت القطار إحدى عشرة ساعة. كان الثلج كثيفاً في الجبال، فمضى القطار زاحفاً لساعات وساعات». كان جلياً من صوتها أن الرحلة كانت سارة.

«أركبتما القطار يوماً؟». لم نكن قد ركبنا قطاراً.

«كان هناك أغطية بيضاء سميكة على موائد المطعم، وأصص فضية صغيرة معلقة على أطر النوافذ، ويحصل المرء على قدر خاص به يحتوي على عصير الفاكهة. أحبّ السفر بالقطار، لاسيما في عربات الركاب. سأصحبكما معي يوماً ما».

سألتها لوسيل: «تصحبيننا إلى أين؟».

نفضت سيلفي كتفيها، وقالت: «إلى مكان ما. إلى أيّ مكان. إلى أين تحبان الذهاب؟».

تخيلتنا نحن الثلاثة واقفات على الأبواب المفتوحة لقطار لا ينتهي من عربات الشحن - فيض متلاحق من الصور السريعة المتطابقة أنتج ذلك الوهم المترقرق بالحركة والجمود معاً، مثل الصور في مكشاف الحركة[1].

بينما الهواء العاصف الحار الذي يتسبّب به مرورنا الخاطف يمزق زهور «مخمل الملكة آن»[2]، ومع ذلك على الرغم من كل الضجيج والقعقعة والسرعة الرهيبة ينتهي بنا الأمر هناك أمام الحديقة في حين يواصل القطار هديره.

قلت: «سبوكاين.

قالت سيلفي: «آه، نريد مكاناً أفضل من هذا. أبعد منه، ربما سياتل».

ساد صمت. «لكنكما كنتما تعيشان هناك».

(1) Kinetoscope: جهاز اخترعه إديسون يلتقط الصور الفوتوغرافية المتلاحقة بهدف تسجيل الحركة.

(2) Queen Anne's Lace: نوع من النباتات أزهاره بيضاء صغيرة في وسطها بقعة بنفسجية.

قالت لوسيل: «مع أمنا».

«أجل». قالت سيلفي وطوت ورقة السلوفان الفارغة في أرباع وأخذت تمسد الطيات بين سبابتها وإبهامها.

سألتها لوسيل: «هلا أخبرتنا عنها؟». كان السؤال مفاجئاً، متوسلاً، لأن الكبار لا يحبون التكلم إلينا عن أمنا. كانت جدتنا تتفادى ذكر أيّ من بناتها، وحين كان يؤتى على ذكر إحداهن أمامها كانت تجفل منزعجة. وقد اعتدنا على ذلك، لكن ليس على ذلك الحرج الحاد الذي ينشأ عند جدتي وعمتينا وصديقات جدتي كلما ذكر اسم أمي أمامهن. كنا قد خططنا للمحاولة مع سيلفي، لكن ربما لأن الأخيرة، بمعطفها ذاك، بدت عابرة جداً، لم تنتظر لوسيل حتى نتعرف إليها أكثر كما كنا قد اتفقنا.

قالت سيلفي: «آه، كانت لطيفة، كانت جميلة».

«لكن كيف كانت؟».

«كانت جيدة في المدرسة».

تنهدت لوسيل.

«من الصعب وصف شخص تعرفه حق المعرفة بالكلام. كانت شديدة الهدوء. تحب العزف على البيانو، وجمع الطوابع البريدية». بدت سيلفي مستغرقة في التذكّر «لم أعرف شخصاً يحب القطط مثلها، كانت دائماً تأتي بها إلى البيت». ثم نقلت سيلفي قدميها وعدلت هدب ثوب نومها السميك فوقهما.

قالت: «لم أرها كثيراً بعد زواجها».

قالت لوسيل: «إذن أخبرينا عن زفافها».

«آه، كان زفافاً صغيراً جداً. ارتدت ثوباً صيفياً مخرماً، وقبعة من القش، وكانت تحمل باقة من الأقحوان. كان ذلك فقط إرضاء أمنا. فقد تزوجا سلفاً على يد قاض محلي في مكان ما من نيفادا».

«لماذا نيفادا؟».

«حسناً، والدكما من نيفادا».

«كيف كان؟».

نفضت سيلفي كتفيها.

«كان طويلاً. مظهره مقبول. ومع ذلك شديد الهدوء. أظن أنه كان خجولاً».

«ماذا كان يعمل؟».

«كان كثير التنقل. أظن أنه كان يبيع الأدوات الزراعية. ربما العدة. لم أره حتى، ما عدا في ذلك اليوم. أتعرفان بمكانه؟».

«لا»، أجبت. أنا ولوسيل كنا نتذكر يوم أحضرت فيه بيرنيس لأمنا رسالة سميكة.

قالت: «رينيجينالد ستون»، مربتة على العنوان بإظفرها الأرجواني. قدمت لها هلين كوباً من القهوة وجلست إلى الطاولة تنقر زاوية رخوة من الطابع البريدي بينما روت لها برنيس همساً حكاية فضائحية عن انهيار زوجي ومصالحة تتعلق بنادلة في حانة تعرفها برنيس جيداً، مستخلصة في النهاية أن هلين لن تفتح الرسالة في وجودها، فغادرت أخيراً، وحين رحلت بادرت هلين إلى تمزيق المغلف إلى أرباع ورمته في

القمامة. محملقة في وجهينا كأنها تذكّرت وجودنا فجأة، متوقعة أن نطرح عليها الأسئلة، فقالت «هكذا أفضل»، وهذا كل ما عرفناه عن أبينا.

ما زلت أتذكر وجهها في تلك اللحظات، وقد أجفل بإدراكها المفاجئ لحضورنا. أظن عندئذ أنني شعرت بالفضول فحسب، مع أنني أتذكر نظرتها تلك، لأنها نظرت إليّ بحثاً عن علامات تدلّ على ما هو أكثر من الفضول. وفي حقيقة الأمر، ما زلت أتذكر تلك اللحظة اليوم بالذهول نفسه – لم يكن ثمة برود ولا شغف في طريقة تمزيقها للرسالة، ولا تردد ولا استعجال، وأتذكرها بإحباط، لأنها كانت تلك الرسالة اليتيمة منه أو عنه، وبغضب، فقد كان والدنا، وربما كان راغباً في معرفة ما حلّ بنا، وحتى في أن يتدخل. يتراءى لي أحياناً أنني مع تقدّمي في السن أصبح أقدر على أن أقدّم لنظرتها تعبير الوجه الذي كانت تتوقعه. لكنها بالطبع كانت تنظر إلى وجه لا أتذكره، لا يشبه وجهي أكثر مما وجه سيلفي يشبهها. وربما أقل لأنني بينما أنظر إلى سيلفي، ذكرتني بأمي أكثر فأكثر. كان ثمة تماثل في تركيبة الوجنتين والذقن، وفي لون الشعر، بحيث أن سيلفي بدأت تضبّب ذكرى أمي، ثم تحلّ محلها. سرعان ما صارت سيلفي هي التي تنظر مجفلة إليّ من موقع ذاكرة لا مكان لها فيها. وصرت أكثر فأكثر أعرض أمام سيلفي المتذكّرة هذه وجهي المفعم بالجرح الواعي، مدركة في الوقت نفسه أن سيلفي لا تعرف شيئاً عن تلك الرسالة.

ما الذي تراه سيلفي حين تتذكّر أمي؟ فتاة مجدولة الشعر، منمشة

الذراعين، تحب أن تضطجع على بطنها على الحصيرة في ضوء المصباح، رافعة رجليها في الهواء، وذقنها بين يديها، قارئة كبلنغ. أكانت تخبر الأكاذيب؟ أكانت تحفظ السرّ؟ أكانت تدغدغ أو تصفع أو تقرص أو تلكم أو تلوي قسمات وجهها؟

لو سالني أحدهم عن لوسيل لتذكرتها بكتلة شعرها الناعمة الجميلة التي تخفي أذنيها الدائريتين قليلاً اللتين كان يقرصهما البرد إلى حدّ مؤلم في حال تركتهما مكشوفتين. لتذكّرت أن سنيها الأماميتين، ذينك الدائمتين، نبتتا في فترات متباعدة، وكانتا كبيرتين ومسننتين بصورة قبيحة، وأنها كانت أنيقة في غسل يديها. لتذكرت أنها حين تغتاظ تعضّ على شفتيها، وحين تشعر بالخجل تحك ركبتها، وأن رائحتها كانت تفوح نظافة رتيبة، مثل الطبشور، أو مثل قطة في دفء الشمس.

لا أظن أن سيلفي كانت قليلة الكلام. لكن كما قالت من الصعب وصف أحدهم، بما أن الذكريات بطبيعتها مجزّأة، ومعزولة، واعتباطية مثل نظرات المرء ليلاً عبر نوافذ مضاءة.

أحياناً كنا نشاهد القطارات تمر في الأصيل المعتم، نراها تتقدّم زاحفة عبر الثلج الأزرق وقد أضيئت نوافذها، وامتلأت بأناس يأكلون ويتجادلون ويقرأون الصحف. لم يكن في مقدورهم رؤيتنا بالطبع، لأنه عند حلول الخامسة والنصف في يوم شتوي يختفي المنظر، ولا يعود في وسعهم، إذا نظروا إلى الخارج، سوى رؤية انعكاسات صورهم على سطح الزجاج الأسود، لا الأشجار السوداء والبيوت السوداء أو الجسر الأسود الهزيل والامتداد الأزرق الغامق للبحيرة. بعضهم على

الأرجح لم يكن يعرف ما هو هذا الذي يقترب منه القطار بحذر شديد. ذات مرة مشيت ولوسيل بمحاذاة أحد القطارات على شاطئ البحيرة. كان هناك مطر مصقع حوَّل الثلج طبقة من الجليد، ووجدنا أنها، حين هبطت الشمس، كانت صلبة كفاية لكي نمشي عليها. فتبعنا القطار مسافة عشرين قدم أو نحوها، متعثرتين من حين لآخر، لأن الجليد كان يعلو ويهبط في كثبان، وترتفع منه أعالي الأجمات وأعمدة الأسيجة في مواضع لا نحسب لها حساباً. لكن عبر الزحف إلى الأعلى والتزلج إلى الأسفل، وتثبيت أنفسنا على أسطح السقائف وزرائب الأرانب، تمكنا من البقاء بمحاذاة نافذة امرأة شابة صغيرة الرأس تعلوه قبعة صغيرة، وقد طلت وجهها بأصبغة فاقعة.

كانت ترتدي قفازين رماديين باهتين يصلان تقريباً إلى مرفقيها، وتضع سواراً يسقط من ذراعها كلما رفعت ذراعيها لكي تعيد خصلة شعر أفلتت إلى أسفل القبعة. نظرت المرأة إلى النافذة غالباً، مستغرقة بما رأت، الذي لم يكن سوى لوسيل وأنا نركض لنبقى بمحاذاة نافذتها، وقد انقطعت أنفاسنا بحيث لم نعد قادرتين على الصراخ. حين وصلنا إلى الشاطئ حيث تنخسف الأرض ويبدأ الجسر، توقفنا وشاهدناها تبتعد ببطء، عبر القوس المجرد للجسر.

قلت: «كان يمكننا عبور البحيرة». كانت الفكرة رهيبة.

ردّت لوسيل: «البرد شديد جداً». فكانت قد رحلت المرأة.

لكنني لا أتذكرها أقل ولا بصورة مختلفة عما أتذكّر آخرين عرفتهم أكثر، وبالتأكيد أحلم بها، والحلم يشبه كثيراً الحدث نفسه، سوى أنه في

الحلم لا تهتز أعمدة الجسر بصورة توحي بالرعب تحت ثقل القطار.

سألتنا سيلفي: «ماذا ترغبان في أن تتناولا على الإفطار؟».

«رقائق الذرة».

حضرت لنا الكاكاو وأكلنا وشاهدنا بزوغ الفجر. كانت ليلة مصقعة جلّدت الثلج نصف الذائب وقسّت أكوام الأوساخ والثلج الجاف على جانبي الطريق.

قالت سيلفي: «سأقوم بنزهة صغيرة في البلدة، وقبل أن تتحول الطرق إلى أوحال ثانية سأكون قد رجعت». زرّرت معطفها وخرجت إلى الشرفة. سمعنا الباب الشبكي يقفل.

قلت: «كان يجدر به بها أن تأخذ معها لفاعاً».

وقالت لوسيل: «لن تعود». ركضنا إلى الطابق الأعلى وارتدينا بنطالينا الجينز فوق منامتينا. ثم انتعلنا جزمتينا فوق خفينا واختطفنا معطفينا وهرعنا على الخارج، لكنها كانت قد رحلت. لو كانت راحلة، لقصدت البلدة، محطة القطارات. وإذا لم تكن راحلة، لذهبت إلى البلدة على أي حال، إلا إذا قصدت البحيرة. بما أنها كانت حاسرة الرأس ولا تضع قفازين ولا تنتعل جزمة، فستكون البحيرة شديدة البرد عليها. مشينا نحو «ماين ستريت» بأقصى سرعتنا فوق الثلج المتجلد والحفر المتجلدة وقطع الجليد المتناثرة.

قلت: «أراهن أن ليلي ونونا طلبتا منها الرحيل». هزّت لوسيل رأسها. كان وجهها متورداً ووجنتاها مبللتين.

قلت: «سيكون كل شيء على ما يرام». مسحت وجهها بقوة

بكميها. «أعرف أن الأمور ستكون على ما يرام لكن الأمر يثير جنوني فحسب».

استدرنا عند المنعطف ورأينا سيلفي أمامنا على الطريق، ترشق قطع الجليد على أربعة أو خمسة كلاب. كانت تحمل قطعة جليد وتنقلها بين يديها، وهي تمشي عكسياً، بينما تتبعها الكلاب وتتجمع في دائرة خلفها، نابحة. رأيناها تصيب كلباً في أضلاعه، وتشتت الكلاب الأخرى. أخذت تمصّ أصابعها وتنفخ في يديها المكورتين، ثم حملت قطعة أخرى من الجليد حين رأت الكلاب تعود وتبدأ بالنباح والتحلّق ثانية. كان سلوكها غير مبال وتصويبها دقيقاً. لم ترنا واقفتين نراقبها على مسافة منها. وقفنا في مكاننا حتى استدار آخر الكلاب وراح يجري مبتعداً إلى شرفته، ثم تبعناها على مسافة شارعين من وسط البلدة. مشت ببطء أمام الصيدلية ومتجر العشرة سنتات[1] ومتجر الأقمشة، متوقفة لتنظر قليلاً إلى واجهة كلّ منها. ثم اتجهت مباشرة إلى مبنى المحطة ودخلت إليه. فتبعناها، حتى رأيناها واقفة قرب المقود، شابكة ذراعيها على صدرها، تطالع باهتمام اللائحة المكتوبة بالطباشير لمواعيد الرحلات..

قالت لوسيل: «سأقول لها إنها نسيت حقيبتيها». لم أكن قد فكرت بهذا. حين رأتنا سيلفي نقترب منها ابتسمت متفاجئة.

قالت لوسيل: «نسيت أغراضك في البيت».

«آه، لقد جئت إلى هنا فقط لكي أحصل على بعض الدفء. ليس من

(1) Dime store: متجر يبيع كل شيء بعشرة سنتات للقطعة.

مكان آخر مفتوح. الوقت مبكر كما تعلمان. نسيت كم مبكراً تبزغ الشمس هذه الأيام». فركت يديها أمام الموقد، ثم أضافت «ما زال كأننا في الشتاء، أليس كذلك؟».

سألتها لوسيل: «لم لا ترتدين قفازيك؟».

«نسيتهما في القطار».

«لم لا تنتعلين جزمة».

ابتسمت سيلفي. «افترض أني ينبغي أن أفعل».

«كما تحتاجين إلى قبعة. يجب أن تستعملي مرهم اليدين».

وضعت سيلفي يديها في جيبيها.

قالت: «أظن أنني ينبغي أن أبقى هنا لبعض الوقت، فالعمتان مسنتان جداً. أظن أن هذا أفضل، في الوقت الحالي على الأقل».

هزت لوسيل رأسها.

«سنتناول الفطائر حين يفتح المقهى. ثم يمكنكما مساعدتي في اختيار لفاع، وربما قفازين».

بحثت في جيبها وأخرجت كرة صغيرة من المال وبعض الفكة. نظرت إلى المال متشككة ولم تحصه.

«سنرى».

قالت لوسيل: «لدينا مرهم لليدين في البيت».

عند الساعة التاسعة تبعنا سيلفي إلى متجر «العشرة سنتات»، حيث اشترت لفاعاً وقفازين رماديين. تطلبها بعض الوقت لكي تختارها، وبعض الوقت لكي تعرف نفسها للسيدة على الصندوق، التي على

الرغم من أن سيلفي حسبتها مألوفة الوجه، كانت جديدة في البلدة، ولا تعرف شيئاً عن عائلتنا. حين خرجنا ثانية إلى الشارع بدأت الشمس قد بدأت تنشر دفئها. كان المياه تتدفق متلألئة في المزاريب. وحين وصلنا إلى نهاية الرصيف، لم يكن من مجال لكي تمشي سيلفي من دون أن تخوض في برك المياه. وقد بدا أنها كانت مستغرقة بهذه المشقة إنما غير منزعجة منها.

قالت سيلفي: «لقد ذكرتني تلك المرأة بإحداهن لكنني لا أذكر من».

سألتها لوسيل: «أما زال لك أصدقاء هنا».

ضحكت سيلفي. «حسناً، الحقيقة أنه لم يكن لي يوماً الكثير من الأصدقاء هنا. كنا منطوين على أنفسنا. كنا نعرف الجميع، وهذا كل شيء. والآن كنت بعيدة طوال ستة عشر عاماً».

قالت لوسيل: «لكنك كنت تعودين أحياناً».

«لا».

سألتها لوسيل: «أين تزوجت؟».

«هنا».

«هذه مرة إذن».

قالت سيلفي: «مرة».

سحقت لوسيل بجزمتها كومة من الثلج نصف الذائب، وركلتها لأنه طارت بعض شظايا الثلج على رجلي.

مشينا في الدرب المؤدي إلى رواق بيتنا. كانت ليلي ونونا في المطبخ،

متورّدتين بالدفء والقلق.

قالت ليلي: «ها أنتن!».

«يا له من يوم للمشي!».

خلعت سيلفي خفيها الأخرقين على الشرفة، وخلعنا جزمتينا ومعطفينا. صأصأت العمتان حين رأتانا بالجنيز والخفين، وما زلنا في ثياب النوم من دون تمشيط شعرنا.

قالتا: «آه!».

«ما هذا؟».

قالت لوسيل «أنا وروثي استيقظنا باكراً هذا الصباح، وقررنا الذهاب إلى الخارج لكي نرى شروق الشمس. ذهبنا مباشرة إلى البلدة، وقد قلقت سيلفي فلحقتنا لتبحث عنا».

قالت نونا: «آه، إنني متفاجئة منكما أيها الفتاتان».

«يا له من تصرّف متهور منكما».

«آمل أن تكون سيلفي قد وبختكما على فعلتكما هذه».

«المسكينة سيلفي!».

لو كنا هنا وحدنا، لكنا متنا من القلق».

«هذا مؤكد».

«الطرق غدّارة جداً. ماذا كنا سنفعل؟».

جلبتا لسيلفي كوباً من القهوة وطشتاً من المياه الحارة لقدميها، وهما تصوصآن وتؤاسيانها وتربتان يديها وشعرها.

«يجب أن يكون المرء شاباً للتعامل مع الأطفال».

«هذه حقيقة».

«كنا قصدنا مأمور البلدة».

«كان ذلك لقنهما درساً».

عجلت العمتان لحزم حقائبهما.

فتحت لوسيل الصحيفة على الكلمات المتقاطعة وعثرت على قلم رصاص في الدرج، وجلست قبالة سيلفي على الطاولة.

قالت: «العنصر الذي يختزل برمز Fe».

أجابت سيلفي «الحديد».

«أما كان ليبدأ بحرف ح».

قالت سيلفي «إنه الحديد».

«إنهم يحاولون خداعك».

تلك الليلة أوصلتهما إحدى صديقات جدتي إلى سبوكاين وبتنا نحن والبيت في رعاية سيلفي.

4

في الأسبوع الذي أعقب مجيء سيلفي حظيت «فينغربون» بثلاثة أيام من الشمس الناصعة وأربعة أيام من المطر المنعش. في اليوم الأول تقطرت دلاء الجليد[1] بسرعة شديدة إلى حدّ أنها جعلت الحصى تحت الأطناف يتقافز مقعقعاً. صار الثلج مبرغلاً في الظل، وفي الشمس ناعماً يلتصق بكل ما يكسوه. وفي اليوم التالي سقطت دلاء الجليد على الأرض وانخفض الثلج فوق الأفاريز في كتل ثقيلة. فاستعنت ولوسيل بالعصي لإسقاطه أرضاً. وفي اليوم الثالث صار الثلج كثيفاً جداً ومطواعاً بحيث بنينا به تمثالاً.

وضعنا كرة ثلج كبيرة فوق كرة أخرى، وحفرنا فيها بملعقتين حتى تشكّل لنا شكل امرأة تقف في ثوب طويل طاوية ذراعيها. كانت فكرة لوسيل أن نجعلها تنظر جانبياً، وبينما انحنيت ونحتّ ثنيات في

(1) دلاء الجليد Icicls: الكتل الجليدية التي تنشأ عن تجلد الجليد أثناء تقطّره.

هدب فستانها، وقفت لوسيل على كرسي المطبخ وقامت بنحت ذقنها وأنفها وشعرها. وحدث بمحض الصدفة أن جاءت تنورتها مرتدة قليلاً عن وركها، وأن جاء ذراعاها مطويين عالياً على صدرها. كان الثلج صلباً في بعض المواضع، وفي بعضها الآخر كان طرياً، وتوجّب علينا في بعض الأمكنة أن نغطي بالثلج الناصع أوراق الأشجار السوداء التي علقت ونحن نكوّر الكرتين، لكنهما في النهاية اتخذتا شكل امرأة متموضعة. وفي حين جاءت تفاصيلها غير بارعة، فقد أوحى شكلها الإجمالي بامرأة تقف في الريح العاتية. شعرنا أننا استحضرنا روحاً. خلعنا معطفينا وقبعتينا وعملنا حولها بصمت. كان ذلك في اليوم الثالث من الشمس. كانت الشمس زرقاء غامقة، ولم يكن من ريح على الإطلاق، لكن في كل مكان كان يسمع صوت ذوبان مياه الجليد وذوبانه. أملنا أن السيدة ستصمد طويلاً حتى تصبح جليداً، لكن في الحقيقة بينما كنا نعّم الثلج الرمادي حولها، مال رأسها جانباً ثم تحطم أرضاً. وقد كلفتها هذه الحادثة ذراعاً ونهداً أيضاً. كوّرنا كرة جديدة لنصنع بها رأساً جديداً، لكنها سحقت رقبتها المتآكلة، وسقطت الكتف تحت ثقل الكرة. دخلنا لنتناول الغداء، وحين خرجنا ثانية، كانت قد أصبحت مجرد جدعة مصفرة لم تعد تثير اهتمامنا.

كان المطر الذي توالى هطوله في ذلك الوقت بالتحديد بمثابة كارثة. فقد سرّع من ذوبان الثلج لكن ليس الجليد على الأرض. لذا في نهاية الأيام الثلاثة كانت بيوت «فينغربون» وزرائبها وحظائرها أشبه بالأطواف الغارقة. كان ثمة دجاجات تجثم على أعمدة الهاتف

وكلاب تسبح في الشوارع. لطالما تفاخرت جدتي أن الطوفان لم يبلغ منزلنا يوماً، لكن في ذلك الربيع، تدفقت المياه من حواف البيت وغطت أرضيته على ارتفاع أربعة إنشات، مجبرة إيانا على انتعال الجزم عند القيام بالطبخ والغسيل. عشنا في الطابق الثاني لعدد من الأيام. وقد أزجت سيلفي الوقت بلعب «السوليتير» بينما لعبت ولوسيل المونوبولي على السرير. وقد كوّمنا الحطب على الشرفة عالياً بحيث ظلّ معظمه جافاً قابلاً للاشتعال، وإن جاء اشتعاله مصحوباً بالدخان بفعل الرطوبة. وقد امتلأت كومة الحطب بالعناكب والفئران، وانحنى منصب ستارة حجرة المؤونة من ثقل المياه التي تشرّبتها الستائر. وكانت، إذا ما فتحنا باباً أو أقفلناه، تندفع موجة عبر البيت، وتترنح الكراسي، وتقرقع القناني والأواني في خزائن المطبخ.

بعد أربعة أيام من المطر بزغت الشمس في سماء بيضاء، دافئة باهرة النور، وأولئك الذين غادروا بيوتهم إلى أمكنة أعلى عادوا على القوارب. ورأيناهم من نافذة غرفة نومنا يتفحصون سقوف بيوتهم ويسترقون النظر من نوافذ علياتهم. وقالت سيلفي: «لم أر شيئاً كهذا يوماً». وقد التمعت المياه بقوة أكبر من السماء، وأمام نواظرنا هوت شجرة حور كبيرة على الطريق. من الرأس إلى الجذع، واختفى نصفها في وميض الضوء.

لم تكن «فينغربون» يوماً بلدة جميلة. فقد كانت مبتلاة بطبيعة ضخمة تحيط بها وبمناخ متطرّف، ثم بإدراكها أن تاريخ البشرية برمته حصل في مكان آخر. وقد أوقع ذلك الفيضان أعداداً من شواهد

القبور. وما كان أكثر سوءاً أن القبور غرقت حين تقهقرت المياه بحيث بدت شبيهة بالخواصر المفرغة أو البطون الفارغة. ثم فاضت المياه في المكتبة حتى ارتفاع ثلاثة أرفف، متسببة بفجوات كبيرة في «تصنيف ديوي العشري»[1]. أما الخسائر التي طاولت مساند القدمين المزخرفة والسجاجيد المعلقة فلا يمكن تعويضها. تسلل الفطر والعفن إلى أثواب العرس وألبومات الصور، بحيث تشقق الجلد بين أيدينا حين رفعنا الأغلفة، وكانت الرائحة التي انبعثت منها حين فتحناها نفاذة كتلك التي يجدها المرء تحت لوح خشبي أو صخرة. معظم ما ادخرته «فينغربون» تعرّض للتشويه أو التلف الفوري، لكن بما أن ذخيرتها لم تكن بشيء يذكر، فلم تكن الخسارة ماحقة.

كان اليوم التالي رائعاً جداً. فتدفقت المياه بدعة بالغة بحيث حلّ محل النصف الغارق من الشجرة الساقطة الانعكاس المائي لنصف الجذع والأغصان التي بقيت فوق المياه. وطوال اليوم جاست قطتان على الغصون، ضاربتين ببراثنهما الدوامات الصغيرة فوق الماء. بدأت المياه تتقهقر نحو البحيرة التي سمعنا تئن تحت وطأته، لأن الجليد لم يكن قد ذاب بعد على سطحها، واحتفظ بسماكته وإن صار بلون الكيروسين، وبدأت فقاعات بيضاء كبيرة تتشكل تحته. في الطقس الاعتيادي ربما كانت ارتفعت المياه نحو إنش في المواضع الضحلة من البحيرة. وتحت

(1) Dewey Decimal System: نسبة إلى مخترعه الأمريكي ملفيل ديوي (1851–1931): أول نظام حديث في تصنيف المكتبات وأكثرها شهرة، وقد صدرت الطبعة الأولى منه عام 1876، ويقوم على تقسيم المعارف البشرية إلى عشرة أقسام رئيسية ينقسم كل واحد منها بدوره إلى عشرة أقسام أخرى... إلخ.

وطأة مياه الفيضان فقد بدأ سطح البحيرة بالتراخي وتحوّل ليفياً أكثر منه ناعماً أو هشاً، وبدأ يتفرّق الجليد عليه، مقاوماً التشظي كالعظام الخضراء. كانت فترة الأصيل صاخبة بمشقات البحيرة الهائلة، حيث سطعت الشمس فوقها، وصارت مياه الفيضان مرآة كاملة تعكس سماء صافية بالغة السكون.

انتعلت ولوسيل جزمتينا ونزلنا إلى الطابق الأرضي. كان الضوء يغمر الردهة. وقد ساهم وطأ أقدامنا في أثناء تقدمنا من الدرج إلى الباب بإحداث سلسلة خفية من التيارات الصغيرة التي تدحرجت على ألواح الأرضية. والتمع الضوء في أشكال متشابكة على الجدران والسقف. وكانت الكنبة والمقاعد دكناء بصورة غريبة، وقد انزلقت حشوات ظهورها عن مواضعها، وحدثت فجوات في وسائدها. وقد نزّت المياه منها حين لمسناها. فمع الأيام شكّل الفيضان مزيجاً من رائحة الخيش والأسمال في تلك الغرفة، وهي رائحة لم تبارح الغرفة بعد ذلك، وما زالت حاضرة في أنفي في هذه اللحظة بالذات، وإن لم أشمّ بعد ذلك ما يشبهها.

نزلت سيلفي إلى الردهة منتعلة جزمة تخص جدتي ونظرت إلينا من الباب.

وسألتنا: «أنبدأ بإعداد العشاء؟».

لكزت لوسيل وسادة كنبة بإصبعها. وقالت: «انظري». حين أبعدت يدها، اختفت المياه التي نزت منها، لكن موضع الإصبع بقي منبعجاً.

قالت سيلفي: «يا له من أمر مؤسف». ومن البحيرة انبعث الصوت الرهيب المتزايد لاصطخاب الجليد وتململه وتلاطمه بينما كوّم تيار جنوبي كسرات ضخمة من الجليد على الجانب الشمالي من الجسر. وخاضت سيلفي في الماء بجانب قدمها، فامتدّت دائرة مضلعة نحو الجدران، ثم ارتدّت أقواس جوانبها الأربعة، متمازجة متداخلة، وراحت خطوط الضوء تمتد مرتعشة متمايلة في أرجاء الغرفة. وراحت لوسيل تركل الأرض بقدمها حتى طرطشت المياه على الجدران كما تطرطش المياه في داخل دلو.

كان هناك صوت مكتوم لتذبذب الأشياء في المطبخ، والستائر المزركشة، التي صارت ملفوفة مشدودة بفعل وزنها المشبّع بالماء، فأخذت تدور متقلّبة في مكانها. أخذتني سيلفي بيدي وجرتني وراءها بحركة راقصة على إيقاع خطوات الفالس الست. فراح البيت يدور بنا. فتحت لوسيل الباب الرئيسي وتسببت الحركة بانهيار كومة الحطب على الشرفة وأوقعت كرسياً ومعه كيساً من ملاقط الغسيل.

وقفت لوسيل بالباب تنظر إلى الخارج. قالت:

«يبدو أن الجسر يتداعى».

قالت سيلفي: «لعله على الأرجح الجليد لا أكثر».

قالت لوسيل: «لا أحسب أن منزل سيمون ما زال في موضعه».

مضت سيلفي إلى الباب وألقت نظرها إلى آخر الشارع نحو نحو سقف بيت أسود.

«يصعب جداً أن نعرف».

«تلك الأجمات كانت على الطرف الآخر».

«ربما الأجمات هي التي انتقلت».

أوقدتُ وسيلفي ناراً يتصاعد منها الدخان وغلينا ماء للشاي والحساء، وجمعت لوسيل الحطب الذي وقع وكنست ملاقط الغسيل إلى خلف ستارة حجرة المؤونة (مستعملة المكنسة نفسها التي كنا نضرب بها كومة الحطب قبل أن نسحب أي قطعة منها، لكي تفر العناكب والفئران ولا تعض أصابعنا أو تقع في أكمامنا، أو تقضي في النار). وكانت ليلي ونونا، تجنباً منهما لمغادرة البيت، في غمار قلقهما من أن تضلا الطريق في الثلج أو أن تعتلا، قد حرصتا على أن تبقى حجرة المؤونة مليئة بالمأكولات المعلبة، التي كانت كفيلة بأن تجعلنا نصمد دونما مشقة خلال دزينة من الفيضانات. لكن كان مقلقاً أن يظهر خوف عمتينا كنوع من التبصّر. أخذنا عشاءنا إلى الأعلى وجلسنا في سريرنا ورحنا ننظر من النافذة إلى البلدة. بدا لنا أن منزل سيمون قد انتقل بالفعل من مكانه.

كدّرت النسائم صفحة الماء، بينما هبطت الشمس وسط نباح زمرة من الكلاب العالقة وصياح ديك ضالّ. واستمرت أصوات القعقعة والصرير بالمجيء من البحيرة، وصارت رهيبة خلال الليل، وكان صوت الريح الليلية في الجبل أشبه بنفس طويل. وفي الأسفل أخذت مياه الفيضان تتحسّس طريقها مرتطمة بالجدران والأشياء مثل ضرير يتحرّك في منزل غريب، لكن في الخارج هسسهست مياه الفيضان وجرت هزيلة، مثل ضغط الماء على طبلتي الأذن، ومثل الصوت الذي

تسمعه قبل أن يغمى عليك.

أضاءت سيلفي شمعة. وقالت: «لنلعب كرايزي آيتس»[1].

فقالت لوسيل: «لا أريد ذلك».

«ماذا تريدين أن تفعلي؟».

«أريد أن نجد أناساً آخرين».

«الآن؟».

«حسناً، غداً، يمكننا فحسب أن نشق طريقنا إلى الأعلى ونمشي حتى نجد أحدهم. لابدّ من أن هناك كثيرين يعسكرون على التلال».

«لكننا بأحسن حال هنا، يمكننا أن نطهو طعامنا وننام في أسرتنا. ما الأفضل من ذلك؟». خلطت الورق وفرشته أمامها للعب «السوليتير».

قالت لوسيل: «لقد فاض بي الكيل من هذا!».

اختارت سيلفي أصاً وقلبت الورقة التي تحته، ثم قالت: «إنها الوحدة، الوحدة تزعج الكثيرين من الناس. عرفت ذات مرة امرأة كانت وحيدة جداً إلى حدّ أنها تزوجت عجوزاً أعرج ورزقت منه بأربعة أطفال في خلال خمس سنوات، ولم يخفّف هذا من ضجرها. ثم تراءى لها أن تزور أمها، فادّخرت بعض المال وقادت سيارتها المسافة كلها إلى ميزوري مع أطفالها. قالت إن أمها تغيرت إلى حدّ أنها لم تعرفها في الشارع. نظرت العجوز إلى الأطفال وقالت إنها لا ترى

(1) Crazy Eights: لعبة ورق حيث ينبغي أن يتخلص كلّ لاعب مما لديه من أوراق حتى يكون الرابح.

فيهم أيّ شبه بالعائلة، وقالت: لقد ادّخرت الأسى لنفسك يا ماري. فاستدارت المرأة وعادت أعقابها إلى دارها. لكن زوجها لم يصدّق أنها ذهبت لزيارة أمها. حسبها هجرته مع الأطفال ثم انتابها الخوف من شيء ما فعادت. لم يعد يبدي أي عاطفة تجاههم بعد ذلك. لكنه لم يعمّر طويلاً على أيّ حال».

سألتها لوسيل: «ماذا حصل للأطفال؟».

هزّت سيلفي كتفيها، وقالت: «الأمور المعتادة على ما أظن. إذا كان هناك فعلاً من أطفال».

«حسبتك قلت إنه كان هناك أربعة أطفال».

«حسناً، لا أعرف فعلاً صدق ما روته. فقد التقيتها في الحافلة. تكلمت عن كلّ شيء في العالم، فقلت لها، إذا كنت سترجلين في بيلينغز[1]، فسأقدّم لك سندويتش همبرغر، فأجابتني: لن أترجّل في بيلينغز. لكنها ترجّلت بعد ذلك. كنت أتصفح بعض المجلات التي وجدتها على مقعد المحطة ورفعت رأسي فإذا بي أجدها واقفة هناك على بعد أقل من عشرة أقدام تنظر نحوي. وحين رفعت رأسي، استدارت وهرعت إلى الشارع، وكانت هذه آخر مرة رأيتها فيها. كانت مجنونة على الأرجح. فكرت وقتذاك: إذا كان لي أطفال فهي لها أطفال».

«لماذا ظننت أنه ليس لها أطفال؟».

«حسناً، إذا كان لها أطفال فعلاً، فإنني أشفق عليهم. عرفت امرأة مرة ذكرتني كثيراً بها. كان لها فتاة صغيرة، وكانت القصة الأكثر حزناً.

(1) Billings: مدينة في ولاية ميزوري، وهناك مدينة أخرى تحمل الاسم نفسه في مونتانا.

لم تكن بقادرة على رفع عينيها عنها. لم تكن تسمح لها بالخروج من البيت، أو باللعب مع أطفال آخرين. وحين تغفو الصغيرة تطلي أظافرها وتعقص شعرها في جدائل، ثم توقظها لكي تلعب معها، وإذا بكت الصغيرة كانت أمها تبكي أيضاً. وإذا كانت السيدة التي التقيتها في الحافلة مستوحدة بقدر ما قالت لي، لكان أطفالها معها، إلا إذا لم يكن لها أيّ أطفال، أو أن المحكمة أخذتهم منها. هذا ما حصل لتلك الفتاة الصغيرة التي ذكرتها لكما».

سألتها لوسيل: «أيّ محكمة؟».

«محكمة الوصاية. قاض كما تعلمان».

«حسناً، إذا كان قاضياً قد أخذهم، فما الذي سيفعله بهم؟».

«آه، يرسلهم إلى مكان ما، أظن أن هناك مزرعة ما أو ما شابه».

كانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها أنا أو لوسيل عن اهتمام الدولة بحال الأطفال، وقد شعرنا بالقلق. راحت سيلفي تخلط الورق وترتّبه على ضوء الشمعة الموضوعة على نضد الزينة، غير واعية بذلك الاهتمام القضائي الأسود الذي أرخى بظلاله علينا جميعاً، والذي كان بضخامة ظلالنا.

كانت الشكوك ما زالت تساورنا بأن سيلفي ستبقى. كانت تشبه أمنا، وبجانب ذلك، كانت نادراً ما تخلع معطفها، وكل قصة تخبرها لها علاقة بقطار ما أو بمحطة حافلات. لكننا حتى ذلك الوقت لم نكن قد تخيلنا إمكانية أن نؤخذ منها. تخيلت نفسي ادّعي النوم بينما سيلفي تمشط شعري البني القصير إلى عقصات ذهبية طويلة، طارحة

كل واحدة منها بحرص على الوسادة. تخيلتها تجرني من يدي إلى الأسفل برقصة فالس جامحة، ثم عبر المطبخ، ثم الغيضة، وتلك الليلة غير المقمرة، وأنا شبه غافية بثياب النوم. وفي اللحظة التي تبدأ فيها المياه في الغيضة بالتلاطم على أرجلنا وعلى جذوع الأشجار، يخرج عجوز يرتدي رداء أسود من خلف شجرة ويمسك بيدي، بينما سيلفي عاجزة عن الصراخ من شدة ذهولها وأنا أشدّ جزعاً من أن أقاوم.

تخيلت أن انفصالاً كهذا سيقود حتماً إلى وحدة شديدة بما يكفي لجعل المرء مريباً في محطة الحافلات. تراءى لي أن معظم الناس في محطات القطارات سيكونون مريبين لولا الأعداد الغفيرة من الآخرين الذين لولاهم لبدوا مريبين على النحو ذاته. سيلفي، في تلك اللحظة، بالكاد يمكن أن يلاحظ أحد وجودها في محطة الحافلات.

سألتها لوسيل: «لماذا ليس لك أولاد؟». رفعت سيلفي كتفيها. وقالت: «لم يكن هذا مقدراً فحسب».

«أأردت أطفالاً؟».

«لطالما أحببت الأطفال».

«لكنني قصدت هل رغبت في الحصول على أطفال؟».

قالت سيلفي: «يجب أن تعرفي يا لوسيل أن بعض الأسئلة ليست مهذبة. أنا أكيدة (متأكدة أو واثقة) من أن أمي أخبرتك بذلك».

قلت: «إنها آسفة». وعضّت لوسيل شفتها.

قالت سيلفي: «غير مهم، لنلعب كرايزي آيتس. لقد حمّيت الورق».

احتجنا إلى المزيد من الكراسي، وإلى أن نأتي بالطوب الذي سخناه على الموقد لنضعه في أحضاننا وتحت أقدامنا، وأن نستبدل تلك التي بردت. أخذت سيلفي الطوب إلى الأسفل في كيس من الخيش ورافقناها أنا ولوسيل تحمل كلّ منا شمعة. لكن حين وصلنا إلى الردهة انطفأت الشمعتان. فقد تركنا البويب مفتوحاً وراءنا فتسربت منه كميات كبيرة من الهواء. ثم انطفأت عيدان الثقاب التي لدينا قبل أن نتمكن من معاودة إشعال الشمعتين.

قالت سيلفي: «حسناً». وتقدّمت الطريق إلى المطبخ، وكانت العتمة دامسة، فتحسسنا طريقنا على الجدار. وحين دخلنا إلى المطبخ كان صامتاً ما عدا الأصوات المكتومة للنيران الخافتة والمياه الساكنة في حجرة المؤونة.

«إنني هنا»، جاءنا صوتها من الشرفة، «إنني آتي ببعض الحطب. لم أشهد بحياتي ليلة مظلمة كهذه الليلة».

«حسناً، ادخلي ثانية!».

سمعنا صوت خطواتها وهي تخوض في الماء. «لم أرَ حقاً مثل هذه الظلمة، إنها أشبه بنهاية العالم!».

«إذن فلنعد إلى فوق».

لكن سيلفي غرقت في الصمت ثانية. وتخميناً منا أنها تصغي إلى شيء ما، التزمنا الصمت أيضاً. كانت البحيرة ما زالت تهدر وتئن، ومياه الفيضان ما زالت تطفح وتفور. حين لم نكن نتحرّك أو نتكلم، لم يكن هناك أيّ دليل على وجودنا هناك. جاءت أصوات الريح والمياه

شديدة الوضوح من أي مسافة ممكن تخيلها. في غياب أي منظور أو أفق، وجدت نفسي أنكمش إلى مجرد فكرة، وأختي وخالتي إلى شيء أقلّ من ذلك. وخشيت أن أمدّ يدي، خشية من أن تلمس شيئاً ما، أو أن أتكلم، خشية من ألا يردّ أحد. وقفنا جميعاً بصمت هناك لبرهة طويلة.

ثم قالت لوسيل بصوت منخفض جداً: «لقد فاض بي الكيل من هذا حقاً».

ربتت سيلفي كتفي: «لا تخافي يا لوسيل».

«لست لوسيل».

اتجهت سيلفي إلى الموقد، وسمعناها تضع الحطب على لوح التجفيف[1] وتكدّس الطوب البارد في المغسلة، ثم تضع الطوب الساخن في كيس الخيش. ثم أمسكت مقبض غطاء الموقد ورفعته، فأنار ضوء خافت وجهها ويديها وامتد حتى السقف. وضعت في النار قطعة من الحطب. ففرقعت الجمرات وطقطقت وصار الضوء أشدّ اصفراراً وقوة. وضعت سيلفي قطع الحطب، واحدة بعد الأخرى، حتى تقافزت ألسنة النار. رأينا اللهب ينعكس مصغراً على النافذة، وأخذ يومض قصدير الموقد بالأحمر، وتذبذب ضوء أحمر على المياه التي تملأ الأرضية. ثم أعادت سيلفي إقفال الغطاء وغرقت الغرفة في الظلام من جديد.

قالت سيلفي: «تذكرا الكراسي». سمعناها تكدّس الطوب البارد

(1) Drain Board: اللوح الخشبي أو المعدني المتصل بالمغسلة أو بقربها لوضع الأواني عليها حتى تجفّ بعد غسلها.

فوق الموقد، ثم تحسسنا طريقنا على السلّم، وقد استعانت كلّ منها لذلك بإحدى يديها، بينما تجرّ باليد الأخرى كرسياً من المطبخ. ثم أدخلنا الكراسي من البويب وتركناه مفتوحاً، وعثرنا على غرفتنا، وأقفلنا الباب، وأضأنا شمعة. وخلال دقائق عدة لم يكن يصلنا من الأسفل سوى الجلبة المائية نفسها. فقالت لوسيل: «أظن أنها ذهبت إلى الخارج للقيام بنزهة قصيرة». لكننا علمنا كلانا أنها قد غرقت ثانية في الصمت المظلم.

قلت: «فلنناد عليها».

قالت لوسيل: «فلننتظر»؟ وجلست قرب نضد الزينة ووزعت على كل واحدة منا سبع أوراق. لعبنا دورين بطيئين، ومع ذلك لم تأت سيلفي. فقلت: «سأنادي عليها». وما أن فتحت الباب حتى انطفأت الشمعة، فوقفت أعلى السلم ورحت أصرخ «سيلفي! سيلفي! سيلفي!». وظننت أنني سمعت حركة ما، بعض الاضطراب في الماء. هبطت السلم ثانية، إلى المطبخ. حركت الطوب أعلى الموقد وفتحت الغطاء، محررة الضوء، لكنني وجدت الغرفة فارغة. خرجت إلى الردهة، ورحت أمشي باسطة ذراعي أمامي. لم أجد أحداً. «سيلفي!»، صرخت، لكن لم يكن صوت. عدت إلى المطبخ ثم إلى الشرفة، وهناك تعثرت ببعض الحطب على الأرض ووقعت على ركبتيّ. وكان عليّ أن أخلع زوجي جزمتي وأن أفرغهما من الماء الذي تسرّب إليهما. لم يكن أحد هناك أيضاً. ولا في حجرة المؤونة. لم يبق سوى غرفة جدتي إذن، التي كنت أفزع من الدخول إليها لأن الدرجات الموصلة إليها كانت

أكثر انخفاضاً من المطبخ.

ناديت: «سيلفي! لم لا تعودين إلى فوق؟».

صمت.

«سأصعد».

«لم ليس الآن؟ الجو بارد هنا».

لم تجبني. بدأت بنزول الدرجات. وبعد الدرجة الثانية غاصت جزمتي بالماء ثانية وكان عليّ خلعها. سرت مادة ذراعيّ، باتجاه الصوت، وأخيراً حففت بطيات معطفها الكتان. كانت تقف مستندة إلى النافذة، وبالكاد رأيت ظلها. وشعرت بالزجاج البارد. «سيلفي؟». وقفت جامدة كتمثال. مددت يدي إلى جيب معطفها وأخرجت منه يداً باردة، رحت أفتحها وأغلقها وأفركها بيديّ، لكن سيلفي لم تتحرّك أو تتكلم. رفعت يدي ولمست وجنتها وأنفها. فنبض عرق في جفن عينها، لكنها لم تتحرّك. ثم سحبت ذراعي وربّت في الوسط فحطت يدي بين طيات معطفها بصوت مكتوم.

ضحكت.

«لماذا فعلت ذلك؟».

«حسناً، لمَ لا تتكلمين إذن؟».

رحت أجرّها بمعطفها في اتجاه الباب. وظللت أجرّها رغم أنها تبعتني دونما مقاومة، متوقفة لحظة لكي تحمل كيس الطوب من النضد في أثناء مرورنا. جررتها كل الطريق على السلم وعبر باب غرفة النوم. كانت لوسيل تقف منحنية فوق الشمعة مكورة يديها حول اللهب،

وعلى الرغم من ذلك انطفأت.

قالت: «كان ذلك عود الثقاب لأخير».

قلت: «إنه دورك للنزول إلى الأسفل، أحضري جمرة نشعل بها الشمعة». خرجت لوسيل وتريّثت طويلاً على السلّم.

فقالت سيلفي: «سأنزل أنا يا لوسيل».

هرعت لوسيل على السلم. وسمعنا صوت خطواتها في الردهة ثم المطبخ، ثم حركتها حول الموقد. عاودت صعود السلّم حاملة جمرة في طبق. وضعت فتيل عليها ونفخت، فأضيئت الغرفة ثانية. مشت سيلفي إلى نضد الزينة. وجرى توزيع الورق لدور ثالث.

قالت: «بدأتما دوني. وضعتا الطوب على الأرض لكي ندفئ أقدامنا وتدثّرنا باللحف ولعبنا «جين رامي»»[1].

طرأ في خلال تلك الأيام تحوّل غريب على «فينغربون». ولو عُرض على أحدهم صينية فضية طرحت عليها فلذات غريبة وقيل له: «هذه شظية من الصليب الحقيقي، وهذا ظفر من باراباس[2]، وتلك نسالة من تحت السرير الذي رأت عليه زوجة بيلاطس منامها»[3]، فإن الاعتيادية التي قد تبدو عليها مثل هذه الأشياء تؤكّد هويتها المفترضة. كل روح

(1) Gin Rummy: ضرب من لعب الورق.

(2) Barabbas: «وكان باراباس لصاً أو قاطع طريق» بحسب إنجيل يوحنا، هو الشخص الذي خيّر بيلاطس الجمهور في عيد الفصح أن يطلق سراحه أو سراح يسوع الناصري، فاختار الجمهور باراباس، وكانت العادة تقضي أن يطلق الحاكم في الأعياد سجيناً معيناً وفقاً لرغبة الشعب.

(3) بحسب إنجيل متى أرسلت زوجة بيلاطس رسالة للأخير الذي كان ينظر في أمر الحكم على يسوع الناصري تقول له فيها: «إياك وذاك البار فإني تألمت كثيراً في حلم من أجله».

تعبر العالم تلامس الماديّ وتشوّه المتحول، لكنها تكون قد جاءت لتنظر لا لتشترى. هكذا يجري انتعال الأحذية، وهكذا تجري إراحة الأقدام على المساند، وأخيراً يترك كل شيء في موضعه، وتمرّ الأرواح، تماماً كما ترفع الريح الوريقات عن الأرض الغيضة، وكأنه ليس من متعة لها في هذا العالم سوى تلك الوريقات البنية، كأنها ستكسو نفسها وتتزين وتتزخرف في وريقات التفاح البنية المغبرة، ثم ترميها كلها في كومة بجانب البيت وتمضي في طريقها. هكذا بدت «فينغربون» أو بعض تمائمها الشبيهة بذلك في انعكاساتها على سطح الماء، فلذات من اليومي وقد تسامت إلى فضولنا الذاهل، وقد قدمت كدليل على أهميتها الخاصة. ثم فجأة انفتحت البحيرة والنهر وابتلعا المياه المتراكمة على الأرض، لتترك «فينغربون» عارية يغلّفها السواد وقد اغتسلت بالوحول.

كان إعادة ترميم البلدة عملاً جماعياً يحتذى به لكننا لم نشارك به. كانت جدتي معزولة لأنها لم تكن تكترث لأمر من يصغرنها سناً. وكنا نحن والفتى الذي يأتي بالصحيفة الوحيدين تحت الستين الذين كانت تبدي لطفاً دائماً تجاههم. أما ليلي ونونا فقد احتكتا قليلاً بالمجتمع المحلي، وزعمت سيلفي أنها لم تعرف أحداً في «فينغربون». من وقت لآخر كانت تقول إن شخصاً ما رأته في الشارع يشبه هذا الشخص أو ذاك ممن عرفتهم يوماً، وإن له الطول نفسه والعمر عينه، لكنها كانت تكتفي بتأمل الشبه. ثم، أيضاً، ولأي سبب من الأسباب، كانت عائلتنا كلها متحفّظة، وهذا الوصف الأكثر إنصافاً لأفضل صفاتنا، والأكثر

لطفاً لتعيين أسوأ عيوبنا؛ أننا كنا مكتفين ذاتياً، ولطالما ذكرنا بيتنا بذلك. إذا كانت نوافذه عشوائية، وزواياه غير صحيحة، فإن جدي قد بناه بنفسه، من دون أيّ خبرة بالنجارة. وكان حكيماً كفاية إذ بناه على تلة، بحيث أنه بينما يسارع الآخرون إلى إخراج الفرش المبللة من نوافذ الطابق الثاني، فإننا كنا ببساطة نلف حصيرة غرفة المعيشة ونلقيها على درجات الشرفة (كانت الكنبة والكراسي ثقيلة، فكنا نحشو تحتها الأسمال ونتركها تقطر لأسبوع أو نحوه حتى تجف)، وقد أكّد لنا كبار السن في عائلتنا أن الذكاء كان من ميزاتنا العائلية. جميع أنسبائي وأسلافي كانوا من لامعي الذكاء، على الرغم من أن أحداً منهم لم يصب النجاح في هذا العالم. كانوا مولعين بالكتب أكثر من اللزوم، كانت جدتي تقول بفخر شديد. وكنت ولوسيل نواظب على القراءة تجنباً للانتقاد، متوقعتين الفشل. وإذا لم تكن عائلتي ذكية حقاً مثلما كنا نزعم بسرور، فلم يكن هذا أكثر من وهم بريء، لأن المسألة كانت مسألة لا مبالاتنا بجميع الآخرين سواء أكنا أذكياء أم لا. وفقد فسر الناس دوماً سلوكنا المتحفظ وصمتنا كإشارة على أننا نرغب في البقاء على مسافة منهم. وكانت هذه مسألة لا مبالاة أيضاً، وقد حصلنا على أمنيتنا. وقد اكتفى الجيران أنفسهم الآن بأننا بقينا على قيد الحياة بعد الفيضان، وأننا قبلنا شاكرين بعض صفائح الذرة و«السكوتاش»[1]، وهم ينظرون بحسد مهذب إلى الراحة النسبية والنظام في بيتنا («أود

(1) Succotash: نوع من الطعام، يحتوي على الذرة والفول بالزبدة، وقد يضاف إليه اللحم أحياناً.

دعوتك للجلوس»، كانت تقول سيلفي، «لكن الكنبة مليئة بالمياه»)، ثم يعودون إلى منازلهم. وقد قصدنا أحد العجائز وطلب منا بعض شتلات الفيلودندرون[1] بما أن ما لديه منها قد غرق، وقصدتنا نسوة عديدات يسألن عن قططهن وكلابهن التي حسبوا أنها لاذت بمنزلنا في خلال الفيضان. وبعد انقضاء أسبوعين على جفاف المياه، بدأ الناس يظنون أن الطوفان لم يمسّ بيتنا قط.

(1) Philodendron: من نباتات الزينة الخضراء، تسمى أيضاً نبتة الحب.

5

بعد الانتهاء من جرف الطين من الطرقات عاودت المدرسة فتح أبوابها. كان ثمة في «فينغربون» مدرسة إعدادية تحتل مبنى شاهقاً من القرميد الأحمر. وقد سميت على اسم وليام هنري هاريسون[1]، وانتصبت على أرض غير مستوية، وأحيطت من ثلاثة جوانب بـ «سياج للأعاصير»[2] ربما وضع هناك لالتقاط الأوراق والأكياس وأغلفة الحلويات التي تحملها الريح. وكان المبنى مربعاً، متوازي الأضلاع، له نوافذ عالية يجري تنظيفها بعصي طويلة. هناك تعلمنا الضرب والقسمة، كاتبتين على دفاتر سميكة بأقلام رصاصية سوداء عريضة. وكانت لوسيل تصغرني بصف،

(1) William Henry Harrison (1773–1841) الرئيس التاسع للولايات المتحدة الأمريكية، توفي في اليوم الثاني والثلاثين من توليه الرئاسة.

(2) Hurricane Fence: سياج شبكي معدني، يعدّ أفضل من الأسيجة الخشبية في المناطق التي تقع فيها الأعاصير، حيث غالباً تقع تلك الخشبية بينما تصمد الشبكية المعدنية في مكانها.

فلم نكن نترافق إلا في قاعة المكتبة وخلال استراحة الغذاء (الغداء). ثم كنا نفترق كل إلى شأنه وتروح كل واحدة منا تلتفت إلى الوراء. ولأننا كنا صموتتين فقد ساد انطباع عنا بأننا عاقلتين، ولأن أداءنا المدرسي لم يكن جيداً أو سيئاً بصورة استثنائية، فقد كان الجميع يتركوننا وشأننا. وأحياناً كانت ساعات من الضجر تنتهي بإهانات صغيرة، كما حين يجري فحص نظافة أصابعنا. وذات مرة طلبت مني المعلمة أن أقف في مقعدي وأن أنشد «حين متّ سمعت طنين ذبابة»[1]. وقد تعلمت أن أتجاهل رهابي البارد العميق من المدرسة، التي كانت بالنسبة إليّ مصدر إزعاج يستحيل التخلص منه، مثل حكة في طرف مبتور. وقد فزت بجائزة الحضور في صفي في السنة التي سبقت وفاة جدتي، وما كنت لأفكّر بالتوقف عن الذهاب إلى المدرسة لو لم تفكّر لوسيل بذلك. لكنها ذات صباح اتُهمت باختلاس النظر إلى ورقة إحداهن خلال فحص التاريخ. وكان اليوم التالي يوم سبت، لكنها التزمت البيت خلال الأسبوع التالي متذرعة بسلسلة من العوارض الصحية التي لم تقلق سيلفي لأنها لم تتضمن ارتفاع الحرارة أو فقدان الشهية.

بعد غياب أكثر من ثلاثة أيام، طلبت المدرسة شهادة من طبيب. لكن لوسيل لم ترغب في زيارة طبيب، ولم تبد مريضة كفاية لكي تحتاج إلى ذلك، مثلما شرحت سيلفي في خطاب موجّه إلى المديرة.

قالت لوسيل: «انظري إلى هذا». كنا نسير معاً إلى المدرسة، ولوسيل

(1) I heard a fly buzz when I died عبارة شهيرة لإميلي ديكنسون من قصيدة بعنوان «موت».

تحمل رسالة سيلفي. كانت ورقة ورقة رسائل رسم عليها أزهار طويت مرتين، وكتبت عليها سيلفي بخط دائري متدفق «أرجو عذر غياب لوسيل. فقد عانت آلاماً في معصميها وكاحليها، وطنيناً في أذنيها وجفافاً في لسانها ووهناً، ومغصاً في المعدة، وتشوشاً في الإبصار، لكن لم يكن هناك ارتفاع في درجات الحرارة أو فقدان للشهية. لم أتصل بالطبيب لأنها كانت دائماً تبدو بصحة جيدة عند التاسعة والنصف أو العاشرة صباحاً».

قلت: «سيكون علينا أن نحثّها على كتابة رسالة أخرى».

«قولي إنَّك أضعت هذه». وكوّرت لوسيل الرسالة ورمتها خلف شجرة.

«ماذا إذا اتصلوا بها؟».

«هي لا تردّ أبداً على الهاتف».

«حسناً، قد يرسلون شخصاً ما لمقابلتها».

«لا أحسبهم سيفعلون ذلك».

«وماذا إن فعلوا».

كانت الفكرة مؤلمة. لم تعرف سيلفي شيئاً عن فحص التاريخ، ولن يعود من خيار أمامنا سوى أن نشرح لها ما جرى. كانت لوسيل أقل مبالاة بالمدرسة لكي تشعر بأي ذنب حيال مسألة الغش، وكان من سوء حظها فحسب أن تجيب بـ «سيمون بوليفار» وهو الجواب نفسه الذي قدّمته الفتاة الجالسة بجوارها، في حين كان الجواب الصحيح الجنرال سانتا آنا. كان هذا الخطأ الوحيد الذي ارتكبته إحداهما، فجاءت

ورقتاهما متشابهتين. وقد ذهلت لوسيل من أن المعلمة اعتبرتها ببديهية ويقين المذنبة، طالبة منها الوقوف أمام الجميع وشرح سبب التشابه بين الورقتين. وكم استاءت لوسيل من هذا الاعتداء على عزلتها. وصار مجرد تفكيرها بالمدرسة يجعل أذنيها تحمران. والآن، هناك احتمال باستدعاء سيلفي إلى المدرسة والخوض ثانية في المسألة برمتها، واتهام لوسيل مجدداً، هذه المرة ليس فقط بالغش بل أيضاً بالكذب والتهرّب من المدرسة.

قالت: «لن أذهب إلى المدرسة».

«ماذا ستقولين لسيلفي؟».

«ربما لن أعود إلى البيت».

«إلى أين ستذهبين؟».

«إلى البحيرة».

هزت لوسيل كتفيها.

قلت: «سأذهب معك».

«عندئذ سنقع كلانا في المتاعب».

بدا هذا الاحتمال مألوفاً ومريحاً بصورة غريبة. مشينا عائدتين باتجاه السكة الحديدية ومشينا بمحاذاة الخطّ حتى البحيرة، متوجّستين من أن يخرج لنا أحدهم من وراء زريبة الأرانب أو من وراء شجرة ما أو من خلف الملاءات المعلقة على حبل غسيل ويسألنا عما نفعله، لكنّ أحداً لم يفعل.

أمضينا الأسبوع كلّه عند البحيرة. حاولنا أولاً أن نقرر كيف سنعود

إلى المدرسة، لأن المشكلة لم تعد تتعلق بلوسيل وحدها. ووقعنا في حيرة من أمرنا في اختلاق الذرائع لكلينا، وبعد اليوم الثالث، حين، نظرياً، بات كلانا بحاجة إلى شهادة طبية، قررنا أنه ليس من خيار أمامنا سوى أن ننتظر حتى يُفتضح أمرنا. شعرنا بأننا تعرضنا للنفي بفظاظة من مكان لا رغبة لنا في التواجد فيه، وأننا لن نعود إليه بملء إرادتنا بل علينا الانتظار لكي نعود إليه مكرهتين مجبرتين. وبالطبع لم تعرف سيلفي شيئاً عن تهرّبنا هذا من المدرسة، وبات لزاماً علينا أن نواجهها بالحقيقة في وقت من الأوقات. وكان التفكير بكل هذا مخيفاً، وصارت تفاصيله تزداد سوءاً بمرور كلّ يوم، حتى صرنا نجد فيه لذة تنطوي على المغامرة وعلى القلق في آن معاً. وساعدت العناصر المشتركة للبرد والإحساس بالذنب والملل والوحدة والخوف على تقوية حواسنا بصورة رائعة.

باتت الأيام طويلة ومديدة بصورة غير طبيعية. شعرنا بأننا ضئيلتان في خضمّ الطبيعة، وبأننا خارج مكاننا. كنا نمشي عادة إلى شاطئ مسقوف بعض الشيء بسبب وجود رصيف ميناء في السابق، وكان ما زال هناك ستة أعمدة تقف عليها بصورة نموذجية خمسة نوارس. ومن وقت لآخر كان النورس الواقف على العامود الواقع إلى أقصى الشمال يحلق في الهواء مطلقاً أربع صيحات، فتنتقل بقية النوارس تجاه الشمال، ويتخذ كل واحد منها العامود التالي. ثم يعود النورس الطائر ويقف على العامود الجنوبي. وكان هذا الترتيب يتكرر مرات عدة، مع تغييرات خرقاء صغيرة تقع بالمصادفة. كنا نتخذ مكاننا على الشاطئ على مقربة من الرمل المبلل، ونقوم بتصنيف الحجارة (كان

في» فينغربون» أفضل ضفة رملية تمتدّ بعرض ثلاثة أو أربعة أقدام، وكانت ممتلئة بالحصى الصغيرة التي بنصف حجم حبة البازيلاء)، وكان بعضها أخضر طحلبياً، وبعضها أبيض كأنياب الحيوانات، وبعضها بلون البندق وبعضها أشبه بالحلوى الصخرية. وبعيداً في أعلى الشاطئ كان ثمة أجمات عشبية من العام الفائت، وشجيرات تهاوت وريقاتها، ونباتات مشبعة بالماء ونباتات سرخس مهشمة، وأعشاب سوداء بليدة تفوح منها رائحة المسك. وكانت البحيرة مليئة بالأمواج الصامتة، التي تفوح منها رائحة البرد والأسماك.

كان يوم خميس حين رأينا سيلفي عند البحيرة. لم ترنا هي. فقد كنا جالستين على جذع شجرة نزجي الوقت بالكلام في شتى الأمور، في حين تنقضي ساعة أخرى من البرد، حين رأيناها واقفة على مقربة من المياه، وقد وضعت يديها في جيبي معطفها.

قالت لوسيل: «إنها تبحث عنا». لكنها لم تكن تنظر إلا باتجاه البحيرة أو نحو السماء إذا ما زعق أحد النوارس، أو تطرق رأسها باتجاه الرمل والمياه أسفل قدميها. أقعينا بصمت تام. وعلى الرغم من ذلك كان يجب أن ترانا، فمع أننا غدونا معتادتين بحلول ذلك الوقت على شرود فكرها، لكن كوننا انتظرنا طوال هذه الأيام مجيء أحد بحثاً عنا، فقد شعرنا بالاستياء من غفلتها هذه. وقفت طويلاً تتأمل البحيرة، داسة يديها عميقاً في جيبي معطفها الفضفاض، وقد أمالت رأسها جانباً، وأبقته مرفوعاً، كأنها لا تشعر بالبرد على الإطلاق. سمعنا صفير قطار يأتي عبر البحيرة، ثم رأينا القطار يزحف خارجاً من الغابة باتجاه

الجسر، وقد مال عامود الدخان المنبعث منه باتجاه الريح. وبدا لنا من تلك المسافة صغيراً، لكننا رحنا ننظر إليه نحن الثلاثة مشدودات ربما إلى حركته الثابتة المضطردة والمنهجية وكانه يسروع يقف على سويقة نبات. بعد اجتياز القطار الجسر مطلقاً آخر صفراته الطويلة، وفي اللحظة التي يفترض به المرور خلف بيتنا، باشرت سيلفي العودة باتجاه الجسر، وتبعناها، ببطء شديد يتماشى مع بطء سيرها، متخذتين بعض المسافة منها. لوّحت محيية رجلين يرتديان سترتين مربعتي النقش، وسروالين أسودين مغبرين كانا مقعيين تحت الجسر، وكانا يقولان بنبرة محببة أشياء لم نتبين فحواها. صعدت سيلفي نحو سفح الطريق المؤدي إلى الجسر، ووقفت تنظر قليلاً إلى الجسر، قبل أن تبدأ بالسير عليه ببطء وحذر، متنقلة من رافدة خشبية إلى أخرى.

تابعت طريقها ببطء حتى صارت فوق المياه بنحو خمسين قدم ربما. وقفت ولوسيل نشاهد خالتنا، بيديها المضمومتين داخل جيبي معطفها، وهي تنقّل نظرها بين المياه والسماء. كانت الريح قوية بما فيه الكفاية بحيث ضغطت معطفها على كشحيها وساقيها ودفعت شعرها مرفرفاً. خرج المتشرد الأكبر سناً من تحت الجسر ونظر عالياً نحوها. فقال له الأصغر سناً: «هذا ليس من شأننا». ثم حملا قبعتيهما ومضيا باتجاه الشاطئ في الاتجاه المعاكس. وقفت سيلفي بسكون تاركة الريح ترفرف معطفها. وبدا بعد قليل أنها صارت أكثر ثقة باتزانها على الجسر. ألقت نظرة فوق الدرابزين إلى المياه المتلاطمة بقوة على إحدى دعائم الجسر. ثم حانت منها نظرة باتجاه شاطئ البحيرة فرأتنا ننظر نحوها.

فلوحت لنا. وقالت لوسيل «أوه». مشت سيلفي مسرعة باتجاهنا، وقد علت وجهها ابتسامة.

قالت لنا ونحن نقترب منها: «لم أكن أعرف أن الوقت تأخر إلى هذا الحدّ، ظننت أن دوام المدرسة لن ينتهي قبل ساعة أو نحوه».

قالت لوسيل: «لم ينته الدوام».

«حسناً، كنت مصيبة إذن. قطار الواحدة وخمسة وثلاثين دقيقة مرّ قبل فترة وجيزة. لابدّ من أن الوقت ما زال مبكراً».

مشينا مع سيلفي على امتداد السكة الحديدية نحو البيت. قالت: «لطالما تساءلت كيف سيكون الأمر».

سألتها لوسيل: «كيف كان؟». جاء صوتها خفيضاً ورفيعاً ومتوتراً.

هزت سيلفي كتفيها وضحكت.

«بارد عاصف».

قالت لوسيل: «فعلت هذا فقط كي ترين كيف هو؟».

«أظنّ ذلك».

«وماذا لو وقعت؟».

قالت سيلفي: «آه، لقد كنت شديدة الحذر».

قالت لوسيل: «لو وقعت، لظنّ الجميع أنك فعلت ذلك عمداً، حتى نحن».

فكرت سيلفي بالأمر لبرهة. ثم قالت: «أظنّ أنك محقّة». ثم حملقت بوجه لوسيل: «لم أقصد إزعاجكما».

قالت لوسيل: «أعرف».

«ظننتكما في المدرسة».

«لم نذهب إلى المدرسة هذا الأسبوع».

«لكن كما تريان أنا لم أعرف بذلك. لم تكن لديّ فكرة أنكما ستكونان هنا». جاء صوت سيلفي رقيقاً، ومسّدت شعر لوسيل.

شعرنا باستياء لا يوصف ولأسباب أكثر من أن تحصى. بدا لنا جلياً أن خالتي غير متوازنة نفسياً. ومع أننا حينذاك لم نضع هذه الفكرة في كلمات، لكنها كانت موجودة بيننا كنوع من الانتباه الكلي تجاه تفاصيل شكلها وسلوكها كافة.

وفي بداية الأمر اتخذ ذلك شكل استيقاظ مفاجئ في منتصف الليل، وإن كنا غير واثقتين من كيفية تفسير الأصوات التي أيقظتنا. أحياناً لم تكن هذه الأصوات توجد إلا في رأسينا، أو تنبعث ربما من الأيكة، أو نحسب أن سيلفي تغني فحسب، لأننا مرة أو اثنتين استيقظنا في منتصف الليل واثقتين من أننا سمعناها تغني، لكننا اختلفنا في صبيحة اليوم التالي على تحديد الأغنية. أحياناً كنا نحسب أننا نسمعها تغادر المنزل، ومرة حين نهضنا من السرير وجدناها تلعب «السوليتير» في المطبخ، ومرة وجدناها جالسة على درج الشرفة الخلفية، ومرة ثالثة وجدناها واقفة في الأيكة. وقد زاد النوم نفسه من تعقيد المسألة. فالصوت المخيف لانصفاق الباب هو مما يمكن أن تتسبّب به الريح عشرات المرات في الساعة، أما التيارات الهوائية الرطبة المتدفقة من البحيرة فمن شأنها جعل أي بيت يبدو فارغاً، وهي عادة ما تجرّ منامات

المرء وراءها، ودائماً ما يجد خوف المرء انعكاساً له في الخوف الذي يلازم الأشياء. على سبيل المثال حين نظرت سيلفي من الجسر لابدّ من أنها رأت نفسها في المياه في الأسفل. لكن وعلى الرغم من شدّة حرصنا على البقاء مستيقظتين لكي نتأكد ما إذا كانت تغني أو تبكي أو تهمّ بمغادرة البيت، فقد كنا نغفو ونحلم أنها فعلت ذلك.

ثم هنالك مسألة مشيها على جسر السكة الحديدية. ما المسافة التي كانت ستقطعها لو لم ترنا نراقبها؟ وماذا لو اشتدّت الريح فجأة؟ وماذا لو جاء قطار وهي واقفة هناك؟ كان الجميع سيقولون إنها أقدمت على الانتحار، وما كنا لنعرف عكس ذلك، وفي حقيقة الأمر، ما زلنا لا نعرف عكس ذلك. لأنه ما الذي أدرانا – إذا تخيلنا أنه، تحت عيوننا، أكملت سيلفي سيرها بعيداً جداً حتى بدت الجبال مرتفعة، حتى تلاشى شاطئ البحيرة، وارتفعت مياه البحيرة تحت قدميها مترقرقة متلاطمة، وبدأ الجسر يصرّ ويتمايل وانسحبت السماء بعيداً إلى طرف الأرض – أنها ما كانت لتخوض التجربة خطوة أبعد؟ ثم لنتخيّل سيلفي نفسها تخرج لاهثةً من أعماق البحيرة، معطفها يقطر ماء وكماها مخضّلان وشفتاها قاسيتان مثل الرخام وأناملها مبلولة وعيناها غارقتان بالمياه العميقة التي تترقرق في الأسفل بعيداً من متناول الضوء، فكان يمكن أن تقول أيضاً: «لطالما تساءلت كيف ستكون هذه التجربة».

أمضينا يوم الجمعة على الشاطئ نراقب الجسر. أما السبت والأحد فأمضيناهما في البيت مع سيلفي. جلست أرضاً ولعبت معنا المونوبولي وأخبرتنا قصصاً معقدة وحزينة عن أناس عرفتهم بصورة سطحية،

وصنعنا الفشار. بدت سيلفي متفاجئة ومسرورة على خجل بالاهتمام الذي نبديه تجاهها. وراحت تضحك من لوسيل لإخفائها فاتورة خمسمئة دولار تحت لوح اللعب، ولخلطها بطاقات «صندوق الإعانة» بشدة كسرت ظهورها. أما أنا فأمضيت معظم الوقت في السجن لكن سيلفي حقّقت ثروة، وكان حظها ممتازاً، فمنحت كل واحدة منا ثلاثة فنادق.

يوم الاثنين ذهبت ولوسيل إلى المدرسة. ولم يسألنا أحد شيئاً. من الواضح أنه تقرر أننا نعيش ظروفاً خاصة وكان هذا مصدر راحة لنا، وإن اوحى بأن سيلفي قد بدأت بلفت الأنظار إلى نفسها. أمضينا الوقت منتظرتين العودة إلى البيت، وحين عدنا وجدنا سيلفي هناك، في المطبخ، خالعة معطفها، تستمع إلى المذياع. وقد انقضت أيام وأسابيع على هذه الشاكلة، حتى بدأنا أخيراً نفكّر في أمور أخرى.

أتذكر سيلفي وهي تمشي في أرجاء البيت رابطة شعرها بمنديل، حاملة المكنسة. لكن كان هذا الوقت الذي بدأت تحتشد فيه أوراق الشجر في الزوايا. كانت من بقايا الشتاء، وقد بلي بعضها حتى صار مجرّد شبكة من العروق، وقد امتزجت بها قصاصات من الورق، غلب عليها التقصف والهشاشة من امتزاجها في سوائل التحلّل والانبعاث البنية الباردة، وعلى تلك القصاصات كان ثمة كلمات أحياناً. أحدها كان «لقاء القوى»، وأخرى لسان مغلّف رسالة، كتب عليها بقلم الرصاص بيد مجهولة: «أفكر بك». وربما كانت سيلفي حريصة في

أثناء كنسها على ألا تفسدها. ربما شعرت بجمال «دلفي»[1] في انتشار تلك الأوراق والقصاصات، هنا وليس في أيّ مكان آخر، على هذا النحو وليس على أيّ نحو آخر. ولابدّ من أنها كانت واعية لحضور هذه الأوراق لأنه كلما كان يُفتح أيّ من أبواب البيت كنا نسمع حفيف ارتفاع الأوراق وهبوطها في الزوايا. وقد لاحظت أنها ترتفع بفعل شيء يسبق الريح، حركة غير محسوسة للهواء قبل ثوان من سماع صوت الريح في الأشجار. هكذا أصبح بيتنا متناغماً على نحو باهر مع حركة الأيكة وتفاصيل الطقس، حتى منذ أولى أيام اضطلاع سيلفي بمسؤولية التدبير المنزلي. هكذا بدأت بالأشياء الصغيرة وربما غير الواعية بتحضير البيت للدبابير والخفافيش والخطاطيف[2]. وكانت تتكلم كثيراً عن التدبير المنزلي. وقد نقعت جميع فوط الشاي بضعة أسابيع في الماء والمواد المبيضة. وأفرغت خزائن عدة وتركتها مفتوحة تتهوى، وذات مرة غسلت نصف سقف المطبخ وباباً. وكانت تؤمن بالمنقّيات القوية، ولاسيما الهواء، الذي كانت تبقي تبقي الأبواب مفتوحة والنوافذ مشرّعة، بهدف الحصول عليه، وإن كان السبب الحقيقي وراء ذلك هو نسيانها إقفالها. وكان من أجل الهواء أنها ذات صبيحة يوم رائع كابدت لإخراج كنبة جدتي الأرجوانية إلى الباحة، حيث بقيت هناك حتى صارت مائلة إلى الزهري.

كانت سيلفي تحب أن تأكل في الظلمة. ولهذا السبب كنا نادراً ما

(1) نسبة إلى معبد دلفي عند اليونان الذي كانت تستطلع فيه النبوءات.

(2) Barn Swallow: الخطاف، نوع من السنونو، يعدّ النوع الأكثر انتشاراً من هذه الطيور.

نأوي إلى النوم في الصيف قبل العاشرة أو الحادية عشرة، وهي حرية لم نعتدها قط. فأمضينا أياماً جاثيتين على ركبنا في الحديقة، حافرتين الكهوف والممرات السرية بملاعق المطبخ لدميتينا، دميتي عارية صلعاء الرأس ودمية لوسيل «روز رد»[1] بائسة عديمة العينين. بعد فترة طويلة من معرفتنا أننا كبرنا على الدمى، صرنا نلعب ألعاباً مسرحية تحتوي على عمليات مطاردة وفرار أسطورية. وكانت تأتي الأمسيات باردة بسبب الظلال الطويلة التي كان الجبل يلقيها على الأرض وفوق البحيرة. فكانت الريح تمتصّ الدفء من الهواء قبل أن يغيب الضوء، رافعة الشعر في أذرعنا ورقبتينا برائحتها الجليدية ورائحة المياه والظل العميق.

عندئذ نأخذ دميتينا إلى الداخل ونلعب على الأرض في دائرة مكونة من الكراسي والكنبات، في الضوء الفضي المتكسّر للسماء المهجورة، في حين تبدأ العتمة بالتسلل إلى الغرفة، غامرة الأزرق الشاحب عن أكمام المقاعد المبللة. وفقط حين تغرق النوافذ في الزرقة تنادينا سيلفي إلى المطبخ، حيث نجلس متقابلتين على طرف المائدة. وقبالة سيلفي نافذة مضاءة باردة كزجاج حوض الأسماك ومترقرقة كالمياه. كنا ننظر إلى النافذة بينما نأكل، مصغيتين إلى صرير جداجد الليل وطيور السّبد، التي كانت صاخبة بصورة غير طبيعية وقتذاك، ربما لأنها كانت ضمن الحدود التي يرسمها الضوء حولنا، أو ربما لأن بعض الحواس، كالسمع، تكتسب قوة إضافية حين تتعطّل حواس أخرى ونحن فقدنا بصرنا.

(1) Rose Red: أخت بياض الثلج في حكاية الأخوين غريم المعروفة.

كانت تنتشر على المائدة مخللات البطيخ[1] واللحوم المعلبة، وفطائر التفاح وكعكة الجيلي المحلاة والبطاطا المقلية، وقطعة من الجبنة المقطعة، وزجاجة حليب، وزجاجة كاتشاب، وكدسة من خبز الزبيب. كانت سيلفي تحب الأطعمة الباردة، كالسردين بالزيت، وفطائر الفاكهة الصغيرة الملفوفة بالورق. كانت تأكل بيديها وتكلمنا برقة عن أصدقاء عرفتهم، بينما نؤرجح أرجلنا ونتناول الخبز بالزبدة.

حكت لنا عن امرأة عجوز تدعى إديث وافتها المنية عندما كانت تقطع الجبال في عربة قطار شحن في ديسمبر. كانت ترتدي، بجانب جزمتها وسترة الصيد، فستانين وسبعة من قمصان الفلانيل، ليس اتقاء للبرد بل حتى تظهر مكانتها وحضورها الجسدي. وقد مضت ممدّدة بوقار وهيبة في عربة القطار مثلما تمدد لينكون[2] في القطار الذي نقل جثته بعد مقتله من بوتي إلى ويناتشي[3]، حيث دفنت على حساب الحكومة. كان شتاء قاسياً، قالت سيلفي، بارداً جداً، بحيث كان الثلج بخفة القش. وكان من شأن أي هبوب ريح أن يعري الهضاب من الثلج وينثره في الهواء هباء كالدخان. في ظلّ طقس قاس كهذا أصبحت العجوز أليفة مطواعة. وقد تسلّلت إلى باحة محطة الشاحنات ذات فجر معتم دون أن تترك كلمة سوى خاتم من اللؤلؤ لم ترَ من قبل دونه. وكانت اللؤلؤة بنية كسن حصان وصغيرة جداً. وقد احتفظت سيلفي بالخاتم في علبة صغيرة مع دبابيس الشعر.

(1) Watermillon Pickles: مخللات تصنع من قشور البطيخ والماء والملح والسكر والقرفة.

(2) الرئيس الأمريكي المعروف بصرامة ملامحه.

(3) Butte: مدينة في مونتانا، أما Wenatchee فمدينة في ولاية واشنطن.

عثرت إديث على عربة شحن واستقرّت فيها بينما انشغل عاملو القطار بجمع الأعضاء المعدنية الباردة ودفعها. في طقس كهذا يدوس المرء على الأحافير. فضحالة الثلج لا تكفي لإخفاء الأضلاع والحفر والجيوب الأرضية، وقد ثبتت في طرفها الأخير. لكن في الجبال تكون التربة مدفونة تماماً، مع كل تمائمها، قبل تشكّلها من جديد في أتربة وركام. في «بوتي» اضطجعت العجوز على ظهرها وشبكت أصابعها وحامت أنفاسها فوقها. وحين وصلت إلى ويناتشي، كان الشبح قد رحل، وطردت الأرواح.

قالت سيلفي إنها تعوّدت وإديث قطاف ثمر الفراولة البريّة، معاً، وإنهما عملتا معاً ذات مرة في معمل للمعلبات. وفي ذلك الشتاء كانت صديقة مشتركة لهما تقيم مؤقتاً في بيت إحدى نسيباتها في «بوتي». فجلست العجوز أمام الموقد تمص إبهامها (في الصيف يكون هناك لطخات حلوى لا تزول عن الأيدي)، وتكلمت بإسهاب على أيام أخرى.

قالت سيلفي: «لا يعرف المرء متى يرى شخصاً للمرة الأخيرة». حين كانت تتذكّر أننا موجودتان وأننا صغيرتان، كانت تحاول أحياناً استخلاص عبرة مفيدة من القصة.

كان مع امرأة ما تدعى ألما أن جلست سيلفي ذات صباح فوق كدسة من ألواح الصنوبر في مخزن للأخشاب على مشارف أوروفينو[1]، منتظرتين شروق الشمس، مصيختين السمع إلى كل الأصوات المجفلة،

(1) Orofino: مدينة في آيداهو.

من زعيق الطيور، التي تطير فجأة من مجاثمها بين الأشجار، إلى نباح الكلاب. إنها الريح، قالت لها ألما. الريح زنخة الرائحة كصياد والتي لا تكون ذاتها مرتين. في الليل تتقهقر الريح إلى الجبال، حيث تجوس الكائنات وتتناسل، وقبيل الفجر تهبط ثانية، مضمّخة برائحة الدماء. أكدت لنا سيلفي «وهذا ما يخيف الطيور»، لأنها لم تر مرة الشمس تشرق إلا والطيور تنهض قبلاً وتزعق مجفلة.

على بعد مئة ياردة من السكة الحديد كان ثمة محطة شاحنات. وكانت نوافذها مضاءة، وسمعنا أغنية «إيرين»[1]. وعلى الطريق كانت المصحة الحكومية[2] الواقعة وسط أرض مراحة، معزولة وسط الحقول، حيث كان لسيلفي وإلما صديقة مشتركة هناك شعرت كلاهما في تلك اللحظة بالرغبة في زيارتها، بيد أنها غالباً ما كانت تغطي وجهها بشعرها الطويل وتأخذ بالنشيج غاضبة. لكن حين تشرق الشمس، بعد أن لا يعود الدغل أسود أو السماء باردة وعالية وزهرية، تكون رائعة القيلولة هناك عندما تتنفّس الألواح الخشبية عبقها الخاص. وقد عثرت عليهما قطة واضطجعت في حضن سيلفي لبعض الوقت. وجلبت ألما «الهوت دوغز» من الكافيتريا. وراحتا تغنيان «أيرين» مراراً وتكراراً، كأنما لنفسهما. كانت سيلفي تقول دائماً: «حين يكون المرء مرتحلاً، فإن الآحاد هي أفضل الأيام».

---

(1) Goodnight Irene أغنية أمريكية مشهورة غناها الموسيقي الأمريكي الأسود Huddie William Ledbetter في 1932 واشتهرت الأغنية في خمسينيات القرن الماضي.

(2) State Institution: من الواضح بحسب الوصف اللاحق أنها مصحة لمعالجة الأمراض النفسية أو احتجاز المرضى النفسيين.

انتقلت سيلفي إلى الأسفل، إلى حجرة جدتي. كانت تلك الغرفة بجوار المطبخ، على مستوى ثلاث درجات تحت بقية الأرضية في ذلك الجزء من البيت. وكان فيها باب زجاجي مزدوج ينفتح على تعريشة العنب، وقد بنيت هذه الغرفة كأنها كوخ منحدر ممتد من البيت، وكانت تؤدي إلى الغيضة. لم تكن الغرفة مضاءة، لكنها كانت تمتلئ صيفاً برائحة العشب والتربة وبراعم الأزهار، وأزيز النحل. وكان أثاثها بسيطاً، يتضمن خزانة وضعت عند الباب المزدوج وصندوقاً وضع تحت النافذة، وكلاهما صنعهما جدي، كما يمكن الاستنتاج من حقيقة أن القوائم الأمامية للخزانة وقوائم الجانب الأيسر من الصندوق كانت أطول على نحو ما من الخلف أو من الطرف الأيمن، وذلك لتتناسب مع الأرضية المنحدرة.

وقد أسندت اثنتان من قوائم السرير على ألواح شبيهة بالأوتاد. وطليت قطع الأثاث الثلاث بالأبيض الكريمي وكان يمكن ألا يلاحظهما المرء قط لولا أن جدي قام بزخرفتها ذات مرة، راسماً على أبواب الخزانة ما يبدو أنه كان مشهد صيد، خيالة على سفح جبل يلبسون العمائم، وعلى رأس السرير طاووساً، ذا جسد أشبه بالدجاجة وذيل زمردي اللون. وعلى نضد الزينة نحت إكليلاً من الزهر، تحمله يدا ملاكين يسبحان في الأثير، وجارين ثوبيهما خلفهما. وبدت واضحة المشقة التي تطلبها إنجاز هذه التصاميم وطلاؤها، ولكن كانت السنوات كفيلة بامتصاص الطلاء الأبيض لها. ولطالما ذكرتني تلك الرسوم بالتصاوير التي نجدها في الأمكنة التي لا نتوقع وجودها فيها، في الرخام، في شبكة

العروق الزرقاء على معصمي، في أسطح المحار اللؤلؤية.

وقد وضعت جدتي، في داخل أحد أدراج الصندوق، حفنة من الأشياء التذكارية: كرات الخيوط، شموع عيد الميلاد، وجوارب غريبة الشكل. أنا ولوسيل كنا نأبى البحث في هذا الدرج. كانت محتوياته عشوائية جداً وشديدة الترتيب في آن، بحيث أننا شعرنا بأن دلالة كبيرة قد تكون وراء هذه المجموعة ككلّ، لاحظنا مثلاً أن جميع الجوارب بدت جديدة. كان هناك كأس زجاجي صغير وضع في داخله زران من النحاس، وبدا هذا مناسباً. وكان هناك تمثال باهت من الشمع يمثل ملاكاً تفوح منه رائحة الآس الشمعيّ، ووسادة دبابيس سوداء مخملية على شكل قلب، في علبة مجوهرات كتب عليها اسم صانع مجوهرات من سان فرانسيسكو. وكان هناك علبة أحذية مليئة بالصور الفوتوغرافية القديمة، كل منها ألصقت على ظهرها رقعة كرتونية سوداء، وكان جلياً أنها انتزعت من ألبوم صور، لأنها كانت تحمل أهمية خاصة أو لأنها بلا أهمية على الإطلاق. ولم يكن في أي منها شخصاً أو مكاناً نعرفه. كانت كناية عن مجموعة رجال محترمين يرتدون ملابس رسمية ويقفون أمام تعريشة من الزهور.

في هذا الصندوق وجدت الصفحة الثانية من كتيّب، بدا لي ذا أهمية عظيمة. كانت الصفحة صقيلة وثقيلة، مثل صفحة من مجلة ناشيونال جيوغرافيك، وكانت مطوية في ثلاث طيات كرسالة. وفي أعلى الصفحة طبع «عشرات الملايين في إقليم هونان وحده»، يليها سلسلة من الصور الفوتوغرافية التي تظهر إحداها فتى حافي القدمين ينظر إلى

الكاميرا وقد أعشت الشمس عينيه. وصورة أخرى تظهر عجوزاً حافي القدمين، مقعياً إلى جدار، وقد اختفى وجهه وراء قبعة كبيرة. وفي صورة ثالثة نرى امرأة تُشرب طفلاً من كوب. وفي رابعة ثلاث نسوة عجائز يقفن في الصف، مغطيات عيونهن بأيديهن. وتمثّل الخامسة فتاة مغمضة العينين وخنزيراً ضامراً. ولم يكن الخنزير ينظر باتجاه الكاميرا. وكتب أسفل الصفحة بخط عريض، «سأجعل منكم صيادي الناس»[1] وهذه الوثيقة كانت تفسيراً كافياً بالنسبة إليّ لرحيل خالتي مولي. حتى الآن أتخيلها أحياناً وهي تميل من الحافة المنخفضة لقارب صغير، رامية شبكتها في خضم الهواء العالي العاصف المزبد، فتكتسح العالم المتقلب بسرعة شديدة كريح في العشب، وحين تبدأ بسحب الشبكة، التي تضمّ شرذمة من الرجال المحترمين والخنازير الهزيلة والنسوة العجائز والجوارب الغريبة التي من شأنها أن تذهل هذا العالم السفلي، تجمع الشبكة، بسهولة شديدة، حتى يتجمع الثقل كله في كومة تحت حافة المركب تماماً. جرة واحدة قوية ويصبح رفعها للشبكة سهلاً إلى القارب، لاهثة مذهولة، تلمع أقواس قوس قزح في نور استثنائي.

شبكة كهذه، حصاد كهذا، من شأنه أن يقضي على أشكال الشذوذ كافة، وإذا كان قد مسح سقف السماء، فيجب أن يمسح، أخيراً، أرض «فينغربون» السوداء. من هناك، علينا أن نتخيّل، ينهض جيش جرّار من قديم الزمان، من العصر الحجري، من مرتادي البحيرة؛ من قاطفي التوت

(1) هذا مقتبس مباشرة من إنجيل متى [الإصحاح الرابع/19] «واذ كان يسوع ماشياً عند بحر الجليل أبصر أخوين سمعان الذي يقال له بطرس واندراوس أخاه يلقيان شبكة في البحر فانهما كانا صيادين. فقال لهما هلم ورائي فاجعلكما صيادي الناس».

البري والصيادين والأطفال الضالين في تلك الدهور وجميع الدهور التالية، وصولاً إلى الحاضر الأقرب، إلى السيدة الشافية عن طريق الايمان بردائها الأبيض الطويل التي جذفت في البحيرة نحو ربع ميل وحاولت العودة سيراً على الأقدام عند الغروب، إلى المزارع الذي راهن بخمسة دولارات ذات ربيع أن الجليد ما زال قوياً كفاية لكي يجري به على فرسه. أضف إليهما السبّاحين ومجذفي القوارب والزوارق، وفي زحمة كهذه بالكاد تبدو أمي مميزة. علينا أن نتخيل استعادة شاملة لجميع ما سقط من أزرار وما ضاع من نظارات الجيرة والأقارب، حتى يبطل الزمن والخطأ والحادثة، ويصبح العالم مفهوماً وكاملاً. أخبرتنا سيلفي إن مولي ذهبت في حقيقة الأمر لتعمل في مكتبة في مستشفى تابع لأحد الإرساليات. وربما فقط من جراء مشاهدتي النوارس وهي تحلق كالشرر بين الغيوم التي ترسل إلى الأرض أمطاراً بحجم البحيرة، أنني تخيلت أن مشروعاً كهذا قد ينجح، أو ربما من جراء مشاهدتي البعوض يطير من العشب، أو وريقة شجر مطروحة تترقرق بالضوء جارية مع الريح.

بدا الصعود في أوقات كهذه قانوناً طبيعياً. إذا أضاف إليه المرء قانون الاكتمال – أن كل شيء ينبغي أخيراً أن يصير كاملاً – فعندئذ يغدو خلاص عام من النوع الذي تخيلت أن خالتي اضطلعت به حتمياً. إذ لماذا تعود بنا الأفكار دوماً إلى إيماءة يد ما، أو إلى سقوط كُم، أو إلى زاوية حجرة في ظهيرة معينة مجهولة، حتى ونحن نيامى، وحتى ونحن طاعنين في السن، بحيث تهجر أفكارنا ما عدا ذلك من شؤون. ما الغرض من كل هذه الجزيئيات، ما لم يكن وصلها أخيراً معاً؟

كنت راضية بالعيش مع سيلفي، ففوجئت حين أدركت أن لوسيل بدأت تنظر إلى الآخرين بتلك النظرة الأفقية الهادئة لشخص أزمع على أمر ما وبدأ يراقب، من قارب يغرق ببطء، شاطئاً ليس ببعيد كثيراً. فقامت بإزالة كل الترترة من خفي الباليه المخمليين الأزرقين اللذين اشترت سيلفي زوجاً منهما لكل منا لنذهب بهما إلى المدرسة في الربيع التالي الذي أعقب وصولها. ومع أن الطين على الطريق كان مرتفعاً إنشات عن الأرض ويومض مثل الهلام من الجانبين اللذين شقهما عبور العجلات في الدرب المحفرة، فقد أحببت كثيراً لبس هذين الخفين. وكان لطيفاً ملمس المياه المتسربة منها إلى اقدامنا في الأيام الربيعية، عندما حتى في الشمس تكون مجرد نسمة صغيرة كافية لإيقاف الشعر على أذرعنا.

لو نخز أحدهم الأرض بقضيب في تلك الأيام لوجد قطع جليد ضائعة، رفيعة مثل الإبر ونقية مثل مياه الينابيع. وقد حملتنا تلك الأخفاف الرقيقة طويلاً كفاية ما دمنا نتجنب الطرقات المحفرة والبرك حتى ينتهي الشتاء تماماً. لكن مثل هذه الارتجالات الرقيقة يكون مصيرها الفشل غالباً. فسرعان ما صرنا نعرج ونحن نمشي، ففي ذلك الوقت كانت قد ذابت نعال أحذيتنا. لم تكن سيلفي تبتاع أشياء جيدة النوعية، لا بسبب بخلها (مع أن المال الذي تحصل عليه كان يخصنا، فقد كانت تنفقه بحذر بل بشح)، لكن لأن متجر «فايف أند دايم»[1]

(1) نوع من المتاجر كان شائعا في أمريكا تباع فيه الأشياء بخمسة سنتات أو عشرة. نيكل = خمسة سنتات ودايم = عشرة سنتات.

كان يناسب ذوقها بوصفه فاخراً. كانت لوسيل تصر تصر أسنانها غضباً حين تذهب سيلفي للتبضّع.

وكان هذا شعوري أنا أيضاً لأنني وجدت – مع التبدل الذي بدأ يطرأ على لوسيل – أنه من مصلحتي أن أتفق معها في موقفها من سيلفي. كانت لوسيل ميالة إلى الموقف العام، وكانت تنظر إلى الزمن الذي لم يأت بعد – شذوذ في حد ذاته– بوصفه واقعاً شديد الحضور. كان بمثابة ريح قاسية تلفح وجهها؛ ولو أنها خلقت العالم، لكانت تلك الريح الثابتة أحنت كلّ شجرة فيه وجردت كل غصن، وعرت كل فرع. كانت ترى في في كل شيء احتمالاً لتغيير بغيض. كانت ترغب في ارتداء القفازات الصوف، وحذاء أوكسفورد البني، والجزمة الجلدية الحمراء. أما الكشاكش فتذبل، والترترة تزول، والساتان يستحيل تنظيفه. ولم يكن شيء من الأشياء الجميلة التي كانت سيلفي تجلبها لنا ضمن موسمه. كانت سيلفي بدورها تقيم في حضور طويل الأمد. بالنسبة إليها كان بلاء الأشياء مفاجأة جيدة دوماً، خيبة أمل لا ينبغي إطالة المكوث عندها. على أيّ حال استعمال يوم أو أسبوع من شأنه أن يشوه الأقواس الأرجوانية والأحزمة البلاستيكية، والمرذاذات وعدة التذهيب، والقفازات النايلون والخلاخل المشذبة بالصوف. كانت سيلفي دائماً تأتي لنا بالكنوز.

6

كان الصيف التالي صيفاً حقيقياً. كنت قد بدأت أحسّ في الربيع بانتماء لوسيل أكثر فأكثر إلى العالم الآخر، وبحلول الخريف بدأت حملتها المكثفة الشغوفة للتأقلم معه. وكانت الأشهر التي تلت ذلك أول صيف حقيقي، وربما آخر صيف حقيقي، في حياتي.

كان طويلاً جداً. لم أعد ولوسيل نذهب إلى المدرسة بنهاية مارس (آذار)، ما أن تحسّن الطقس كفاية لجعل التهرب منها ممكناً. ولكن من باب اللياقة تجاه سيلفي كنا نرتدي ثيابنا المدرسية صباح كل يوم ونقطع شارعاً باتجاه المدرسة، ثم ننعطف باتجاه السكة الحديدية، التي تقود إلى البحيرة والجسر. كان ثمة متشردون يتخذون من أسفل الجسر مقاماً دائماً لهم. وكانت جدتنا، لكي تزرع فينا الحذر، قد أخبرتنا أنه إذا اقترب طفل كثيراً من القطار قد يتعرض لهبوب البخار المفاجئ، وأن المتشردين يخطفون الأطفال عبر إخفائهم تحت معاطفهم. فكنا ببساطة

ننظر إلى المتشردين الذين نادراً ما كانوا ينظرون إلينا.

نحن بفستانينا مربعة النقوش، وسترتينا النايلون وزوجي أحذيتنا المخملين، وهم في ستراتهم التي رفعوا ياقاتها الأثرية عالياً وأطبقوها على صدورهم، كنا أشبه بناجين من مركبة قارب نزهة ضائعة ما. كنا أشبه بالناجين الوحيدين من ارتطام قطار سريع، أو من سقوط طائرة. أنا ولوسيل كان يمكن أن نكون اثنتين من أسر لا تحصى، ذاهبتين لزيارة جدتنا في «لابواي»[1]. وهم يمكن أن يكونوا مشرعين أو أعضاء في فرقة راقصة يقومون بجولة عبر البلاد. ثم أن وجودنا هناك في صبيحة يوم بارد في ملابس رثّة غير مناسبة، ننظر بصمت إلى المياه، يمكن أن يكون مفهوماً بالكامل، ففي حال سئلنا عن الأمر تراءى لي أن أخبرهم أن جدي ما زال ممدداً في قطار انزلق إلى قاع البحيرة قبل زمن طويل من ولادتنا.

ربما كنا جميعاً في انتظار يوم البعث. ربما كنا نترقب أن ينبثق قطار قافزاً من الماء، العربة الأخيرة أولاً، كفيلم يجري بالعكس، ثم يتابع طريقه على الجسر. وبعدها يصل المسافرون، أكثر عافية مما رحلوا، وقد اعتادوا على الأعماق، غير منزعجين من الضوء، يترجلون في المحطة في «فينغربون» بهدوء يدخل السكينة إلى قلوب الأصدقاء المشدوهين. فلنقل إن هذا الانبعاث شامل بما فيه الكفاية بحيث يتضمن جدي وهلين وأمي. ولنقل إن هلين رفعت شعرنا من قفا أعناقنا بيديها الباردتين وأعطتنا الفراولة من حقيبة يدها، وإن جدتي سوّت حواجبنا بشفتيها

(1) Lapwai: مدينة في ولاية آيداهو.

المبللتين، ثم مضوا جميعاً إلى بيتنا، جدي، وقد أصبح أصغر سناً وأكثر بهجة، يمضي بمفرده خارج المجموعة، مثل ذكرى صعبة، أو شبح. ثم يمكننا أن نجري أنا ولوسيل إلى الدغل، تاركينهم لكي يستسرسلوا في ذكريات الأيام الغابرة، ويعدوا الشطائر للغداء، ويعرضون على بعضهم بعضاً الصور الفوتوغرافية.

حين كانت تتلقى سيلفي المذكرات المتعلقة بتغيبنا عن المدرسة لأيام وأسابيع، كانت تكتب ردوداً موجزة فحواها أن المشكلة تكمن في المراهقة الأنثوية، وقد أرسلت بعض هذه الردود بالبريد ولم ترسل بعضها. وأذكر أنني وجدت في ذلك نوعاً من الكذب المكشوف من قبلها، لاسيما أنها كانت لا تميل في غالبية الوقت إلى الخداع. لكن ربما ما كانت تخبره للمدرسة هو ما كانت تنسى أن تخبرنا به فحسب. باتت لوسيل في أغلب الأحيان كائناً حساساً، متألماً، دامعاً، ومما زاد من كدرها أن ملابسها بدأت تضيق أكثر فأكثر على جسمها. وقد ملأها ثدياها الصغيران الطفوليان إحساساً إحساساً بالعار وملآني بالقلق. لكن كانت سيلفي قد أخبرتني أن لوسيل ستنضج قبلي لأن شعرها أصهب وهذا ما حدث حقاً. وفي حين أصبحت هي امرأة صغيرة، أصبحت أنا طفلة كبيرة. ولم تكن جميع الآلام التي استبدت بي جراء الانتقال إلى الخصوبة، وجميع الإيقاعات الجديدة الحتمية في جسدي، إلا من صنيعة خيالي الناشط.

صرنا نمضي عالياً باتجاه الأحراج، حيث كان ثمة بين هضبتين مقلع حجارة صغير كنا نحبّ الادعاء بأننا نحن من اكتشفناه. كانت

ألواح الصخور في بعض المواضع تقف عامودية، مسدسة أو ثمانية الأضلاع، بعلو الكراسي التي بغير ظهر أو الأعمدة. وفي وسط كلّ من هذه الألواح كان ثمة دوائر متراكزة في خطوط باهتة بلون الصدأ، فاعتبرناها أطلال حضارة بائدة. وإذا مضينا أعلى نحو قمة المحجر، يمكننا أن ننحدر ربع الدرب نزولاً على أطراف أصابعنا على لوح مائل، حتى نبلغ كهفاً صغيراً، يكفي فقط لجلوسنا فيه، وقد فصل بيننا العشب الخشن المائل دوماً بفعل الريح، فكنا نسمّد هذا العشب وننتفه كأنه جلد كلب عجوز. إذا وقعنا هناك، فمن سيجدنا؟ سيجدنا المشردون. ستجدنا الدببة. لا أحد يمكن أن يجدنا. وكانت لوسيل تغني: «طائر أبو الحناء شديد الحمرة غطاهم بوريقات الفراولة»[1]. كان ثمة منجم قديم أسفل المقلع، حيث نقّب أحدهم يوماً عن الذهب أو الفضة. لم يكن أكثر من ثقب أسود في الأرض، فتحة لا تتجاوز البئر الصغيرة، وقد نبتت حول حافتها الأعشاب البرية بحيث كان يصعب معرفة مكانها. وهذان المنجم (الذي كنا ننظر إليه من بعيد فقط ونرمي فيه الحجارة) والكهف، كانا مصدر رعب عظيم وجذاب.

وكانت الأحراج نفسها تخيفنا، وإن أحببنا الفسحات الصغيرة فيها حيث قطعت الأشجار، وتلك المساحات الجرداء بفعل الحرائق، حيث تنبت الفراولة البرية. ولعلّ عشبة الحوذان[2] هي أفضل تجسيد للضوء الأصفر الرطب الذي يجده المرء في أمكنة كهذه (عشبة الحوذان نادرة

(1) من قصيدة لمايكل درايتون.

(2) Buttercups: عشب ذو زهر أصفر.

في تلك الجبال، وهي تنبت رقيقة زاهية، وملساء كبيرة على سيقان قصيرة. وقد اعتاد الناس البحث عنها وحملها مع التربة وكل شيء إلى بيوتهم كأشياء تذكارية. وكانت الصحف تمنح الجوائز لمن يحضر أول ما ينبت منها هناك، حيث أنها لم تكن مما يعمّر في الحدائق). لكن كانت الأحراج العميقة مظلمة وكثيفة ومليئة بعبقها الخاص مثل ردهة بيت قديم. كنا نمشي بين تلك السويقات الضخمة، وتتناهى إلى مسامعنا تلك الدمدمة الآسرة المتواصلة عالياً فوق رؤوسنا مثل أطفال يثرثرون في جنازة.

كنا – الآن حين أتذكر ذلك، فلا أتردد في التكلم عني وعن لوسيل كشخص واحد تقريباً خلال ذلك الصيف، وإن كانت أغلب الأحيان نكدة المزاج حانقة – نبقى دائماً في الأحراج حتى المساء، وحين لا يكون البرد شديداً نمكث على الشاطئ راشقتين الحصى في الماء حتى هبوط الظلام. وكنا نغادر أحياناً حين نشم رائحة العشاء الذي يعدّه المتشردون، وهي خليط من رائحة السمك والمطاط والصدأ، لكن لم تكن متعة تناول العشاء في البيت هي ما يعيدنا إلى بيت سيلفي. بل كان البرد بالنسبة إليّ، أما بالنسبة إلى لوسيل فالظلمة التي تسمح لها بعبور «فينغربون» دون أن يراها أحد. وربما صحيحاً القول إن لوسيل كانت ترافقني إلى الأحراج هرباً من أن تُرى. فأنا نفسي كنت أحسّ بنظرات الناس كمرآة مشوهة تسحقنا معاً، وأشعر أنه من الحسن الهرب من دعابة سيئة يجري الإصرار عليها إلى هذا الحدّ. لكنني ذهبت إلى الأحراج حباً بالأحراج ذاتها، في حين صارت لوسيل شيئاً فشيئاً تتخذها منفى لها.

كنا حين نعود إلى البيت نجد سيلفي هناك، تستمتع بالمساء، على نحو ما كانت تصف عادتها بالمكوث في الظلمة، حيث كانت تعتبر المساء وقتها الخاص من اليوم. وكانت تنغّم كلمة «المساء» في ثلاثة مقاطع، وبالتأكيد أظن أنها كانت تحبه لميله إلى التنعيم والترقيق. بدت لا تحب انعدام التوازن القائم بين غرفة مليئة بالضوء وعالم مليء بالعتمة. كانت سيلفي في البيت أشبه بحورية بحر في حجرة سفينة. كانت تفضل أن تغرق السفينة في العنصر (الظلام) نفسه الذي صنعت لكي تتجنبه. كان لدينا جداجد ليل في حجرة المؤونة وسناجب في الأطناف، وعصافير دوري في العلية. أنا ولوسيل كنا ندخل الغرفة من ليل كامل إلى ليل كامل.

إذا كان الطقس بارداً كانت سيلفي توقد ناراً في موقد المطبخ حين نعود إلى البيت. كانت تشغل المذياع وتدندن دندنة من ألف الحياة المنزلية، وهي تسخّن الحساء أو تضع السندويشات في التوست. كنا نشعر بالسرور حين توبخنا على العودة متأخرتين، أو على توسيخ ثياب المدرسة، أو على عدم ارتداء معطفينا في الخارج.

ذات ليلة في ذلك الصيف دخلنا إلى المطبخ وكانت سيلفي جالسة تنتظرنا على ضوء القمر. كانت المائدة معدّة سلفاً، وشممنا رائحة شرائح لحم الخنزير المقلية. مضت سيلفي إلى الموقد وبدأت تفقس البيض على حافة المقلاة وترميها في الدهن. عرفت عندئذ ما يعنيه الصمت، ومثلي عرفت لوسيل. فهو يعني أن نشعر في مساء شديد الهدوء بالغ الزرقة، مزدحم بطنين الحشرات والكلاب الهرمة السمينة التي تجرّ سلاسلها

وترنّ بأجراسها في باحات الجيران الأمامية، بالقرب من أصفى حواسنا. كما حين، على سبيل المثال، يعلم واحد من اثنين مضطجعين بسكون في غرفة معتمة، متى يصحو الآخر.

جلسنا نستمع إلى صوت انجرار السكين في حين كانت سيلفي تدهن التوست بالزبدة وتحشوها، ضاربتين بأعقاب أقدامنا بإيقاع ناعم بطيء على قوائم كرسيينا، محدقتين من خلال النافذة التي غشاها الضباب إلى العتمة الأكثر نصوعاً في الخارج. ثم بدأت لوسيل تحك بقوة ذراعيها وركبتيها.

قالت: «لابدّ من أن شيئاً ما قد لدغني»، ووقفت وشدّت سلسلة الإضاءة المتدلية من السقف. فاسودّت النافذة وبدا أن المطبخ الفوضوي قد برز فجأة إلى الوجود، بعيداً عن حالته السابقة، بقدر ما العالم بعيد عن الظلمة الأولى. رأينا أننا تناولنا الطعام من أطباق كرتونية (كانت سيلفي قد وضّبت أدوات مائدة أمها في صناديق ووضعتها في الزاوية قرب الموقد، وذلك في حال، كما قالت، احتجنا إليها يوماً). أجفلنا الضوء المفاجئ الذي كشف أكواماً من الأواني داخل أرفف الخزانة التي استند مصراعاها مفتوحين على صناديق أدوات المائدة. كانت الطاولات والكراسي والخزائن والأبواب مطلية بطبقات بيضاء كثيفة، تراكمت سنة بعد سنة، حتى اتخذت الطبقة الأخيرة اصفرار الكريما المتخثرة. وفي كل مكان كان الطلاء متقشراً مشوهاً، وقد انتشرت فوق الموقد بقعة من السخام امتدت من أعلى الجدار إلى السقف، وامتلأت مدخنة الموقد وأعالي الخزانة بطبقة كثيفة من الغبار. ولعلّ أكثر ما يوقع

الكآبة في النفس كانت الستارة على جانب لوسيل من المائدة، بعد أن التهمت النيران يوماً نصفها حين وضعت كعكة ميلاد على مقربة منها. وحينذاك بادرت سيلفي إلى إخماد النار مستعينة بعدد من مجلة «التدبير المنزلي الجيد»، لكنها لم تستبدل الستارة بأخرى. كان ذلك عيد ميلادي، وكانت الكعكة مفاجأة، ومثلها السترة الصوف الزهرية التي وشيت ياقتها بحبيبات اللؤلؤ المقلدة، والكنغارو المصنوع من السيراميك الذي برزت من جيبه نبتة سرخس. كان سرور سيلفي بهذا الحدث عظيماً، ولعلها أبقت الستارة على حالها لأنها تذكرها به. لم نشعر بالراحة في الضوء. فجذبت لوسيل السلسلة ثانية، بقوة جعلت الجرس الصغير في نهايتها يرتطم بالسقف، وحين عاودنا الركون بصمت إلى الظلمة الدامسة، أخذت لوسيل تؤرجح رجليها.

«أين هو زوجك يا سيلفي؟».

ساد صمت يزيد عن البرهة بقليل.

«أشكّ في أنه يعرف بمكاني».

«كم استمرّ زواجكما؟».

بدت سيلفي مصدومة بعض الشيء من السؤال.

«عجباً، لكنني ما زلت متزوجة يا لوسيل».

«إذن أين هو؟ أهو بحّار؟ أهو في السجن؟».

ضحكت سيلفي وقالت: «تجعلينه يبدو غامضاً جداً».

«إذن ليس في السجن».

«لم نتصل ببعضنا منذ زمن».

تنهدت لوسيل تنهيدة مسموعة وأخذت تؤرجح رجليها.

«لا أظنك كنت متزوجة يوماً».

ردت سيلفي بهدوء: «فلتظني ما شئت يا لوسيل».

بحلول ذلك الوقت كانت الجداجد بدأت بالصرير ثانية في حجرة المؤونة. وكانت النافذة مضاءة، واصطبغت المائدة البالية والفوضى التي تعلوها باللازوردي الباهت كأنها ركام الحياة الاعتيادية على سطح سفينة غارقة.

تنهدت لوسيل ثانية واستسلمت للعتمة.

فتنفستُ وسيلفي الصعداء. ثم قالت الأخيرة كبادرة مصالحة: «كان زوجي جندياً حين التقيته. وقد حارب في المحيط الهادئ. في الحقيقة كان يصلح المحركات وهلمجرا. سأعثر على صورة له...».

تخيّلت لوسيل في البداية أن زوجها قد توفي أو اختفى في الحرب، وأن اختلال سيلفي ما هو إلا من شدّة حزنها عليه. ولعبض الوقت غفرت لها على كلّ شيء، حتى بحثت سيلفي تكراراً عن صورة فوتوغرافية لزوجها، وجاءت أخيراً بواحدة، مقصوصة من مجلة، تمثّل بحاراً. بعد ذلك لم تغفر لها لوسيل شيئاً.

صارت تصرّ على إنارة الضوء وقت العشاء. كما وضعت على المائدة ثلاثة من أدوات المائدة التي تخصّ جدتي، وأخذت تطالب باللحم والخضار. فأعطتها سيلفي المال المخصص للمشتريات، واحتفظت لنفسها ببعض المقرمشات التي دسّتها في جيبها، وكانت تتناولها وهي تمشي مساء، تاركة إياي ولوسيل في المطبخ المضاء ذي النافذة السوداء

التي لا يرى منها أي شيء في الخارج.

كان ثمة نواح أخرى في تدبير سيلفي المنزلي أزعجت لوسيل. على سبيل المثال بقيت غرفة سيلفي كما تركتها جدتي تماماً، لكن كانت الخزانة والأدراج فيها شبه فارغة، لأن سيلفي كانت تدسّ ملابسها وحتى فرشاة شعرها ومعجون أسنانها في علبة من الكرتون تحت السرير. كانت تترك ملاءات السرير على حالها وتتدثّر باللحاف الذي تدسّه خلال النهار تحت السرير أيضاً. كان جلياً أن هذه العادات (كانت تنام دائماً بملابسها، أولاً منتعلة الحذاء، ثم بعد شهر أو شهرين واضعة إياه تحت الوسادة) هي عادات ضيف قصير الإقامة. وقد أهانت هذه السلوكيات إحساس لوسيل باللياقة. كانت تتخيل ما يمكن أن تحسبه بعض زميلاتها المرتبات المعتنى بهن في المدرسة، ممن لم تكن تعرفهن إلا بالاسم، وممن ليس من المحتمل إطلاقاً أن يطّلعن على تفاصيل حياتنا الخاصة، في حال رأين الخالة لوسيل وهي تضع قدميها على الوسادة (كانت تنام غالباً بالمقلوب كوسيلة لدفع الأرق).

كانت إحدى صديقات لوسيل تدعى روزيت براون، وكانت تخشاها وتضمر لها الإعجاب، وتنظر إلى كلّ شيء من خلال عينيها. فكان يستبدّ بها الغيظ وتشعر بجرح الكبرياء كلما تخيلت استنكار روزيت المتخيل. وذات مرة، تحت وطأة الحرّ، حملت سيلفي اللحاف والمخدة إلى الفناء ونامت على العشب. فاحمرّ وجه لوسيل غضباً وطفرت عيناها بالدموع.

قالت لي: «والدة روزيت براون تأخذها إلى سبوكاين لتتلقى دروساً

في الباليه، وتخيط لها بزات الرقص. والآن ستصحبها إلى نابلز[1] لتتعلم الرقص. صحيح أن سيلفي عانت من مقارنات كهذه، ولكنني كنت أشعر بالطمأنينة لنومها في المرجة، ومن وقت لآخر في السيارة، وباهتمامها بجمع الصحف، بصرف النظر عن تاريخ صدورها، وبسندويتشاتها المكونة من لحم الخنزير والبازيلاء. إذ بدا لي أنها إذا استطاعت البقاء ضيفة هنا – أي أن تحتفظ بأسلوب حياتها القائم على التنقل الدائم – فلن تضطر إلى المغادرة.

وقد كرهت لوسيل كل ما يتعلق بسيلفي.

ذات مرة عادت سيلفي إلى البيت ومعها صحف جمعتها من محطة القطارات. وعلى العشاء أخبرتنا أنها أجرت محادثة لطيفة جداً مع سيدة جاءت بالقطار من «ساوث داكوتا»، وكانت في طريقها إلى بورتلاند لكي تشهد شنق ابن عمها.

وضعت لوسيل الشوكة من يدها.

«لماذا تخالطين حثالة من هذا النوع؟ هذا شيء محرج!».

نفضت سيلفي كتفيها. «لم أخالطها. فهي لم تتمكن حتى من المجيء إلى العشاء».

«أنت طلبت منها ذلك؟».

«كانت تخشى أن يفوتها موعد الرحلة. إنهم دائماً دقيقون عندما يتعلق الأمر بشنق الناس». ألقت لوسيل رأسها على ذراعيها ولم تقل شيئاً.

(1) Naples: مدينة في أيداهو.

ومضت سيلفي شارحة: «إنها قريبته الوحيدة، ما عدا والده... فكرت أنه لطيف منها أن تأتي». صمت.

«ما كنت لأقول عنها حثالة يا لوسيل. فهي لم تقتل أحداً».

ظلت لوسيل معتصمة بالصمت. لم تفهم سيلفي جلية الأمر. لم تعرف أن أم روزيت براون هي التي رفعت رأسها عن قطعة القماش التي تطرزها (أخبرتني لوسيل أنها كانت تطرز مناديل المائدة لجهاز زواج لوسيل المستقبلي) مجفلة مندهشة من كلامها. إذ كيف يمكن للبشر الذين يتمتعون بسوية العقل وسلامته أن يردوا على قصص كهذه؟ كانت لوسيل في ذلك الوقت كأنما تلعب دور الوسيط بين سيلفي وأولئك البشر الرزينين الحكماء الذين يحكمون دائماً على حياتنا. فتقول لهم مثلاً «لا تعرف سيلفي أن المرء لا يصادق الأشخاص الذين يسافرون مستلقين على ظهورهم آلاف الأميال، على ارتفاع اثني عشر إنشاً عن الأرض حتى لحضور شنق». فتجيبها أم روزيت براون: «الجهل بالقانون ليس عذراً»، وتجيبها روزيت براون: «الجهل بالقانون هو جريمة يا أماه!». أحياناً أفكّر أن لوسيل حاولت التوسط لنا مع أولئك الأشخاص الذين يطلقون الأحكام، قائلة مثلاً «لا تقصد سيلفي أي سوء»، أو «سيلفي تشبه أمنا»، أو «سيلفي جميلة جداً حين تصفّف شعرها» أو «سيلفي هي قريبتنا الوحيدة»، نظن أنه كان لطيفاً منها أن تأتي». حتى وهي تقدّم هذه الحجج الافتراضية فقد كانت تعرف كم هي واهية.

كانت لوسيل تنظر بعين الشفقة إلى سيلفي، لكن بلا رأفة، ولا مغفرة. ذات مرة كنت وإياها في طريقنا إلى مكتب البريد حين رأينا

سيلفي مضطجعة على أحد مقاعد الحديقة الجرداء التي أنشئت إحياء لذكرى موتى الحرب، شابكة ذراعيها ورجليها ومغطية وجهها بجريدة. داست لوسيل على شجيرة الليلك.

اختفى الدم من وجهها من شدة الغضب وقالت: «ماذا يجب أن نفعل؟».

«نوقظها على ما أظن».

«أنت أوقظيها، هيا بسرعة!».

أما هي فركضت باتجاه البيت. فدنوت من المقعد ورفعت الصحيفة. ابتسمت سيلفي، قائلة: «يا للمفاجأة السارة، أنا أيضاً لديّ مفاجأة». ثم استوت على المقعد وراحت تبحث في جيوب ممطرها، وأخرجت حلوى «ماونتن بار». وقالت: «أما زالت المفضّلة لديك؟ انظري إلى هذا»، ثم فردت الصحيفة في حجرها «هناك مقالة عن امرأة في أوكلاهوما خسرت ذراعها في معمل للطائرات، لكنها ما زالت تعيل ستة أولاد من خلال إعطاء دروس بالعزف على البيانو». بدا لي في اهتمام سيلفي بالمرأة نوعاً من الكرم.

«أين هي لوسيل؟».

«في البيت».

«حسناً، هذا حسن... يسعدني أنني حصلت على فرصة التكلم معك. أنت هادئة جداً، من الصعب معرفة ما يدور في خلدك». ثم نهضت وبدأت بالسير باتجاه البيت.

«أظن أنني لا أعرف ما الذي يدور في خلدي». أحرجني هذا

الاعتراف. كان مصدر رعب وراحة لي في آن أنني غالباً أبدو غير مرئية، موجودة بالحدّ الأدنى للوجود، وبأقلّ قدر من الاكتمال في حقيقة الأمر. بدا لي أنني لا أترك أثراً في العالم، وأنني في المقابل أملك امتياز أن أراقبه لا شعورياً. لكن إشارتي إلى هذا الإحساس بالشبحية بدا غريباً، وبدأ العرق يتفصد من كلّ جسدي، مديناً إياي في الحال بالضخامة الجسدية.

قالت سيلفي «حسناً، ربما سيتغير هذا». مشينا صامتتين لبعض الوقت. «وربما لن يتغير». تخلفت عنها خطوة ونظرت إلى وجهها. كانت دائماً تكلمني بصوت إنسان بالغ يمنح الحكمة. أردت أن أسألها ما إذا كانت تعرف ما يدور بخلدها هي، وإذا كانت تعرف فكيف هي تجربة كهذه، وإذا لم تكن تعرف، ما إذا كانت هي الأخرى تحسّ بالشبحية، مثلما تخيلتها حقاً. انتظرت أن تقول سيلفي «أنت مثلي». وحسبتها ستقول «أنت مثل أمك». وخشيت وشككت من أن أكون مثلها، وانتظرت أن يبدر منها مثل هذا الكلام، لكنها لم تفعل. بل قالت: «أنت مشتاقة كثيراً إلى المدرسة. الطفولة لا تدوم طويلاً. ستشعرين بالأسف يوماً ما. سرعان ما ستجدين نفسك صرت بمثل طولي».

كان معظم الطريق إلى البيت على امتداد «فيرست ستريت»، وهو كناية عن صف من الأكواخ والبيوت القش مع أراجيح على شرفاتها والمروج المعتمة. كان رصيف الشارع يتأرجح كجسر معلق في خضم ريح عاتية. كانت تظلله شجيرات الليلك وأشجار التفاح البرّي والصنوبر التي نبتت على مقربة من الممشى بحيث كنا نضطر إلى أن نحني رؤوسنا

لنمر تحت بعضها. تخلفت أكثر عن سيلفي، مرتاحة من انتقال أفكارها إلى أمور أخرى. نصيحتها لي لم تثر اهتمامها بقدر ما أثارت قلقي. انعطفنا إلى «سيكامور ستريت»، حيث لم يكن من رصيف. تقدّمت سيلفي الدرب ومشيت وراءها. كان هذا شارعنا. كانت المنازل بعيدة عن الشارع وفسيحة. اقتربت الكلاب منا وأخذت تتشمّم أقدامنا. كانت سيلفي تبغض شأن جميع المرتحلين كلاب الحراسة، فأخذت ترشقها بعيدان الخشب. ثم وقفت بصمت على الطريق تتأمل قطاراً طويلاً يمرّ. جرّدت قضيب صفصاف وكسرت أعناق الهندباء البرّية و«مخمل الملكة آن» التي أينعت على جانب الطريق. حين وصلنا أخيراً إلى البيت وجدنا لوسيل في المطبخ، منشلغة بالتنظيف، مضيئة الأنوار، وإن لم يكن قد حلّ المساء بعد.

قالت صاخة: «الآن نجدك تنامين على مقعد عام!»، ولم يخفّ غضبها حين قالت لها سيلفي إنها لم تكن نائمة.

قلت: «ربما لم يرها أحد».

«في وسط البلدة؟ في وسط النهار؟».

«أعني لا أحد عرف من تكون».

«لكن من يمكن يا روثي أن يكون سواها». رمت لوسيل منديل تجفيف الأواني على الصوان. سمعت سيلفي تفتح الباب.

قلت: «إنها راحلة».

«هذا ما تفعله دائماً، إنها تشرد قليلاً في الخارج فحسب». ثم حملت المنديل ورمته نحو الباب.

«لكن ماذا لو رحلت حقاً؟».

«لن يكون الأمر أكثر سوءاً». من الواضح أن أم روزيت براون وضعت لوسيل على المخلعة [1] في ذلك اليوم. وفي مثل تلك الحالات كان المحامي ووكيل الادعاء يصبحان واحداً، «لا أعرف ما الذي يبقيها هنا. أظن حقاً أنه يستحسن بها أن تقفز إلى قطار ما».

لم نعرف أين نبحث عنها، فأطفأت لوسيل النور وجلسنا إلى طاولة المطبخ، محاولين تسمية ولايات الاتحاد، ثم عواصم الولايات، بالترتيب الأبجدي. وأخيراً سمعنا خطوات سيلفي المتهملة وفتحها المتردّد لباب المطبخ.

«كنت أخشى أن تكونا قد نمتما. لقد نسيت هذه اليوم على المقعد وهي ألذّ من أن تضيع هدراً». فتحة ورقة صحيفة فانبعثت رائحة الفراولة البرية، «إنها تنبت بكثرة حول المحطة. أفكّر في إعداد الفطائر المحلاة منها». صنعت مخيض الفطائر المحلاة من ماركة البيسكويك، وخلطت فيه الفراولة بينما نحاول أنا ولوسيل تعداد كلّ دول العالم.

«أنا وأمكما كنا نعدّ هذه الفطائر. كنا نذهب إلى المكان نفسه في صغرنا. ليبيريا. كنا مقرّبتين وقتذاك مثلكما أنتما».

قالت لوسيل: «إننا دائماءنسى لاتفيا».

قالت سيلفي: «دائماً ننسى ليختنشتاين أو أندورا أو سان مارينو».

(1) Rack: أداة تعذيب قديمة.

7

احتفظت لوسيل خلال ذلك الصيف بولائها لنا. فإذا كنا مشكلتها الأساسية فقد كنا ملاذها الوحيد أيضاً. أنا وهي كنا دائماً معاً، في كل مكان. كانت أحياناً تلتزم الصمت فحسب، وأحياناً تقول لي إنه لا يجدر بي أن اطرق رأسي وأنا أمشي (لم يكن المقصود من ذلك أن أخفي طولي المتزايد بل أن أعترف به وأعتذر عنه)، وأحياناً كنا نحاول أن نتذكر أمنا، وإن صرنا نختلف أكثر، بل نتشاجر، حتى حول وصف شكلها. كانت أم لوسيل امراة منظمة ونشيطة وحساسة، أرملة (وهذا يفوق ما عرفته يوماً عنها أو ما كان في وسع لوسيل إثباته) قضت في حادث ما. أما أمي فأصرّت على حياة بسيطة ومحدّدة لا تشغل اهتمامها كثيراً. وقد اعتنت بنا بلا مبالاة رقيقة أشعرتني أنها تفضّل أن تكون أكثر وحدة - كانت هي الهاجر لا المهجور.

في ما يخص قفزها في البحيرة، فقد أعلنت لوسيل أن السيارة علقت

في الطين، وأن هلين أسرعت أكثر من اللزوم خلال إخراجها ففقدت السيطرة عليها. في هذه الحال لماذا تركتنا في بيت جدتنا، مع جميع أغراضنا؟ ولماذا قادت سيارتها بعيداً عن الطريق إلى وسط المرج؟ ولماذا أعطت الشابين اللذين ساعداها ليس فقط ما معها من مال بل حقيبتها كلها؟ اتهمتني لوسيل أنني أحاول الدفاع عن سيلفي على حساب أمنا. صمتنا كلانا لبعض الوقت بعد ذلك، آسفتين لعقد هذه المقارنة. إذ صرنا نعرف الآن – وإن لم تكن معرفتنا مريحة بالضرورة – أن سيلفي تنتمي لنا أيضاً. كانت أمنا تمسح الأرضية وتكنس الغبار، وتحافظ على بياض جواربنا، وتغذينا بالفيتامينات. لم نكن قد سمعنا اسم «فينغربون» قبل أن تأتي بنا إلى هنا، ولم نكن نعرف شيئاً عن جدّتنا قبل أن تتركنا منتظرتين على شرفتها. في الوقت الذي يفترض فيه أن نكون نائمتين كنا نشاهد أمنا جالسة على الكنبة، طاوية إحدى قدميها تحتها، تدخن وتقرأ «ساتورداي إيفننغ بوست». ودائماً في النهاية كانت ترفع عينيها عن الصفحة وتحدّق في وسط الحجرة، أحياناً كانت تفعل ذلك بتركيز شديد، حتى إن إحدانا كانت تنهض لتحضر كوباً من الماء فقط لكي تتأكد من أن لا أحد معها في الحجرة. في النهاية انزلقنا عن حضنها كواحدة من تلك المجلات المليئة بالآراء السديدة عن الوجبات المتوازنة والصحية. لم يكن في وسع سيلفي مفاجأتنا حقاً. كما لاحظنا أحياناً، كنا نعيش منام سيلفي معها. خلال كل الأوقات التي أمضيناها هاربتين من المدرسة، ربما لم نصل إلى مكان لم تصل إليه قبلنا. لذا لم تكن بحاجة إلى أن تشرح لنا أموراً لم نكن بقادرتين على شرحها.

على سبيل المثال، أمضينا مرة ليلة في الأحراج. كانت ليلة سبت، فارتدينا سروالينا الجينز، وأخذنا معنا قصبتي الصيد وسلة احتوت على البسكويت والشطائر ومطواتين ودود للصيد. لكننا لم نخطّط للبقاء طوال الليل، لذا لم نجلب معنا البطانيات. مشينا أميالاً على الشاطئ إلى جون صغير المياه فيه ضحلة ساكنة. تلك المياه كانت مليئة بأفراخ السمك السمينة الوفيرة التي تنتظر الصيد فحسب. وحدهم الأطفال يمكن أن يستهينوا بكائنات كهذه، ونحن فقط بين الأطفال يمكن أن نقطع مسافة تزيد على مئة قدم من المكتبة العامة لكي نصطاد تلك الأفراخ التي تلدغ بقوة تساوي وفرتها. لكننا ذهبنا إلى هناك تاركتين المنزل فجراً، وقد انضمت إلينا على الطريق كلبة عجوز سمينة ذات بطن سوداء عارية ودائرتين بيضاوين حول عينيها. كان اسمها «كريب»[1]، لأنها حين كانت جرواً كانت تفضّل السير على قائمة بعينها، والآن وهي عجوز باتت تعرج على ثلاث قوائم. هرعت وراءنا بنشاط، وومض أنيس يشعّ من عينها السليمة. وصفتها بهذا الإطناب لأنها بعد ميل أو أكثر من البلدة اختفت في الدغل وكأنها تتبع رائحة ما، ولم تظهر ثانية. كانت كلبة لا تتمتع بأي قيمة خاصة، وغادرت العالم من دون رثاء. بيد أن شيئاً من الكآبة التي نتذكر بها أنا ولوسيل خروجنا هذا له علاقة بآخر مرة لمحنا فيها كفليها السمينين وذيلها المنتصب، بينما تتسلق الصخور إلى العتمة المغبرة في الغابة.

أصبح اليوم حاراً. رفعنا ساقي سروالينا الجينز إلى الأعلى وفككنا

(1) cripple: يعرج.

بلوزتينا بحيث نتمكن من ربطهما حول خاصرتينا. كنا نمشي أحياناً على حافة رملية ضيقة، لكن بعد ذلك ازداد الطريق تعرجاً على شطآن مليئة بالحجارة الرمادية المدورة التي بحجم التفاح البرّي. كنا نقفز فوق الحجارة الكبيرة. وحين نجد حجارة بيضاوية، نرميها عالياً، ملتفّتين إلى الخلف، وحين تبتلع المياه تلك الحجارة، نقول إننا قطعنا عنق الشيطان.

كان العشب ينمو تحت الماء في بعض الأمكنة، فنجد نفسينا نمشي على حجارة زلقة مغطاة بخيوط من الطمي القاتم مثل شعر مبلل. تعبت من المشي وحمل السلة، فتوقفنا وتناولنا الشطائر، لأنها كانت قد تبلّلت. لم يكن ظهراً بعد، لكننا خططنا أن نشوي فراخ السمك على عيدان خضراء وأن نبحث عن الفراولة البرّية.

كان الشاطئ مليئاً بالأخشاب المنجرفة، ومن بينها جذوع قاسية الجذور، وزنود قد تعرّت تماماً من لحاها والتفّت صلبة كالأسلاك. وفي بعض الأمكنة كنا نجدها متكومة كالجيف فوق بعضها البعض، مثل العظام والعاج في مقبرة للفيلة. أما الأماليد، فكنا نقطعها بطول الأصابع ونضعها في جيوبنا، لندخنها ونحن نمشي.

اتجهنا شمالاً، فأصبحت البحيرة على يميننا. فإذا ما نظرنا إليها، بدت شاسعة تمتد فوق نصف العالم. وقد حجبت المسافة الجبال وأكسبتها لوناً رمادياً فبدت أشبه ببقايا سدّ محطّم، أو كحافة إبريق مكسورة، تغلي المياه فيه بهدوء، وتتحول بلا انتهاء إلى نور.

لكن مياه البحيرة تحت أقدامنا كانت منبسطة صافية، وقد استقرت

في قعرها حجارة صغيرة أو الطين فحسب وامتلأت بالكائنات الصغيرة مثل أيّ مستنقع، متواضعة في تحولات الحياة الاعتيادية فيها كأيّ بركة صغيرة. وحدها المثابرة الساكنة التي تموّجت فيها صفحت الماء، منخلة الحجارة الصغيرة السوداء والبيضاء والبنية، ذكرتنا أن البحيرة شاسعة، وأن حركتها متساوقة مع القمر (إذ لم يكن ما يشير إلى ذلك في حياتها الباردة المتلألئة). كست السماء غلالة عالية بيضاء شفافة، واصطبغت الأشجار بقتامة مسائية. وامتد الشاطئ في قوس طويل بطيء، نحو لسان تقع وراءه ثلاث جزر صغيرة تتضاءل حجماً على مد البصر حتى تختفي اليابسة تحت الماء. كان اللسان عالياً صخرياً تعلوه أشجار التنوّب. وعلى قدم هذا اللسان هنالك مجاز ضيق من الرمل البني حوّل شكله الفظ إلى قوس رقيق مخطّط، يمتد ثانية باتجاه البحيرة. اجتزنا اللسان عند قاعدته، منحدرتين على جانبه الأبعد إلى شاطئ الجون الصغير حيث أفراخ السمك، وعلى بعد ربع ميل كانت جزيرة ضخمة تعترض مشهد الأفق كمتراس، لتنفتح المياه من جديد بعدها. أما في الوسط فبدت المياه صقيلة قاتمة آسنة، يحفها نبات «ذيل القط»[1] وتبرز زنابق الماء في مواضعها الضحلة، وتحتشد فيها شراغف الضفادع وسمك المنوة، وفي العمق الأبعد من وقت لآخر تُسمع طرطشة سمكة تقفز وراء الحشرات. بعيداً هناك عن المد والجزر، بدا سطح الجون لزجاً كأنه غطي بغشاوة، واحتشدت فيه الكائنات وتراكمت، على نحو ما تتراكم في شباك العنكبوت أو الزوايا غير المكنوسة في المنازل. كان مكاناً من

---

(1) Cattail: نوع من النبات ينمو خاصة في المستنقعات.

الفوضى المحلية، دافئاً وساكناً ومفعماً بالحياة. جلست ولوسيل لبعض الوقت نرشق اليعاسيب بالحصى لبعض الوقت. ثم اصطدنا لبعض الوقت، باقرتين بطن كل سمكة من الخيشوم حتى الذيل ومفرغتين الأحشاء بأصابعنا، قبل أن نرميها إلى الشاطئ لحيوانات الراكون. ثم أشعلنا ناراً خفيفة، وعلقنا بعض أفراخ السمك من الخياشيم على عود أخضر، ثم وضعناه كلسان بين عصوين. ودأبنا على تكرار ذلك، على الرغم من أنه في أسوأ الأحوال كان يحترق العود وتقع السمكة في النار، ولم يكن الحال أحسن في أفضل الأحوال حيث كانت تحترق الأسماك ويرتفع منها الدخان قبل أن يفارق عيونها بريق الحياة. أكلنا أعداداً وفيرة منها. ثم عثرنا على الفراولة البرية على أجمات نمت بين الصخور وتناولناها أيضاً. وظلّت هذه الطقوس البرية مستحوذة علينا حتى أول المساء، حين أدركنا فجأة أننا مكثنا أطول من اللازم هناك. لو أننا عجلنا بالرجوع عندئذ لكنا وصلنا إلى البيت قبل أن تعتم كلياً، لكن الغيوم ازدادت كثافة ولم نستطع التأكد من الوقت، وخفنا من فكرة أن نشق طريقنا أميالاً عائدتين على ذلك الشاطئ الشاق الذي لا تحده من الجانبين سوى البحيرة والأشجار السامقة السوداء. فإذا جاءت الغيوم بالريح والموج، فيمكن أن ننجرف إلى الغابة التي كان يرعبنا الضياع فيها ليلاً.

قالت لوسيل: «فلنبق هنا». جررنا بعض الخشب المنجرف إلى وسط اللسان. واستعملنا حجراً كبيراً كجدار، ثم صنعنا جداراً خلفياً وآخر جانبياً من الخشب المنجرف، وتركنا الجانب الثالث مفتوحاً على

البحيرة. وصنعنا من فروع شجر التنوب سقفاً وأرضية، كانت النتيجة شيئاً سيئاً مهملاً، ويبدو من جميع نواحيه عرضياً تماماً. وقد انهار السقف مرتين. واضطررنا إلى القعود متجمدتين داستين رؤوسنا بين أرجلنا لكي لا يتسبّب حراكنا بوقوع أحد الجدران.

جلسنا لوقت جنباً إلى جنب، محرّكتين أيدينا وأرجلنا بحذر، حاكتين كواحلنا وأكتافنا بأكبر حذر ممكن. زحفت لوسيل إلى الخارج وأخذت تكتب اسمها بالحصى على الرمل أمام الباب. بدا المساء متوازناً. فاتحدت السماء والمياه بلون رمادي واحد. وأصبح الدغل كتلة سوداء. وكان ذراعا اليابسة اللذان يطوقان الجون مثل أطواف جليدية من العتمة تنسكب إلى البحيرة من الجبال السوداء، لكنها تتوقف وتتحول حجراً في الأثير المشرق. زحفنا إلى كوخنا ونمنا نوماً مضطرباً، دون أن يغيب عن بالنا أننا يجب أن نبقى متكوّمتين قعوداً، واعيتين دوماً للعث والحشرات التي تجوس الرمل.

استيقظت على ظلمة دامسة. تحسّست الغصون إلى جانبي والرطوبة على ظهري، وكانت لوسيل نائمة عليّ، لكنني لم أستطع رؤية شيء. متذكرة أن لوسيل قد دخلت تدبّ دبيباً ورائي، وأنها جثمت بين المدخل وبيني، خرجت عبر السقف إلى عتمة لا تقل كثافة.

لم يكن قمر مشرقاً، بل بدا أنه ليس هناك سماء. بعيداً من الترقرق الثابت للبحيرة وصخب الدغل، كان ثمة أصوات مفردة معزولة تنبعث من البحيرة، بلا مكانٍ ولا جسد، وقريبة جداً من أذنيّ، مثل أصوات في حلم. كان هناك لثغ وضحكات مكبوتة وأصوات اقتراب مختلس

– الإحساس بتربّص مقلق لحيوان ما يستعد للانقضاض وقد عوّقت حركته بصورة غامضة.

قلت: «لوسيل». سمعتها تقف في الكوخ.

«ما الوقت برأيك؟». لم يمكننا التخمين. سمعنا زعيق القيوط والبوم والصقور وطائر السامك. كانت عتمة دامسة بحيث أننا كنا نسمع أصوات كائنات تنزل إلى الماء على بعد بضعة أقدام منا دون أن نتبين ما هي. أخذت لوسيل ترشقها بالحجارة.

قالت مدمدمة: «يفترض أنها تستطيع اشتمامنا». لفترة غنت «تلة الطائر المحاكي»[1]، ثم جلست قربي في معقلنا المدمَّر، من دون أن تهدأ، أو تسلم بأن كل حدودنا البشرية قد هزمت.

يمكن أن تروي لوسيل هذه القصة بطريقة مختلفة. فتقول مثلاً إنني غفوت، لكنني لم أفعل. فقط تركت عتمة السماء تتساوى مع عتمة جمجمتي وأحشائي وعظامي. كل ما تقع العين عليه هو طيف، غشاوة سقطت على العالم الحقيقي، تعرضت الأعصاب والدماغ للخداع، ولم تبق سوى أحلام بأن تلك الأطياف قد أفلتت أيديها من أيدينا ومضت مبتعدة، تقوس الظهر وتأرجح المعطف، مألوفان جداً إلى درجة أن توحي هذه الأطياف بأنها مظاهر ثابتة للعالم، في حين أنه ليس ثمة شيء في حقيقة الأمر أكثر زوالاً منها. لنتخيل أمي بطول رجل، وأنها أحياناً ترفعني على كتفيها، لكي أتحسّس الوريقات الباردة فوق رأسينا. لنتخيل جدتي تغني بصوت منخفض حين جلوسهاعلى سريرها ونحن

(1) Mockingbird's Hill: أغنية شعبية تعود إلى العام 1951.

نعقد شريط حذائها الأسود الضخم. تفاصيل كهذه عرضية فحسب. من سوانا يستطيع أن يعرف؟ وبما أن أفكارهما كانت منصبة على أشباح أخرى غير أشباحنا، وعتمة أخرى غير تلك التي رأيناها، فلماذا يجب أن نترك، أنا ولوسي، كناجيتين بين حطام سفينة، بين الأشياء التافهة الصغيرة غير الملحوظة وغير المقدّرة، التي هي كل ما بقي حين اختفت، تلك الكارثة الوحيدة المعروفة؟ إن العتمة هي الوحيدة القادرة على إذابة الأشياء. طالما كانت العتمة هي المسيطرة، على الرغم من سماعي خطو لوسيل وصفيرها، وعلى الرغم مما لابدّ أنها كانت أحلاماً راودتني (بما أنني رأيت سيلفي تسعى ورائي)، شعرت أنه لا حاجة إلى وجود طلل، أو أثر، أو هامش، أو تذكار، أو إرث، أو ذكرى، أو فكرة، أو أثر، أو حطمة، لو أن العتمة كاملة ودائمة فحسب.

حين بدأ الضوء بالظهور (أنذرنا، كما قالت سيلفي إننا سنفعل، بزئير الدغل وزعيق الطيور، قبل ذلك الوقت بكثير)، بدأت لوسيل بالسير نحو «فينغربون» دون أن تكلمني أو تنظر إلى الخلف. سواد السماء المطلق تبدد ببطء، وتحوّل المشهد أخضر شاحباً، مصطبغاً بحمرة صدئة عند خط الأفق، وظهرت أخيراً حفنة من الغيوم زهرية اللون باهتة. وظهر كوكب الزهرة أبيض بارداً بين تلك الألوان الببغائية، وامتدت التربة عصية على التجدد طويلاً جداً حتى بدا لي لمرة أن كل هذه الحركة لن تجدي شيئاً. كانت طيور عالمنا ذرات سوداء في ذلك المدار الفلكي.

قلت: «لا يبدو أن الضوء يزداد».

ردّت لوسيل: «سيزداد». مشينا على طول الشاطئ، أسرع مما مشينا على ضوء النهار. كان ظهرانا متصلبين وآذاننا تطن. كلانا وقع تكراراً.

بينما كنا نشق طريقنا متجاوزتين كتلة من الصخور التي نتأت حتى البحيرة، انزلقت قدمي على السطح الزلق لحجر نصف بارز فوق الماء ووقعت بالكامل في المياه، فأصبت برضوض في ركبتي وفي أضلاعي ووجهي، رفعتني لوسيل من شعري.

أخيراً صار النهار عادياً. مشينا يلتصق سروالينا بجسمينا، وينجرّ طرفاهما على الأرض، وشعرانا متشابكان مبللان وقد ازرقّت أظافرنا وشفاهنا وأضعنا أحذيتنا وقصبتي الصيد والسلة وقبع الجوع ثقيلاً في أحشاءنا كالإحساس بالذنب.

قالت لوسيل: «سيلفي ستقتلنا»، بنبرة غير حاسمة. ارتقينا سفح الطريق إلى السكك الحديدية، تاركتين أثراً قاتماً لطّخ العشب حيث نمرّ. شعرنا بدفء روافد السكة الحديدية تحت أقدامنا. أمكننا رؤية بعض أشجار الأيكة القديمة الملتوية المائلة الجرداء. سلكنا درباً ضيقة بين الأشجار، نحو الباب الأقرب الذي ينفتح على حجرة جدتي. كانت سيلفي جالسة في المطبخ على كرسي بلا ظهر، تتصفح عدداً قديماً من «ناشيونال جيوغرافيك».

حين دخلنا إلى المطبخ نهضت سيلفي عن الكرسي وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة غير موجّهة لنا، وجاءت بكرسيين وضعتهما قرب الموقد. وكانت قد جهّزت لحافين مطويين على الصندوق الخشبي وراء

الموقد دثرتنا بهما ثم سكبت مياهاً حارة ثم علبة من الحليب المكثف وكمية من السكر في غلاية وسكبت كوباً لكل واحدة منا.

قالت: «شاي؟».

سألتها لوسيل: «أتعرفين أين كنا ليلة البارحة».

ضحكت سيلفي «كنتما تتناولان العشاء مع جون جاكوب أستور»[1].

دمدمت لوسيل: «جون جاكوب أستور».

كان اللحاف دافئاً ناعماً على ذراعي وكتفي وأذني. غفوت جالسة، مع كوب الشاي على شفتي، وقد أمسكته بعناية بكلتا يديّ لكي لا ينسكب منه الشاي. كان لإحساس النوم أثر الدفء على يدي والسكر على لساني. نمت جلوساً، واعية لقدمي الحافيتين، سامعة الحطب يطقطق في الموقد. تبادلت سيلفي ولوسيل كلمات أخرى، لكنني لم أتبينها. شعرت أن كلّ ما تقوله لوسيل، تردّ عليه لوسيل بالغناء. لكنه كان حلماً.

إذن هذا هو الموت، فكرت. سيلفي ولوسيل لا تلاحظان أنني غفوت أو ربما لا تمانعان ذلك. جاءت سيلفي بالغلاية وسكبت المزيد من الشراب الدافئ في الكوب، وسوّت اللحاف الذي كان قد انزلق عن كتفي قليلاً. فوجئت بحنوّها هذا وتأثرت به.

إنها تعرف، فكرت وشعرت برغبة في الضحك. سيلفي تجلس قرب

(1) جون جاكوب آستور (1763–1848): صاحب إمبراطورية تجارية، أحد أكبر أثرياء أمريكا في عصره.

الموقد متصفحة مجلات قديمة، وتنتظر أمي. سمعت لصوت الباب وهو ينفتح لكن بعد وقت طويل مال رأسي جانباً ولم أستطع رفعه ثانية.

ثم لاحظت أن فمي مفتوح. طوال هذا الوقت كانت الغرفة تمتلئ بالغرباء ولم يكن من طريقة لأقول لسيلفي إن الشاي وقع من يدي وبلل حضني. عرفت أنني ينبغي أن أخفي وهني – الذي بات الآن واضحاً متسارعاً – بطريقة ما من أجل اللياقة، لكن سيلفي لم ترفع رأسها عن المجلة. بدأت أتأمل بالنسيان، ثم نهضت عن الكرسي.

سألتني: «أنمت جيداً؟».

«أجل». حملت الكوب وتحسست البلل على بنطالي.

قالت: «النوم أفضل حين يكون المرء متعباً حقاً. فالمرء لا ينام فحسب. بل يموت».

وضعت الكوب في المغسلة.

«أين لوسيل؟».

«فوق».

«نائمة؟».

«لا أظن ذلك»؟.

صعدت إلى غرفتنا، وكانت لوسيل هناك، ترتدي تنورة قطنية سوداء وبلوزة بيضاء وتعقص شعرها بالدبابيس.

«أنمت أيضاً؟».

هزّت كتفيها. كان فمها مليئاً بالدبابيس.

قلت: «رأيت حلماً غريباً». أخرجت لوسيل الدبابيس من فمها.

قالت: «بدّلي ملابسك. سأصفّف لك شعرك». كانت تتصرف باستعجال.

ارتديت فستاناً مربع النقش، وجئت إليها لكي تزرّره لي.

قالت: «ليس هذا». وجدت بلوزة صفراء وتنورة بنية قبلتهما لوسيل دون تعليق.

ثم بدأت تصفف شعري المتشابك. لم تكن رقيقة ولا خفيفة اليد ولا صبورة لكنها كانت تتحرك بعزم تام.

قالت: «شعرك كالقش»، وأجرت المشط على خصلة شعر. انفكت عقصة أخرى ووقع الدبوس.

«آي»، صفعت رقبتي بالمشط، «لا تتحركي».

«لم أفعل».

«حسناً لا تتحركي. سنشتري شيئاً من مثبّت الشعر من المتجر. أتحملين مالاً؟».

«خمسة وأربعين سنتاً».

«لدي بعض المال». كانت أناملها على عنقي شديدة البرود.

سألتها: «ألن تنامي قليلاً؟».

«لقد فعلت. رأيت حلماً رهيباً. اثبتي».

«ماذا حلمت؟».

«لم أحلم بشيء. كنت طفلة أصرخ مضطجعة على ظهري، ثم جاءت إحداهن وبدأت تدثّرني بالملاءات، وضعتها جميعاً على وجهي إلى درجة أنني لم أعد قادرة على التنفّس. كانت تغني وتحتضنني وكان

ذلك لطيفاً نوعاً ما، لكنني لم أستطع أن أعرف ما إذا كانت تحاول خنقي». هزّت كتفيها.

«أتعرفينها؟».

«من؟».

«المرأة التي في الحلم».

«أظن أنها ذكرتني بسيلفي».

«ألم تري وجهها؟».

عدّلت لوسيل زاوية رأسي وبدأت بتمشيط المياه على قفا شعري.

«كان مجرد حلم يا روثي».

«ما كان لون شعرها؟».

«لا أذكر».

«أتريدينني أن أخبرك ماذا حلمت».

«لا».

ربطت لوسيل شعري بوشاح من النايلون وربطت شعرها أيضاً. نزلنا الدرج. أخذت لوسيل بعض المال من درج المطبخ حيث تحتفظ به سيلفي.

قالت سيلفي في أثناء مرورنا بها: «يا للروعة، كلاكما تبدوان رائعتين!»، لكنني كعادتي حين ينتبه أحدهم إلى مظهري، شعرت أنني طويلة جداً. بوقت وصولنا إلى نهاية الممشى كنت قد طويت ذراعي فوق بلوزتي فوق بلوزتي التي تضم صدراً صغيراً.

قالت لوسيل: «هكذا تجعلين الناس يلاحظون أكثر».

«يلاحظون ماذا؟».

«لا شيء».

شعرت بعيون الناس كثيفة، تجثم عليَّ جثومَ الكتلة الثقيلة. لوسيل التي نفد صبرها تجاه إحساسي بالأسف، أزالت كعبي حذائي لكي تجعلني أبدو أقصر، لكنني شعرتُ بأنَّ أصابع قدمي دونهما تلتوي إلى الأعلى. في مثل هذه الأوقات كانت تفاجئني دوماً قدرة لوسيل على أن تبدو مثلما يفترض بالمرء أن يبدو. كان يمكنها أن تطوي جوربيها وتلف غرة شعرها بطريقة مناسبة، لكن مهما حاولت ما كانت تستطيع فعل الأمر نفسه لي. حتى أنها طوّرت مشية متمهلة تجعل ردفيها يهتزان قليلاً، لكن المظهر المسترخي والاعتيادي الذي كانت تسعى إليه كان مهدداً بسبب خرقي وانحناء ظهري الأخرق.

كنا ذاهبتين لشراء مثبّت الشعر وملمع الأظافر. وكنت أكره هذه المشاوير، فأشغل نفسي بالتفكير بأمور أخرى لكي أتمكّن من الصمود خلالها. في ذلك اليوم فكرت بأمي. في حلمي انتظرتها بثقة، كما فعلت طوال تلك السنوات حين تركتنا على الشرفة. ثقة كهذه كانت مثل الإحساس بالحضور الدائم والمحسوس، الحركة التي تسبق الريح، أو هكذا شعرت. لكن خاب أملي مرتين، إذا كانت خيبة الأمل هي الكلمة الصحيحة. ربما بدأت أتعرض للخداع. إذا كان المظهر مجرد حيلة تقوم بها الأعصاب، والطيف هو مجرد خدعة أقلّ للأعصاب أيضاً، وهماً أقل كمالاً، فهذا التوقع إذن، هذا الإحساس بالحضور الخفي، لم يكن وهمياً على وجه الخصوص كما هي أشياء العالم. وهذه

الفكرة واستني، إذ أمدّتني بالإحساس بأن حلمي أقل زيفاً من حلم لوسيل. ومن المرجح أنه كان غير عرضة للتحرر من الوهم أيضاً، وإن لم يكن كذلك ربما.

قالت لوسيل: «إنني أكلمك».

«لم أسمعك».

«لماذا، لماذا لا تتبعين إيقاعي في المشي حتى يمكننا أن نتكلم؟».

«عن ماذا؟».

«عما يتكلم الآخرون؟».

غالباً ما تساءلت عن هذا الأمر.

قالت لوسيل: «على أيّ حال تبدين غريبة وأنت تمشين ورائي على هذا النحو».

«أظن أنني سأعود إلى البيت».

«لا تفعلي»، التفتت لوسيل نحوي وأخذت تحملق بي بشراسة من تحت حاجبيها المنخفضين.

قالت: «أحضرت مالاً للكوكا كولا».

فدخلنا إلى المتجر، وبينما كنا نشرب الكوكا كولا، جلست قربنا فتاتان كانت لوسيل قد تعرفت إليهما سابقاً بصورة سطحية، وأخذتا تريانا أقمشة اِشْتَرَتاها لكي تخيطاها أثواباً. تحسّست لوسيل الأقمشة وأبدت اهتماماً كبيراً بالرسوم التزيينية عليها حتى صارت الفتاتان اللتان تكبراننا عمراً سلستين مهذارتين معنا، وأريتانا مجلة اِشْتَرَتاها لأنها كانت مليئة بقصات الشعر الجديدة، مع خطوات تطبيقها. حتى أنا

تأثرت بالاهتمام الذي أبدته لوسيل تجاه الصور الفوتوغرافية والرسوم التوضيحية.

قالت: «يجب أن نشتري هذه المجلة يا روثي». فذهبت إلى منصب المجلات كأنني سأتفرج عليه. كان المنصب داخل المتجر مباشرة. جاءت لوسيل ووقفت بجانبي.

قالت: «ستغادرين».

كان هذا إعلاناً واتهاماً في آن. فحرت جواباً.

قلت: «أريد العودة إلى البيت فحسب». وفتحت الباب. أمسكت لوسيل ذراعي. وقالت: «لا تفعلي». وهي تشدّ ذراعي بصورة أحدثت وخزاً حادّاً مُؤلماً للتأكيد على قولها. خرجت معي إلى الرصيف، وهي ما زالت تشدّ ذراعي. وقالت هامسة حانقة: «ذلك منزل سيلفي الآن». وأحسست بأظافرها تنغرز في ذراعي وكانت نظرتها مناشدة لحوحة.

قالت: «علينا أن نحسّن نفسينا! بدءاً من الآن».

مجدداً حِرتُ في الجواب.

«حسناً سنتحدّث لاحقاً في الأمر»، قلت لها مدمدمة، واستدرت باتّجاه البيت، ولذهولي تبعتني لوسيل - مشت بضع خطوات خلفي، ولمبنى أو اثنين فحسب. ثم توقفت دون كلام وعادت أدراجها على المتجر. وتركت وحيدة، في ذلك الأصيل الناعم، غير مكترثة لأمر ثيابي ومرتاحة مع جسدي، هكذا من دون تحسين ولا ترقّب للتحسين. شعرت عندئذ أن لوسيل ستشغل نفسها منذ الآن إلى الأبد، وهي تكابد لتوفير تلك الإرادة التي كنت أفتقر إليها، الإرادة لاتخاذ

الشكل الأنسب وتجاوز الحدود إلى ذلك العالم الآخر، الذي كنت أشعر حينذاك أنه لا رغبة لدي البتة في الذهاب إليه. إذ بدا لي أن شيئاً مما خسرته أو قد أخسره لن أجده هناك، أو لأقول ذلك بكلمات أخرى، بدا لي أنني أستطيع العثور على شيء مما خسرته في منزل سيلفي. وأنا امشي باتجاه البيت، صار الشارع أكثر فأكثر إلفة، حتى الكلاب الغافية على الشرفات رفعت رؤوسها فحسب وأنا أمرّ (بما أن سيلفي لم تكن معي)، وكل شجرة وثمارها وظلالها كانت اليفة تماماً، مثل الزنابق والسوسن المهجورة، مثل صمت السكة الحديدية في شعاع الشمس. رأيت اثنتين من أشجار التفاح في أيكة جدتي وهما تموتان واقفتين. ذات ربيع لم تزهر أوراقهما، لكنهما وقفتا هناك وكأنهما ترتقبان بزوغ أوراقهما، وقد تدلّت أغصانهما إلى الأرض تقريباً، في محاكاة لعقمهما. كل شتاء يغمر الثلج الأشجار، وكل ربيع تتقهقر المياه، وينتهي الموات، وتنبعث كل شجرة في البستان مثل أليعازر، إلا هاتين الشجرتين. فقدتا لحاءهما وبياضهما الشاحب، ووقفتا عرضة للريح، لكن إذا ما نبتت وريقة ذات يوم فلن يكون ذلك بالأمر العجيب. سيكون تغييراً صغيراً يطرأ، كما قل أن يبدأ القمر بالدوران على محوره. بدا لي أن ما يندثر لا يضيع بالضرورة. في منزل سيلفي، منزل جدتي، الكثير مما تذكرته يمكنني إمساكه بيدي، مثل فنجان صيني، أو تفاحة أسقطتها الريح باردة حامضة جراء اختلاطها بالتربة العميقة، مع عبق أريجها فحسب. كنت أعرف أن سيلفي تشعر بحياة الأشياء المندثرة.

ومع ذلك بينما اقتربت من المنزل كان يسكنني وعيّ جديد

بالتغيرات التي هيمنت عليه. كانت أعشاب المرجة تصل إلى الركبة، شديدة الرطوبة مصحوبة برائحة عطنة، وقد غمرت الأجمات الأصغر والمجاز والدرجة الأولى من الشرفة. وبدا أنه ما لم يغرق البيت فسيطوف عما قريب.

حين عادت لوسيل إلى البيت كانت تحمل كيساً فيه قطع من النقوش وأربع ياردات من الصوف الكريمي والبني. شرحت لي عن تنورة وسترة تريد تصميمهما بدتا لي فستاناً في حقيقة الأمر. قالت إنه يمكن ارتداء السترة مفتوحة فوق بلوزة أو مع تنورة بنية أو كريمية، ويمكن ارتداء التنورة مع بلوزة أو كنزة. وحين تنتهي من هذا الثوب ستصنع تنورة بنية وتأتي بكنزة لتتناسب معها.

قالت: «كل القطع ستكون متناسقة معاً، ومع لون شعري». كانت تتكلم بجدية بالغة. «يجب أن تساعديني. هناك تعليمات تشرح خطوات القيام بالأمر».

أزلنا الفوضى المتراكمة على مائدة المطبخ. كانت سيلفي بدأت أخيراً بتجميع الصفائح المعدنية. كانت تزيل رقع الماركات عنها عبر غسلها بالصابون والمياه الحارة. كان هناك الآن الكثير منها على النضد وحافة النافذة، وكانت يمكن أن تغطي المائدة منذ زمن طويل لو لم نزلها أنا ولوسيل من وقت لآخر. لم نعترض عليها، رغم العبث في ذلك، لأنها بدت نظيفة ومرتبة، خصوصاً وأن سيلفي كانت تصفها بالمقلوب، ما عدا تلك التي كانت تستعملها لتخزين نوى الخوخ ومفاتيح علب السردين والقهوة. بصراحة، وصلنا على مرحلة بالكاد يمكننا عندها

الاعتراض فيها بأي شكل من الأشكال، وإن أملنا أن اهتمامها بهذه الصفائح كان انحرافاً مؤقتاً.

فردنا لائحة التعليمات الصفراء القائمة على الطاولة. وجلست لوسيل راكعة على كرسي ومالت نحو المائدة لتقرأ الخطوة الأولى. قالت: «سنحتاج إلى معجم»، فذهبت لإحضار واحد من خزانة الكتب في غرفة المعيشة. كان معجماً قديماً، أحد كتب جدي. ولم نستعمله من قبل أبداً. قالت لوسيل: «أول ما يجب فعله هو فرد القماشة. ثم نثبّت بالدبوس كل قطع النقوش، ثم نقصها. ابحثي عن «المقص المعقوف»». فتحت المعجم على خانة الحرف «باء» فوجدت خمس بنفسجات جافة - واحدة صفراء والأخرى كحلية، والثالثة بلون الماهاغوني، والرابع قرمزية، والأخيرة كانت بلون ورق البرشمان. كانت مسطحة وجافة بقسوة أجنحة الفراش، لكن أكثر هشاشة بكثير. وفي خانة الحرف «م»، وجدت وريقة من «مخمل الملكة آن»، كانت أيضاً مسطحة وبدت شبيهة بنبات «الشبث»[1]. وفي خانة الزاي وجدت تنويعة من الزهور الحمراء، التي أحاطت جميع زوايا الصفحة، وأزهاراً برية زهرية.

سألتني لوسيل: «ماذا تفعلين؟».

قلت: «هذا المعجم مليء بالزهور المضغوطة».

«إنه جدي».

«كان يضع نبات خف السيدة في خانة الحرف سين، ربما قصد نبات السحلبية».

(1) Dill: نبات له بزر يستعمل تابلاً في المخللات.

قالت لوسيل: «دعيني أرى هذا». أخذت الكتاب وحملته من طرفيه وأخذت تهزه. فسقطت منه أعداد كبيرة من الزهور.

استمرت لوسيل بالهز حتى توقفت الزهور عن السقوط، ثم أعادت إليّ المعجم. وقالت: «المقص المعقوف».

«ما الذي سنفعله بهذه الزهور؟».

«ضعيها في الموقد».

«لماذا؟».

«بم تنفع؟». لم يكن هذا سؤالاً حقيقياً بالطبع. أخفضت لوسيل حاجبيها النحاسيين وتفرست بي بشراسة، كأنها تقول ليست جريمة أن أكون قاسية القلب تجاه زهور اختنقت في العتمة طوال أربعين عاماً.

«لم لا تساعديني في الفستان. أنت لا تريدين المساعدة فحسب».

«سأحضر كتاباً آخر أضعها فيه».

حملت لوسيل كومة من الزهور وسحقتها بيديها. حاولت جاهدة أن أضربها بالمعجم، لكنها صدتني بمرفقها الأيسر، ثم صفعتني بقوة على أذني اليسرى. أوقعت المعجم أرضاً. كان الغضب قد أخذ مني كلّ مأخذ طبعاً، وعزمت على أن أوجه لها ضربة، لكنها بطريقة ما صدتني بساعديها الضخمين، وتمكنت أيضاً من توجيه لكمة إلى صدري.

قلت: «حسناً، لن أساعدك». وخرجت من المطبخ وصعدت إلى الطابق الأعلى.

صرخت: «ما كنت ستساعدينني أبداً! أبداً». أذهلتني قوة انفعالها. جلست على السرير مع كتاب مفتوح، بحيث أنه إذا جاءت لكي

تثور في وجهي أكثر أستطيع أن أزعم أنني منشغلة بالقراءة. بعد دقيقة صعدت الدرج ووقفت وراء الباب المغلق.

«كنت تبحثين عن عذر لكي لا تساعديني، وقد وجدته! رائع، شكراً جزيلاً!». صرخت وعاودت النزول. وبعد بضع دقائق عادت ثانية وصرخت: «يمكنني القيام بذلك وحدي، أنت تعرفين ذلك. أنت لا تشكلين أي عون على أي حال. كل ما فعلته يوماً هو الوقوف مثل زومبي أحمق!».

كان ثمة قدر كبير من الحقيقة في هذا كله. فقد كنت أعتبر لا جدواي عذراً لي في حقيقة الأمر، مع أنني رغبت في أن أقوم بدفاع أكثر إجلالاً، خصوصاً بما أنني مدينة للوسيل بلكمتين. لكنني أجّلت هذا لوقت لاحق.

قلت بصوت رقيق: «لا أستطيع سماعك يا لوسيل، عليك أن ترفعي صوتك».

قالت: «آه، حسناً، أنتِ ظريفة جداً، ذكية بحق»، وكانت تلك آخر كلمات قالتها لي طوال أيام. وحتى سيلفي لاحظت الأمر.

قالت: «ما بكما أيتها الفتاتان؟». كانت لوسيل تخرج من البيت، ولا تخبرني إلى أين هي ذاهبة، وتبتسم بسرور ينمّ عن الاعتداد بالنفس فقط، إتاحة مني للمجال في المحادثة، سألتها أين كانت. كنت واثقة من أنها كانت برفقة الفتاتين الكبيرتين اللتين رأيناهما في المتجر، أو مع شخص آخر يمكن أني يكون مفيداً لها على نحو ما. ذات مرة انتبهت إلى أنها خرجت تواً من البيت، فهرعت إلى الطريق. ووجدتها على بعد

حيين تمشي باتجاه البلدة. كان غبار بضآلة الذرات يملأ الطريق وكانت الشمس شديدة الحرارة. بدأت بالركض لكي أقترب منها أكثر، لكنها نظرت إلى الخلف ورأتني وبدأت بالركض هي أيضاً. قررت أنني سأقول لها إن سيلفي تريد شيئاً ما من المتجر، بما أنها كانت ذاهبة إلى البلدة على أيّ حال. وهذا سيوفر عليّ حرج أن أبدو كانني أطاردها. لكنها لم تتوقف عن الركض. ركضت وركضت حتى شعرت بألم لا يطاق في خاصرتي فعدت إلى المشي، مفكرة أنني يمكن أن ألوح لها لكي تتوقف وتنتظرني في حال التفتت إلى الوراء، لكنها لم تفعل.

تحوّل الغبار إلى وحل على جلدي وعلى قميصي المبلل بالعرق. وكان هذا حال لوسيل على الأرجح. وهي لن تتجول مغطاة بالوسخ هكذا. ستعود إلى البيت.

عدت وانتظرت، مستمتعة بترقب انتصار هزيل، لكنها لم تعد حتى المساء. ثم كان فقط وجهها ويداها نظيفة، أما ساعداها ورقبتها وقميصها فكانت بحال مزرية. إذن كانت تمضي أحد تلك الأيام بانتظار انقضاء اليوم، قارئة المجلات القديمة في سقيفة العدة أو راشقة الحجارة على البحيرة، فقط لكي تتجنبني.

شعرت أن غضب لوسيل قد طال لأنها أمضت ساعات كل يوم تعمل على فستانها. بدا أنني أتحمّل مسؤولية جزئية عن كل خيبة أمل تواجهها. عملت بعزلة في غرفة الضيوف حيث ماكينة خياطة جدتي، وهي ماكينة صغيرة بدائية تعمل على الكهرباء. وكانت تفوح منها رائحة المطاط الحارّ وشحم التزييت، وكان صوتها «نام نام نام نام

نام نام نام نام». وقد وضعت لوسيل إشارة على الباب تقول بأحرف دقيقة واضحة: «يرجى عدم الإزعاج».

كانت غالباً شديدة الهدوء في تلك الحجرة. وذات يوم كنت واقفة في الردهة، أصغي إلى صوت الماكينة مفكرة أن تصميم الثوب يمضي على ما يرام إلى درجة يتاح عندها تبادل بعض الكلمات، حين قالت لوسيل «لا تدخلي يا روثي». طوال أيام عدة لم يكن من إشارة على أن الفستان سينتهي أبداً أو أن العدوانية ستنتهي. لكن ذات يوم كنت جالسة في المطبخ أتناول شطيرة وأقرأ كتاباً حين نزلت لوسيل طاوية الثوب بين ذراعيها، ثم رمته في الموقد. وكومت صحيفة ووضعتها أيضاً ثم ألقت عود ثقاب. بدأت تفوح في المطبخ رائحة تشبه رائحة الشعر المحترق.

جلست لوسيل قبالتي، وقالت: «لم أتجشم عناء إخراج الدبابيس».

«إنني آسفة حقاً».

«آه، هذا ليس خطأك. ما كنت لتشكلي أيّ عون على أيّ حال».

قلت موافقة: «إنني أسوأ منك في هذه الأمور».

«بكثير».

بدا هذا الكلام أقلّ من المصالحة.

قالت لوسيل: «لم أعد غاضبة منك».

رددت: «ولا أنا».

«أعرف أنك لا تستطيعين فعل شيء حيال طبيعتك».

فكرت في هذا. قلت: «أعرف أنك لا تستطيعين أنت الأخرى فعل

شيء حيال طبيعتك».

نظرت إليّ لوسيل بهدوء وقالت: «لست مضطرة إلى ذلك، فأنا لست عل ذاك النحو».

«أي نحو؟».

«لست مثل سيلفي».

أنت أيضاً. ولا أنا. كلاهما بدا جواباً خاطئاً. لوسيل كانت لديها وجهة نظر لكنني قاومت رغبتي بصفعها. كنت أعرف أنها حين تحاول أن تكون ناضجة، فإن صفعة يمكن أن تباغتها كلياً.

قلت: «أظن أنه من الغريب القيام بكل هذه الجلبة حول بعض الزهور المضغوطة».

«لم تكن الزهور يا روثي».

بدا أنها قد رددت هذا الكلام في ذهنها قبل الآن. انتظرت أن تتابع كلامها. «هناك ما هو أكثر من ذلك. إننا نمضي الكثير من الوقت معاً. نحتاج إلى أصدقاء آخرين».

حملقت لوسيل بي. حين تتخذ قراراً أو خياراً لا يعود لدي سوى القليل لأقوله. كانت تعرف رأيي في الأمر مثلما أفعل. ولابدّ من أنها فكرت سلفاً بحقيقة أنني لم أقم صداقة مع أي كان طوال حياتي. وهي أيضاً لم تفعل حتى مؤخراً. لم تكن لنا أي حاجة إلى الأصدقاء أو وسائل الترويح المعهودة. أمضينا حياتنا نشاهد ونصغي بذلك الانتباه الحاد الذي للأطفال الضائعين في العتمة. بدا أننا بفعل سحر ما ضائعتان في مشهد ما، وتكفي أي نسبة من الضوء، حتى يصبح مألوفاً بالكامل،

ونصبح قادرتين على استنباط المعاني من الأصوات والأشكال، وعلى معرفة أين نضع أقدامنا. كان القليل جداً يفاجئ حواسنا، وكل هذا كان موضع ريبة. ذات مساء كنا نمشي أمام باب سيلفي الذي يفضي إلى الغيضة، ورأيناها تمشط شعرها أمام المرآة. كانت جالسة على مقعد، وقد أضاءت المصباح الصغير. كانت تفرشي شعرها من جانب واحد، ثمَّ تضع الفرشاة من يدها وتتأمل وجهها في المرآة. ثم تفرشي شعرها ثانية، ثم تلفه وتعقصه بالدبابيس من الخلف، ثم تنظر إلى نفسها. كل هذا كان مفاجئاً في سيلفي التي بدا أنها لا تفكر البتة بمظهرها. أمي، هلين، بالكاد أبدت اهتماماً بمظهرها أكثر من سيلفي، ومع ذلك في الليلة التي سبقت إتيانها بنا إلى «فينغربون» أمضت الأمسية على هذا النحو تماماً، تمشط شعرها أمام المرآة، مبدلة ومبدلة، ومقيمة كل تغيير بكل هدوء. ما الذي كان يمكن استنباطه من هذا؟ لا شيء على الإطلاق. لماذا على أختان منفصلتان عن بعضهما أن تفكر الأفكار نفسها أمام المرآة؟ وكيف يمكن أن نعرف ما كانت أفكار هلين؟ ربما لم تقرّر ما الذي ستفعله حتى باتت في الطريق إلى «فينغربون»، على الرغم من أنها في سياتل اشترت لنا بسكويت «غراهام» التي كان القصد منها مساعدتنا على الانتظار.

كان هذا بلا معنى أو صعب الفهم، ربما كان مصادفة، لكنني ولوسيل راقبناها طويلاً. مال رأسها جانباً بطريقة غريبة جداً حين مدت يديها لكي تعقد الشعر على رقبتها مثلما فعلت أمي. لم يكن هذا لغزاً. كانت كلاهما طويلة هزيلة مثلي وعروقاً رفيعة مثل عروقهما تمتد على ساقيّ

ويدي. أكانت هذه المصادفة مجرد دليل إضافي على تواطؤ الحواس مع العالم؟ حيث المظهر يموّه نفسه على أسطح براقة زلقة كالحلم أو الذاكرة مثلاً. مال رأس سيلفي جانباً ورأينا كتفي أمنا والعظام المدورة أعلى ظهرها. كانت هلين هي المرأة التي في المرآة، المرأة التي في الحلم، المرأة المتذكَّرة، المرأة التي في المياه، وشرايين أعصابها تقود الأصابع العمياء التي تعيد إلى مكانها كل الخصلات الفالتة في شعر سيلفي.

كنت ولوسيل قد لاحظنا في سيلفي أموراً بدت أليفة لنا، وربما كانت تحمل معنى ما، وأحياناً كنا نتكلم عنها عنها وغالباً ما كنا لا نفعل ذلك. لكن في ذلك اليوم اتكأت لوسيل على الطاولة وقالت «لن أنتظر حتى أصبح كبيرة كفاية لأغادر هذا المكان».

«هذا البيت؟».

«هذه البلدة. أظن أنني سأرحل إلى بوسطن».

«لا، لن تفعلي».

«سترين».

«لِمَ بوسطن؟».

«لأنها ليست فينغربون، ذاك هو السبب!».

صبيحة كل يوم في أغسطس كانت لوسيل تقف بمنامتها عند نافذتنا المفتوحة وتشذّب أظافر قدميها لأنها قرأت في مكان ما أن الصحة الجيدة هي شكل من الجمال. صارت تفرشي شعرها الأحمر مئة مرة، حتى ينساب ناعماً مع الفرشاة. كما كانت تشذّب أظافر يديها. وكل

هذا تحضيراً للمدرسة، بما أنها قد قررت الآن أن تنجح في حياتها. وبأي عزم وتصميم، كانت ترمي نفسها على العشب وتنغمس في قراءة «إيفانهو»[1] و«الضوء الذي خبا»[2] «ومرتفعات وذرينغ»[3] و«رجال صغار»[4] و«ناشيونال جيوغرافيك» وأي شيء تعتبره سيساهم في تطويرها. كانت تتمدد في الظل، متكئة على مرفقيها، وبيدها الكتاب، وإذا ما قلت لها، «حين تسأمي من هذا فلنذهب إلى البحيرة»، تجيبني: «دعيني وشأني يا روثي».

أحياناً كنت آتي بكتاب أيضاً وأجلس على العشب لكن تركيزها كان يشتتني فأقوم بشيء صبياني كأن أرشق كتابها بوريقات الشجر والعيدان الصغيرة، أو أضحك عالياً من أي شيء أجده مسلياً ولو قليلاً في كتابي. فتتنهد وتنهض وتدخل إلى البيت. وإذا ما تبعتها تقول بصوت فيه ازدراء صبور، «سأحبس نفسي في الحمام إذا اضطرني الأمر يا روثي». وفي تلك الفترة نفسها بدأت تكتب يومياتها في دفتر أزرق كبير متخلخل كانت تعقده برباط أصفر بحيث يبدو مثل دفتر ملحوظات عادي.

كانت تتركه على المكتب فأقدمت على قراءته ذات مرة. فكرت أنه قد يحتوي على أشياء كان يمكن أن تخبرني بها بها في أوقات أخرى أفضل من هذه. لكنني بدلاً من ذلك وجدت لائحة بالتمارين التي قامت

(1) Ivanhoe: مدينة في منيسوتا، رواية لوالتر سكوت.
(2) رواية لروديارد كيبلنغ.
(3) رواية إملي برونتي المعروفة.
(4) رواية للويزا ماي ألكوت.

بها والصفحات التي قرأتها. وقد نسخت من مكان ما دعاء المائدة، الأمر الذي كان له وقع أرستقراطي، كون هذا الدعاء كان مقتضباً وواضحاً وليس بالغ الوقار. وقد كتبت تحته بأحرف كبيرة. «من اليمين إلى اليسار، من اليسار إلى اليمين»[1]. إذا كنت آمل في أن أجد شيئاً من لوسيل القديمة، فمن الواضح أنني ما كنت لأجده في ذاك الدفتر. لكن في اليوم نفسه الذي اختلست فيه النظر إلى الدفتر اختفى عن المكتب. أظن أنها عقدت شريطه بطريقة خاصة تدلها إذا ما أقدم أحدهم على التطفل عليه، إذ أنها صارت شديدة الحرص على خصوصيتها. حين اختفى الدفتر تخيلت أن لوسيل قد بدأت تكتب أفكارها فيه، وحتى أنني بدأت أتخيل ما يمكن أن تكون. بالتأكيد ستكتب في مكان ما فيه أنني أزداد شبهاً بسيلفي يوماً بعد يوم، لأنها قالت لي مرة أو اثنتين أنه من الغريب أن أقضي كل هذا الوقت مثلما أفعل ناظرة من النوافذ، وأنه من الغريب أن يربط المرء شعره برباط أكياس البقالة.

لو كنت أكتب يومياتي في ذلك الوقت - إذ جعلني دفتر لوسيل أفكر من وقت لآخر كيف ستبدو أيامي لاحقاً - لكنت سجّلت ربما اكتشافي ورقة عشرين دولار رثة مثبتة بدبوس داخل الجهة اليمنى من سترة سيلفي. وهذا لم يقلقني كثيراً. فعلى الأرجح كانت موجودة هنا منذ وقت طويل. بيد أن وجودها هناك ذكرني بعاداتها وتحركاتها كمرتحلة والتي كانت تشتت انتباهي عن لوسيل. كان واضحاً الآن أن

(1) المقصود هنا أن لوسيل تكتب لنفسها ملاحظة حول بعض آداب المائدة= يتم تمرير الأطباق من اليمين إلى اليسار ويتم رفعها من الشمال إلى اليمين.

لوسيل سترحل عما قريب. كانت مصممة على الأمر. رحت أراقبها – هنا كان اللغز ثانية، وهذه المرة بطيئاً مسهباً. وكانت كل يوم تتحضّر للخروج – وبأي عناية! – وذات يوم ستفعل.

في اليوم الأول من المدرسة انسلت باكراً من البيت وغادرت دوني. رأيتها تسير وحيدة، على مسافة بعيدة أمامي، بحذاء الأوكسفورد[1] الأبيض الزاهي والبلوزة البيضاء النضرة، وشعرها المائل إلى حمرة النحاس يتوهج في الشمس.

حسناً، فكرت، هي مثلي وحيدة. وبعد ساعة من بدء المدرسة أتت فتاة بمذكرة إلى الصف تطلب مني الذهاب إلى مكت
ب المدير. التقيت لوسيل في الردهة، ومشينا معاً إلى المكتب دون كلام. كان اسم المدير السيد فرانش. أجلسنا قبالة مكتبه وراح يلعب بقطعة من الطبشور. كان رأسه صغيراً ناعماً، ويداه بحجم يدي فتى وشديدتي البياض. راح يحملق بالطبشورة متفرساً بنا من تحت جفنيه. فكرت أنه يفعل ذلك متعمداً لكي يوحي بقدر معتدل من السلطة والغموض، وإن خفّف سلوكه قليلاً بارتدائه جوربين جوربين ملونين ألواناً فاقعة.

قال: «أنتما أيتها الفتاتان فوتا نصف السنة العام الفائت. ماذا ستفعلان بهذا الشأن».

قالت لوسيل: «أعطنا المزيد من الواجبات، يمكننا أن نستلحق أنفسنا نستدرك ما فاتنا».

قال: «حسناً. أنتما فتاتان ذكيتان. ستبليان حسناً إذا بذلتما جهداً،

(1) Oxfords: نوع من الأحذية الخفيضة.

وما نأمل تحقيقه»، قال وهو يقيس كلماته «هو تغيير في الموقف».

ردّت لوسيل: «لقد تغيّر موقفي».

راح ينقل نظره بيننا.

«إذن لست بحاجة إلى سماع عظتي القصيرة يا لوسيل؟».

قالت: «لا، لست بحاجة إلى ذلك»..

«وماذا عنك يا روث؟».

«لا. أعني أظن أنه لا».

«تظنين ذلك».

تورَّد وجهي خجلاً. لم يكن السيد فرانش بالسيد غير اللطيف، لكنه كان يتلذذ بالأسئلة غير المجاب عنها. نقر طبشورته وراح يتفرّس بي.

قالت لوسيل: «تعرف ما الذي ستقوله. لا أعرف ما إذا كانت ستبذل جهدها هذه السنة أم لا. لا يمكنك التكلم إليها حول الأمور العملية فهي لا تعنيها».

قال السيد فرانش: «إنها تكبر. والتعليم يجب أن يكون مهماً للمرء. ما المهم بالنسبة إليك يا روث؟».

هززت كتفي. هزّ السيد فرانش كتفيه ساخراً مني وقال: «هذا ما أعنيه بمشكلة الموقف».

«لم تعرف بعد ما الذي يعنيها. إنها تحب الأشجار ربما تصبح عالمة نباتات أو ما شابه».

نظر إليّ السيد فرانش نظرة متشككة.

«أستكونين عالمة نباتات يا روث؟».

قلت: «لا أظن ذلك».

تنهد السيد فرانش ووقف ووضع الطبشورة من يده. «يجب أن تتعلمي التكلم نيابة عن نفسك، وأن تفكري عن نفسك، هذا أمر بالتأكيد عليك فعله».

نظرت لوسيل بثبات إلى وجهي. وقالت بهدوء:

«لديها سبلها الخاصة».

كان ذلك الوقت الوحيد الذي أمضيته ولوسيل في المدرسة. كنت غالباً ما أراها، لكنها كانت تتجنبني. أصبحت جزءاً من مجموعة فتيات يتناولن الطعام في قاعة «التدبير المنزلي»[1]. وأنا كنت أتناول الغداء في أي مكان أجد فيه فسحة كافية للجلوس دون أن يبدو أنني راغبة في الانضمام إلى مجموعة ما أو الانخراط في محادثة ما، وكنت أقرأ بينما آكل. كانت أوقات الغداء رهيبة. كنت بالكاد أتمكن من ازدراد الطعام، شاعرة دائماً بأنني أحاول أتناول شطيرة من زبدة الفول السوداني وأنا معلقة من رقبتي. وكنت أحبّ صف اللغة اللاتينية، حيث مكاني محدّد أبجدياً ضمن مجموعة. وصارت الواجبات المدرسية بحدّ ذاتها نوعاً من الملاذ، وصرت شديدة الدقة وإن كنت أحياناً أتعرق من الحاجة الملحة للذهاب إلى البيت لأرى إذا كان فارغاً، وحين أتمكن من التركيز ثانية على الزاوية القائمة كنت أشعر بالراحة بل بالسعادة. استدعاني السيد

(1) Home Economics: أو الاقتصاد المنزلي، صف دراسي بدأ في القرن الثامن عشر في أمريكا وكندا وبريطانيا بهدف تعليم الفتيات تحديداً بعض المهارات المنزلية كالأمور الصحية والغذاء والنظافة والخياطة...إلخ، واليوم هذا الاختصاص أصبح قائماً بذاته ويدرس في الجامعات في أنحاء شتى من العالم بما فيها بعض الدول العربية.

فرانش إلى مكتبه بعد شهر أو اثنين لكي خبرني بأنه مسرور بما سمعه من تغير موقفي فعلياً. كان لديه رزمة سميكة من أوراقي المرتبة الممتازة على زاوية مكتبه. لم أكن أعرف شيئاً وقتذاك، ولا أعرف شيئاً الآن، عن طرق عمل أمور مثل الموقف، وإذا أرضاه أنه لدي موقف، وأنه قد تغير، فما كنت لأجادله. لكن الحقيقة كانت أنني فضلت اللاتينية على أوقات الغداء، وعلى أحلام اليقظة، وكنت أخشى الذهاب بمفردي إلى البحيرة في الخريف.

كانت سيلفي تمضي جلّ وقتها عند البحيرة. وكانت تعود إلى البيت أحياناً مع سمك في جيوبها. فتغسلها تحت الصنبور لكي تخرج النسالة من خياشيمها وتقليها مع رؤوسها وتتناولها مع الكاتشاب. أما لوسيل فصارت نيقة تتغذى على حساء الخضروات والجبنة البيضاء التي كانت تتناولها بمفردها في الحديقة أو على الشرفة أو في غرفتها. وكنت وسيلفي نجلس صامتتين على العشاء، في العتمة. اعتبرت سيلفي غياب لوسيل نوعاً من التوبيخ أو الصدّ، وحزنت بسببه بوضوح، لأنها صارت تعتصم بالصمت ولا تحكي لي أي قصص.

قالت سيلفي مدمدمة: «كان الجو بارداً اليوم»، وقد التفتت إلى النافذة الزرقاء واتسعت عيناها ورقتا كعيني امرأة عمياء، بينما تتعانق يداها ببطء للحصول على الدفء. العظام، العظام، فكرت، في غمد جيد من اللحم مثل قفازات الأحد. كانت يداها طويلتين، وعنقها طويلاً ووجنتاها هزيلتين. تساءلت ما إذا يمكن تدفئتها وإقاتتها. لو أنني احتضنت هذين اليدين النحيفتين أيمكنني أن أبث الدفء فيهما؟

قلت: «بقي بعض الحساء».

فهزت رأسها، لا شكراً لك.

ذات ليلة بينما كنا جالستين على هذا النحو، غادرت لوسيل البيت إلى حفل راقص مرتدية ثوباً مشمشياً خاطته في حجرة الخياطة في المدرسة. ألقت معطفها المدرسي على كتفيها من دون أن تدخل يديها في الكمين، قالت تصبحان على خير وخرجت تنتظر الذي واعدها بجانب الطريق. حين أقفلت لوسيل الباب وراءها بدا البيت فارغاً جداً. جلست وحيدة أشاهد سيلفي، وشعرت أنها لن تتحرك.

قالت سيلفي: «أريد أن أريك شيئاً جميلاً. إنه مكان رائع عثرت عليه. هناك واد صغير يقع بين هضبتين حيث بنى أحدهم بيتاً وزرع بستان شجر مثمر وحتى إنه بدأ بحفر بئر. كن هذا منذ زمن بعيد. لكن الوادي ضيق جداً، ويمضي شمالاً وجنوباً، لذا بالكاد تصل إليه أشعة الشمس. الجليد يبقى على الأرض طوال اليوم، حتى يوليو. بعض أشجار التفاح ما زالت حية، لكن ارتفاعها لا يزيد عن كتفي. إذا ذهبنا إلى هناك الآن سنجدها جميعاً مغطاة بالجليد. الجليد سميك إلى حدّ أن العشب يطقطق حين تدوسين عليه».

«أين هو هذا المكان؟».

«شمالاً. وجدت قارباً صغيراً. لا أظن أنه ملك أحد. أحد مساند المجاذيف متزعزعة، لكنه لا يرشح ماء أو ما شابه».

«أرغب في الذهاب».

«غداً؟».

«لا، لدي دروس في الغد».

«يمكننا الذهاب الاثنين لو أحببت. يمكنني أن أكتب رسالة للمدرسة».

«الاثنين لدي امتحان. لهذا عليّ أن أدرس».

«في يوم آخر إذن».

«أجل».

«هل ستدرسين الآن؟».

«يجب أن أكتب تقريراً عن كتاب».

«أي كتاب؟».

«الأمير والشحاذ».

«لا أتذكر كثيراً هذا الكتاب».

«إنه جيد جداً».

قالت سيلفي: «يجب أن أقرأ، لا أعرف لِمَ توقفت عن القراءة. لطالما استمتعت بها».

صعدت إلى حجرتي وصعدت خلفي. وجدت رواية «إيفانهو» على نضد الزينة وتمددت على جهة لوسيل من السرير، حاملة الكتاب فوق وجهها. حين تضطجع سيلفي لا يكون هنالك أي انبساط أو انمعاج في جسدها. حتى حين تكون نائمة يحتفظ جسدها بالوضعية التي يتخذها شخص اعتاد النوم على مقاعد الحدائق، وغالباً ما كانت تبقى منتعلة الحذاء.

لبعض الوقت أنعمت سيلفي النظر في الكتاب بتركيز واهتمام. ثم

أخفضت الكتاب بضعة إنشات وراحت تنظر إلى السقف بالتركيز نفسه تماماً. أخيراً وضعت الكتاب في حضنها. حتى حين جلست أمام نضد الزينة وظهري لها، كنت واعية لحضورها ممددة هناك، ولم أستطع التركيز على عملي.

«سيلفي»، قلت مرة، لكن عيناها لم تتحركا. انتظرت وقتاً طويلاً عودة لوسيل إلى البيت، رغم أنه حين عادت انكببت على النضد وادعيت أنني لم ألاحظ مجيئها.

صعدت الدرج واستندت على الباب.

«مرحباً روثي».

«مرحباً لوسيل، أكان الرقص ممتعاً؟».

هزت كتفيها. «كان لطيفاً».

أشارت نحو سيلفي وقالت: «إنني متعبة سأنام في الأسفل. يجدر بك أن تغطيها بشيء ما»، ثم هبطت الدرج ثانية.

سحبت الكتاب من يديها وأخلعتها حذاءها وغطيتها بلحاف حتى وجهها. رمشت عيناها ثم فتحتا ثانية.

«أأنت صاحية يا سيلفي؟».

ابتسمت «ماذا، أجل».

«بمَ كنت تفكرين؟».

«غالباً بأيام زمان، بأناس لا تعرفينهم. هل عادت لوسيل؟».

«أجل، قالت إنها ستنام في الأسفل».

«حسناً، لا يجب أن ندعها تفعل ذلك». نهضت سيلفي وانتعلت

حذاءها ونزلت إلى الأسفل، وعادت بعد دقائق قليلة وقالت: «لوسيل ليست هنا».

«لابدّ من أن تكون هنا».

«لم أجدها».

لوسيل، كما علمنا في اليوم التالي، ذهبت بثوب الرقص والخفين المشمشيين إلى منزل السيدة رويس، معلمة «التدبير المنزلي». مشت حول البيت قارعة على كل نافذة يمكنها الوصول إليها، حتى أيقظت أخيراً السيدة من نومها العميق، وحين دعيت إلى الداخل أمضيتا الليل تتحدثان عن مشكلات لوسيل المنزلية. كانت السيدة رويس سيدة وحيدة، أكثر توتراً من أن تكون قادرة على إقامة الصداقات مع الأولاد. كانت تحنو على تلاميذها بتكريس مرتعب. ومن وقت لآخر كانت تقوم بغارة على لا مبالاتهم - كانوا يضحكون من نكتة صغيرة، أو يوجهون ملاحظة خفيفة لها. ومرة حبسها بعض الفتية في غرفة التموين، ومرة رسم أحدهم رسماً كاريكاتورياً لوجهها وعلقه قرب الكؤوس الرياضية. وفي أوقات كهذه كانت تطفر عيناها بالدموع. لكن الحرج كان روتيناً رتيباً لها، في حين كان القبول حيوياً ومهماً ويبقى في الذاكرة.

وها هي لوسيل تذهب في العتمة إلى بيتها. أعطتها السيدة رويس غرفة الضيوف. في الحقيقة تبنتها ولم يعد لدي أخت بعد تلك الليلة.

فوجئت بمغادرة لوسيل بهذه الفجائية. رحت أقطع شارع «سيكامور» جيئةً وذهاباً - ليس بحثاً عنها، بالطبع، لكن أمثل كأنني

أفعل ذلك، بما أنه لم يكن لدي طريقة أخرى لكي أهدّئ من روع نفسي. كانت ليلة باردة مصقعة. عرفت أن لوسيل لن تذهب في العتمة وحدها لو لم يكن لديها مكان تذهب إليه. لا أحد يمكن أن يكون مهتماً بحال لوسيل أكثر منها.

حين عدت إلى البيت كانت سيلفي جالسة على كرسي في المطبخ ودليل الهاتف في حضنها ويداها في داخله.

قالت: «يجب أن نتصل مأمور البلدة».

«حسناً».

فتحت الكتاب ومسدته حيث فتحته بيديها.

«أتظنين أنه علينا أن نستدعيه».

أظن ذلك».

«الوقت متأخر».

«ربما ينبغي أن نتصل به في الصباح».

«ربما سيتساءل لماذا تأخرنا كثيراً».

«هذا صحيح»، قالت سيلفي، ثم أغلقت الكتاب ووضعته جانباً.

«من الأفضل عادة عدم إزعاجهم. لديهم هذه الطريقة. فجأة كل ما تفعلينه يبدو خطأ. أبسط الأشياء». ابتسمت وهزت كتفيها.

«لعلها ذهبت إلى منزل صديقة ما».

قالت سيلفي: «أنا واثقة من أنها على خير ما يرام».

«لا أريد حقاً أن أزعج مأمور البلدة».. ستعود في أي لحظة. سأبقى صاحية بانتظارها».

في صباح اليوم التالي قرعت السيدة رويس بثيابها الكنسية الباب. وتكلمت هي وسيلفي لبعض الوقت عند الباب. شاهدتهما من نافذة الردهة – العجوز الضئيلة السيدة رويس ببزتها البنية وربطة العنق الزهرية، تتكلم باهتمام مع سيلفي، التي كانت تهز كتفيها أو رأسها وتنظر جانباً. أخيراً دخلت سيلفي وصعدت الدرج ثم نزلت حاملة كتب سيلفي ودفتر يومياتها. وضعتها على الدرج وحملتها السيدة رويس واحداً واحداً ووضعتها في حقيبة من القماش.

عاودت سيلفي الدخول قبل أن تنهي السيدة روث توضيب الأغراض وجلست على الكنبة قربي وحملت أحد مناديل المائدة وراحت تنتفه بيديها. كانت مناديل جدتي كبيرة متيبسة قاسية كبراعم الصبار، وإذا بهذا المنديل بين يدي سيلفي يصير رخواً مترهلاً.

قالت سيلفي: «تقول لوسيل أنه يمكنك الحصول على أغراضها. لا تريد شيئاً من ثيابها، ولا حتى فرشاة شعرها».

«ربما لا تنوي الغياب طويلاً».

ابتسمت: «ربما لا».

«مسكينة روثي. حسناً سنكون صديقتين مقرّبتين. هناك بعض الأشياء التي أودّ أن أريها لك».

«غداً».

«لكن غداً هو الاثنين».

«يمكنك كتابة عذرٍ لي».

«حسناً».

8

في تلك الليلة بعد العشاء أعدّت سيلفي غداء يوم غد، وعيّرنا المنبه على الساعة الخامسة ونمنا مبكراً بثيابنا. وعلى الرغم من ذلك اضطرت سيلفي إلى أن تلحّ في إيقاظي، قارصة خدّي، وشادّة أذني. ثم أنزلت رجلي أرضاً وجذبتني لأقف. جلست على السرير ثانية ووقعت على الوسادة، فضحكت.

«انهضي!».

«بعد دقيقة».

«الآن! الإفطار جاهز!».

تكوّمت على الملاءات، متوسّلة الدفء والنوم، وهما يرتفعان عني كالضباب.

«انهضي! انهضي! انهضي!»، قالت سيلفي. أمسكت يدي، وربتت عليها وأخذت تداعب أناملي. وحين لم أعد أشعر بما يكفي من

الدفء أو النعاس استويت جالسة.

قالت سيلفي: «فتاة طيبة».

كانت الغرفة معتمة، حين أضاءت سيلفي الإنارة ظلت الغرفة تبدو قاتمة مفعمة بالنوم. كان زعيق الطيور حاداً وبدائياً يلسع كالشرر أو وابل البَرَد. وحتى في داخل البيت كانت رائحة الهواء تنضح برداً. ذلك النوع من الريح الذي ينشر ضوع المسك في أشجار التنوب ويحمل البرد من البحيرة وينشره في شتى الأرجاء.

لم يكن من شيء في الخارج - لا رائحة دقيق الشوفان أو الحطب - مما يشير إلى الراحة البشرية، وحين ذهبت خارجاً شعرت بالبؤس، فقد كنا في نوفمبر تقريباً وقبل الفجر بقليل ولم أكن راغبة في مبارحة السرير.

قالت سيلفي: «هيا روثي»، وشدتني من يديّ باتجاه الباب.

قلت: «حذائي». فتوقفت، وهي ما زالت ممسكة بيدي، وانتعلتهما، لكنها لم تنتظرني حتى أعقد الشريط.

«هيا، هيا، فلننزل الدرج، الآن».

«أعلينا الاستعجال؟».

«أجل، أجل، يجب أن نستعجل». رفعت البويب ونزلت السلم قبلي وهي ما زالت تشدّني من إحدى يديّ. في المطبخ توقفت لكي تغرف بيضة من المقلاة وتضعها في شريحة من الخبز.

قالت: «هذا إفطارك، يمكنك أن تتناوليه ونحن نمشي».

«مهلاً، يجب أن أعقد شريط حذائي»، قلت مخاطبة ظهرها وهي

تسبقني إلى الشرفة. لكن الباب الشبكي أقفل وراءها. عقدت شريط الحذاء ووجدت معطفي وألقيته بسرعة عليّ، وهرعت وراءها.

كان العشب مزرقاً بفعل الندى المصقع. وكان الطريق بارداً جداً بحيث أنه رن تحت خطواتي، وتكتلت البيوت والأشجار والسماء في سواد مسطّح واحد. زعق طائر زعقة حادة تشبه صوت أحدهم وهو يحفّ إبريقاً، ثم صمت. كنت قد أسلمت كل مشاعري لمساوئ البرد والعجلة والجوع، وتكوّرت على ذاتي، كأنني ما زلت نائمة.

أخيراً رأيت سيلفي أمامي، فوضعت يديّ في جيبي، وأملت رأسي، ومشيت بخطوات واسعة مثلها، وكأنني ظلها، وتحركت خلفها فقط لأنها تحركت لا لأنني أردت هذا الإيقاع، وضع اليدين هذا في الجيبين، وإمالة الرأس. لم يتطلّب مني اللحاق بها إرادة أو جهداً. فعلت ذلك في نومي. سرت وراءها حتى وصلنا إلى الشاطئ، وكان كلّ شيء ساكناً هامداً وفكرت إننا متشابهتان، وإنها يمكن أن تكون أمي أيضاً. كورت نفسي ونمت في هيئتها كطفل لم يولد بعد.

قالت سيلفي حين وصلنا إلى الشاطئ: «انتظريني هنا».

انحدرت إلى موضع تنبت فيه الأشجار على مقربة من الماء، وعادت بعد بضع دقائق. قالت: «لم أجد القارب حيث تركته! حسناً سيكون علينا البحث عنه. سأجده. أحياناً يستغرق الأمر وقتاً، لكنني دائماً أجده». ارتقت صخرة تمتد من سفح تلة إلى فوق الماء تقريباً، وراحت تنظر إلى الشاطئ الممتدّ.

«أراهن أنه هناك». عاودت النزول من الصخرة، واتجهت جنوباً.

«أترين تلك الأشجار؟ وجدته مرة من قبل في مكان كهذا تماماً، وكان مغطى كله بالأغصان».

اقترحت: «ربما كان أحدهم يحاول إخفاءه».

«أتتخيلين ذلك؟ دائماً أعيده إلى المكان الذي أجده فيه. لا أمانع أن يستعمله سواي. تعرفين، ما دام لا يخربه».

انحدرنا إلى جون تظلله أشجار البتولا والحور. قالت سيلفي «هذا قد يكون مكاناً ممتازاً له». لكننا لم نجده هناك.

قالت: «لا تفقدي حماستك، لقد جئنا باكراً جداً. لا يمكن أن يكون قد سبقنا أحد إليه. انتظريني. مضت إلى الدغل. وراء جذع ساقط، ووراء أجمة من أشجار الصنوبر القصيرة السمينة، كانت كومة من أغصان الصنوبر والحور والإبر البنية والوريقات. وكان يبرز هنا وهناك طرف أو زاوية مشمّع.

قالت سيلفي: «انظري إلى هذا. لقد تجشّم أحدهم الكثير من العناء». أزاحت الأغصان بقدمها حتى ظهر من أحد الجوانب المشمّع وهيكل المركب. ثم رفعت جانب القارب حتى وقع على كومة الأغصان. بحثت تحت التربولين الذي كان منشوراً فوق القارب حتى عثرت على المجاذيف. وضعتها تحت أحد المقاعد. أحدث القارب صريراً سميكاً دافئاً حين دفعناه عبر إبر الصنوبر. وقد حفّ بخشونة ببعض الحجارة الكبيرة، ثم انجر على الرمل. دفعناه إلى الماء.

قالت سيلفي: «اركبي، بسرعة». صعدت وجلست على لوح ضيق متشقق، بمواجهة الشاطئ.

قلت: «هناك رجل ينادي علينا».

«آه، أعرف». دفعت سيلفي القارب إلى الماء بدفعتين قويتين، ثم واضعة متمسكة بحافتي المركب شقلت نفسها إلى القارب الذي بدأ يتقدّم ببطء.

قالت: «يجب أن أجلس على ذاك المقعد». وقفت واستدارت وانحنت لكي تمسك طرفي القارب، فزحفت من بين رجليها لكي تحتلّ مكاني.

طرطش حجر في الماء على بعد إنشات من وجهي، ثم سقط آخر داخل القارب مقعقعاً. لوحت سيلفي بالمجذاف فوق رأسي، ووضعته في مسنده، ثم جثمت وجذبتنا بقوة بعيداً عن الشاطئ. مرّ حجر آخر قرب ذراعي. نظرت خلفي فرأيت رجلاً ضخم الجثة بحذاء يصل إلى الركبتين وبنطال أسود وسترة حمراء مربعة النقش، كما كان يعتمر واحدة من تلك القبعات اللباد القبيحة التي يزينها الصيادون هناك بالريش وصنارات الصيد، وأشياء لامعة وما شابه. كان صوته مفعماً بالغضب.

قالت سيلفي: «تجاهليه فحسب». وشدّت ثانية، حتى صرنا أبعد من متناوله. تبعنا الرجل وخاض في الماء حتى أعلى حذاءه.

صاح: «أيتها السيدة!».

قالت سيلفي: «تجاهليه. دائماً يتصرف هكذا. إذا ظن أن أحدهم يكترث بأمره يستمر في الأمر أكثر».

استدرت ونظرت إلى سيلفي. كانت تدير القارب بقوة وخفة. حين

صرنا على نحو مئة ياردة من الشاطئ حرفت القارب باتجاه الشمال، وكان الرجل الذي عاد الآن إلى الشاطئ ما زال يصرخ ويرقص غضباً ويرشق الحجارة نحونا.

قالت سيلفي: «أمر محزن. سيصاب بنوبة قلبية ذات يوم».

اقترحت: «لابدّ من أنه قاربه».

هزّت سيلفي كتفيها، وقالت: «أو ربما يكون مجرد معتوه. بالتأكيد لن أعود لأكتشف جلية الأمر». كانت رابطة الجأش بشأن فرارنا المكشوف وبشأن حذائها الرطب وحاشية معطفها المبللة. وجدت نفسي أتساءل ما إذا كان هذا سبب عودتها وقد حمّلت جيوبها بالأسماك.

«ألا تشعرين بالبرد يا سيلفي؟».

قالت: «بدأت الشمس تشرق». كانت الشمس فوق «فينغربون» صفراء بلون الأزهار. كان هناك بضع غيوم تلمع بلون زهري شديد البهوت. ثم ألقت الشمس شعاعاً طويلاً على الجبل، تلاه شعاع آخر، مثل حشرة طويلة القوائم تشق طريقها من يرقانتها، ثم ظهرت فوق القمة السوداء، كثيفة وحمراء ومفاجئة. وفي غضون ساعة أصبحت شمساً اعتيادية تنشر نوراً متواضعاً فوق العالم الاعتيادي، وأشعرتني هذه الفكرة بالراحة. استمرت سيلفي بالتجذيف، بقوة وبطء.

قالت: «لن تصدقي كم من الناس يعيشون هناك في الجزر وفي أعالي التلال. أراهن أنه هناك مئة شخص أو أكثر. أحياناً ترين دخاناً قليلاً ينبعث من بين الأشجار. قد يكون هناك كوخ يسكنه عشرة أطفال».

«أيقومون بصيد الطرائد والأسماك فحسب؟».

«غالباً».

«أرأيت أحدهم يوماً؟».

«أعتقد أنني فعلت. أحياناً، حين أحسب أنني لمحت دخاناً أمشي باتجاهه، ومن وقت لآخر أكون واثقة من أنه هناك أطفال يحيطون بي. عملياً يمكنني سماعهم».

«آه».

«هذا أحد أسباب احتفاظي البسكويت في جيبي».

«فهمت».

جذفت سيلفي في المياه الذهبية وقد لاحت على وجهها ابتسامة رضى عن النفس. «سأخبرك شيئاً. ستحسبينني مجنونة على الأرجح. حاولت الإمساك بأحدهم ذات مرة»، ضحكت، «لم أقصد أن آسره، لكن أن أغويه بحلوى الخطمي لكي أتمكن من رؤيته. إذ ما الذي سأفعله بطفل آخر؟».

«إذن رأيت أحدهم فعلاً».

اكتفيت بوضع الحلوى بين أغصان إحدى أشجار التفاح كل يوم تقريباً على مدى أسبوعين. ثم قبعت متوارية عن الأنظار نوعاً ما، على عتبة باب ما زالت موجودة هناك ينمو حولها الليلك. أما البيت نفسه فقد تحول إلى قبو منذ سنوات، بالطبع. جلست هناك وانتظرت، لكنه لم يأت قط. وقد ارتحت قليلاً، فطفل كهذا قد يعض أو يخرمش، لكنني أردت رؤيته حقاً».

«حدث هذا في المكان الذي نقصده الآن».

ابتسمت سيلفي وأومأت برأسها «الآن عرفت سري. ربما يحالفك الحظ أكثر مني. على الأقل لسنا مضطرتين إلى الاستعجال. كان من الصعب العودة إلى البيت على الوقت من أجلك أنت ولوسيل».

استمرت سيلفي بالتجذيف، واندفع بنا القارب بين المياه المتلاطمة. أخذت سيلفي تحملق بصمت في السماء. ومن وقت لآخر كنت أنظر إلى السطح المعتم للمياه مضبّبة ولزجة كاليشب. رأيت ريش نوارس والأبدان السوداء لبعض الأسماك. وقد تناثر انعكاس السماء على صفحة الماء متكسراً بلون زهر النرجس مثلما يتناثر البريق على الحرير، وارتفعت النوارس إلى أعالي السماء بيضاء ناصعة حين تمكن رؤيتها، ذلك أنها كانت تختفي شرقاً، في حين تبرز غرباً في ضوء معتدل.

دائماً يوحي لي الفجر وعوالمه بالجنة، ذلك المكان الذي عرفت دائماً أنني لن أجد الراحة فيه. يذكرني بلوحات جدي، التي لطالما اعتبرتها رؤى عن الجنة. وهو من جرّنا إلى هذه البحيرة المريرة قبل أن أولد، مثل الأطفال الذين رسمهم على أدراج نضد الزينة، الذين تسبح ملابسهم في أثير ربما كان حافة الدوامة التي ستجرهم – عراة صارخين– إلى الأسفل من تلك السماء الصقيلة. كان مجذاف سيلفي يحدث دوامات في الماء، فتغرق فيها بعض الوريقات جارة معها الريش. وكان التيار الذي يجعلنا ننحرف قليلاً باتجاه مركز البحيرة قوياً كتيار نهري، ولا يحدث دوامات، رغم أن آخر هجرة لجدي جعلته يستقر في قاع البحيرة. بدا أن قارب سيلفي ينزلق نحو الجانب الغربي من كل موجة. وفكرت أننا نمضي في دائرة، ولن نبلغ الشاطئ أبداً، وإذا كان ثمة دوامة، وجذبتنا

إلى العالم الأظلم، حيث تنسكب الأصوات الأخرى في آذاننا حتى تبدو كالأغنيات، ويقتحم مشهد الماء عيوننا، ويغزو طعمها أحشائنا ويحلّ عظامنا، ونألف مواسم المكان وعاداته كأنه ليس من مكان سواه.

تخيَّل جدي مضطجعاً لسنوات في عربة القطار، يشاهد الصباح من خلال نافذة زرقاء صغيرة. قد يرانا ويفكر أنه كان يحلم ثانية بالأرواح المتدفقة إنما عديمة الوزن في سماء مرسومة تطفو مجردة. وحين يمر ظلنا قد يرى قمر النهار قطعة مجوفة عديمة الفلك، ويعتبرها صورته في الزجاج. بالطبع كان على بعد أميال، إلى الجنوب، أسفل الجسر.

أخيراً قادتنا سيلفي نحو لسان صخري يمتدّ فسيحاً نحو البحيرة. رأيت أن الجبل الذي يقف وراء الجبل الذي يمتدّ منه اللسان مقطوع الجانب، وقد التمعت حجارته الزهرية مثل ندبة على أذن كلب.

قالت سيلفي: «يمكنك أن تري أين نحن من هنا، لقد بنوا أكواخهم بجانب هذه السفوح تماماً». قربتنا من اليابسة ونزلنا من القارب وجررناه إلى الرمل. وتبعت سيلفي على طرف اللسان الصخري.

كانت الجبال التي تسور الوادي قريبة جداً، وقد تراكبت فوق بعضها بعضاً. ولعل ثوران الجليد في دهور من العنف البطيء قد تركت المكان في فوضى عظيمة. من خارج الجرف أو الوادي امتدت تربة اسفنجية نبتت فيها الأعشاب البرية. تسلقناها عبر الطبقة العميقة المكسوة بالحصى من مخلفات الطمي وترسبات المطر، ووصلنا إلى المكان الذي أخبرتني عنه سيلفي حيث هناك أشجار قزمة وزهور الليلك وعتبة حجرية وبيت متداع، كلها بيضاء مكسوة بالجليد. ابتسمت سيلفي

قائلة: «جميل أليس كذلك؟».

«جميل، لكنني لا أعرف كيف يمكن أن يرغب أحد في العيش هنا».

«المكان رائع حقاً في الشمس، سترين بعد قليل».

«حسناً، لكن دعينا لا نبقى هنا، البرد شديد هنا».

حدقت سيلفي بي مشدوهة بعض الشيء. «لكنك سترغبين في مشاهدة الأطفال».

«حسناً».

«حسناً أظن من الأفضل أن نمكث بهدوء في مكان محدّد».

«أجل لكن البرد شديد هنا».

هزّت سيلفي كتفيها، «ما زال الوقت مبكراً».

عدنا إلى الشاطئ وعثرنا على بعض الصخور واتخذناها مجلساً، بعيداً من مجرى الريح قبالة الشمس. شبكت سيلفي كاحليها وطوت ذراعيها. بدا أنها غرقت في النوم.

قلت بعد قليل: «سيلفي؟».

ابتسمت «صه».

«أين غداؤنا؟».

«ما زال في القارب. لعلك محقة، من الجيد أن يرونك تأكلين».

وجدت حقيبة من حلوى الخطمي بين الأشياء الأخرى التي حزمتها سيلفي في شرشف طاولة مخطّط بالمربعات- موزة سوداء، قطعة من السالامي اخترقتها سكين، جناح دجاج وحيد أصفر مثل تلويحة

انهزام رقيقة صغيرة، بقايا كيس من رقائق البطاطا. مزقت السيلوفان وأخرجت الخطمي لكي أملأ جيوبي. ثم جلست قرب سيلفي وأشعلت ناراً متواضعة من عيدان الخشب المتناثرة هناك وشويت بالسيخ واحدة حتى بدأت تلتقط النيران. تركتها تحترق حتى اسودّت كالفحم، ثم قشرتها بأصابعي وأكلتها، وحملت الجانب الرخو الذي ما زال ملتصقاً بالعود ووضعته فوق النار، وهكذا مرّ الصباح.

وقفت سيلفي وتمطّت، وأشارت نحو الشمس، التي كانت شمساً شتوية بيضاء صغيرة احتلت سمت السماء مع أنه كان قد حلّ الظهر بالتأكيد.

قالت: «يمكننا الصعود إلى هناك الآن». تبعتها صعوداً إلى السفح ثانية ورأيته قد تغير كثيراً. بدا كأن الضوء قد سلّ برفق من الندى المتجمّد إزهاراً، بعد أن كان المكان قبلاً أجرد وجافاً كالملح، وإذا بالعشب الآن يلتمع بألوان تويجية. وتناثرت قطرات الماء من الأشجار وفيرة كالتويجات.

قالت سيلفي: «أخبرتك أنه جميل».

تخيَّل، أمام مشهد كهذا مدينة مثل قرطاج وقد نثر الملح فوقها، فمات الزرع كله، وغاصت حبات الملح عميقاً في التربة، حتى أزهرت أخيراً وفرة من الوريقات والأشجار من صلب الندى المتجمّد والملح. أي إزهار يمكن أن يكون في حديقة كهذه؟ الضوء يجبر كل تويجة مالحة على التفتح وعلى الإثمار بثقل بكريات لمّاعة من الماء)— والخوخ والعنب ليسا بعيدين عن هذا. وحيث يكون الملح تكون الحاجة أعظم

إلى الري. إذ أن الحاجة يمكن أن تنمو ضمن كل ما يعوّض عنها. التوق إلى شيء ما والحصول عليه أشبه بالشيء وظله، كما تكون ثمرة التوت حلوة على اللسان بقدر توق المرء لتذوقها إذ متى يتشظى المذاق إلى ألوان ونكهات من الإيناع والتربة، ومتى تعرف حواسنا أي شيء معرفة مطلقة كما حين نفتقر إليه؟ وهذا إنذار جديد – سيعود العالم كاملاً. فأن يتمنى المرء يداً تلامس شعره يكفي لكي يحسّ بها. فإذن مهما خسرنا، فإن التوق الشديد يعيده ثانية. مع أننا نحلم وبالكاد نعرف، فالتشوق، مثل الملاك، يرعانا، يمسد شعورنا، ويجلب لنا الفراولة البرية.

رحلت سيلفي. غادرت من دون كلمة أو صوت. حسبتها تمازحني، ربما تختبئ في الدغل وتراقبني. ادعيت أنني لا أعرف أنني وحدي. فهمت لماذا حسبت سيلفي أن الأطفال يأتون إلى هنا. أي طفل يرى قطرات الماء المتلألئة على أطراف الغصون، وهي تتكوّر وتسقط على الظلال الناعمة للندى المتجمّد أسفل كل شجرة، لابدّ من أن يأتي ثانية ليراها.

لو كان ثمة ثلج لصنعت تمثال امرأة تقف في الممر، بين الأشجار. ربما كان اقترب الأطفال أكثر لكي يروها. صارت زوجة لوط ملحاً عقيماً لأنها كانت مفعمة بالخسارة والأسى، فنظرت إلى الخلف. لكن هنا ستلتمع زهور نادرة في شعرها وعلى صدرها، وبين يديها، وستكون محاطة بالأطفال، لكي يحبوها ويتأملوا جمالها ويضحكوا من زينتها المبهرجة، كأن كل الزهور كلّلت شعرها ورميت عند قدميها، ولكي يسامحوها، بوفرة وشوق، على التفاتها إلى الوراء، مع أنها لم تطلب

المغفرة أبداً، مع أن يديها كانتا جليداً ولم تلمسهما، وستكون أكثر من أم لهم، هي بالغة الهدوء، بالغة السكون، وهم اليتامى البرّيون.

خرجت من الوادي وانحدرت على السفح الترابي عند مدخله. كان الشاطئ فارغاً وصامتاً كالعادة. لابدّ من أن سيلفي فوق الحافة، فكرت، وتخيلتها تخفي القارب بشكل أكثر أمناً. كان هذا إجراء وقائياً منطقياً من قبلها، هي المقتنعة بأن الغابة مسكونة. جلست على زند خشب ورحت أصفّر وأرشق الحجارة على طرف حذائي. عرفت لماذا شعرت سيلفي بوجود أطفال في الدغل. أنا أيضاً شعرت بذلك، وإن لم أفكّر كذلك. جلست على الزند أرشق حذائي، لأنني عرفت أنني إذا استدرت إلى الخلف ولو بأقصى سرعتي فإن الحضور الماثل خلفي سيختفي فوراً، ولن يعاود الظهور والاقتراب إلا حين أشيح النظر ثانية. حتى لو نطق قرب أذني، كما شعرت أنه على وشك أن يفعل غالباً، فحين أستدير لن أجد شيئاً هناك. بهذه الطريقة كان حضوراً لحوحاً مزعجاً غير أنيس، على نحو ما هو حضور الأطفال المستوحدين نصف البريين. لو كنت برفقة لوسيل لتجاهلنا هذا كله. وكنت أتجنب الشاطئ طوال الخريف، لأنني حين أكون بمفردي، يصبح أكثر صعوبة التغاضي عن الإلماحات المستفزة. أن تكون لديّ أخت كصديقة أشبه بالجلوس ليلاً في منزل مضاء. أولئك في الخارج يمكنهم مشاهدتك إذا شاؤوا، لكنك لا تحتاج إلى رؤيتهم. بل تقول ببساطة «هذه هي حدود اهتمامنا». إذا ما جست تحت النافذة حتى تصمت الجداجد، فسنسدل الستارة. إذا أردتنا أن نعاني من فضولك الغيور، فعليك أن تسمح لنا بألا نأخذ فضولك هذا

في الاعتبار. أي شخص لديه ارتباط إنساني بشخص واحد يكون على هذا القدر من الاعتزاز بالنفس، اعتزاز يوازي الراحة والأمان اللذين يقدّرهما الوحيدون حق التقدير ويشتهونهما. لقد كنت، إذا جاز التعبير، خارج المنزل طويلاً بحيث لاحظت هذا في نفسي. الآن لم يعد حافة ولا عتبة بيني وبين أولئك الأطفال الباردين الوحيدين الذين أكاد أشعر بأنفاسهم على خدي ويكادون يلمسون شعري. قررت أن أعاود الصعود وانتظار سيلفي عند القبو، حيث يستحيل أن تضيعني.

انتقل نور النهار إلى الجدار الشرقي من الوادي وشعّ بدفء على الأشجار الرثة شديدة الانحدار، تلك الأشجار السوداء القديمة التي نبتت على ذلك العلوّ. في الأسفل كان الظل فحسب وريح انجرفت نحو البحيرة على مستوى ركبتي تماماً، فخشخش الليلك. وكانت العتبة الحجرية أبرد من أن أقعد عليها.

بدا في البداية أنه ليس من عزاء لي هنا إطلاقاً، فدسست يديّ في جيبي، وتكوّمت على نفسي، ورحت أشتم سيلفي في قلبي، وأدخل ذلك بعض الراحة إلى نفسي إذ أعطاني ما أفكر به عدا عن الدغل وبمزيد من الجهد بدأت أفكّر بأمور أخرى. إذا نزلت إلى فتحة القبو، تفادياً للريح، يمكنني أن أشعل ناراً وأتدفأ. وهذا لا يمكن فعله بسهولة بما أن القبو يقبع تحت خرائب البيت القديم.

كان أحدهم قد نقب هناك. وكانت معظم ألواح السقف الخشبية قد نُزِعت، وما تبقى بصورة إجمالية من الدعائم والألواح الخشبية

أقل بكثير من أن يصنع منزلاً. وكان هيكل السقف[1] منقصفاً تحت ثقل الثلج بكل تأكيد. كانت هذه على الأرجح بداية الانهيار الذي ربما يكون قد استمرّ بعد ذلك لأسابيع وسنين. سمعت مرة عن عائلة كانت تعيش بعيداً إلى شمال البحيرة علقت في البيت بفعل الثلوج وبدأ منزلها بالتداعي. فبادروا إلى إيقاف المائدة عامودياً ليسندوا بها رافدة السقف في الوسط لكن السقف بدأ ينقصف من طرفي الجدارين، سامحاً بدخول الريح، وأرخى ذلك بثقله على أطر النوافذ التي تحطّمت ألواحها الزجاجية. فلم يبق أمامهم سوى الثلج ليسدوا به كل تلك الفتحات. ولم يتجرّأوا سوى على إشعال نار خفيفة في الموقد تكفي لتدفئة مياه الشرب، كما قالوا، خشية من أن يذوب الثلج – الذي كان كل ما يبقي المنزل دون الانهيار التام – ويتزعزع فيسقط البيت على رؤوسهم. كان عددهم سبعة عشر شخصاً، وقيل إنهم نجوا من خلال تكديسهم أنفسهم ليلاً كالحطب تحت تسعة عشر لحافاً وما يوازيها من الحصر اليدوية[2]. وقيل إن الأم أبقت على الموقد قدراً من الماء والخل، كانت تضع فيه نعال أحذيتهم، وأيضاً قصاصات شعورهم ولحاهم وأظافرهم، ولحاء الصنوبر وقرني وعل ولبيّس أحذية طويل، وقد عاشوا على هذا السائل هذا الذي كانوا يسكبونه فوق الثلج لتمديده. لكن الناس في هذا الجزء من العالم يحبون التفاخر بالمشقات والمصاعب،

(1) Ridgepole: أي الرافدة الأفقية في أعلى سقف البيت والتي تعدّ أساس هذا السقف وبقية الألواح الخشبية التي تغطيه، وتكون قوية غليظة بطبيعة الحال.

(2) Hooked Rugs: الحصر المنسوجة يدوياً والمزينة بالرسوم لكي تعلّق على الجدران وهي من الحرف المعروفة بين سكان أمريكا الأصليين.

دون أن يكون لديهم ما يستحق الذكر سوى ذلك.

جميع البيوت في جبال «فينغربون» بنيت بالإجمال على شاكلة هذا البيت، من ألواح خشبية ثبّتت بالمسامير عامودياً إلى إطار، وقطع من الخشب ربما بعرض إنشين ثبتت فوق الشقوق التي بين الألواح. فإذا ما أخذ البيت بالانحناء، اتسعت الشقوق وتكسّرت القطع التي تسدّها، وتحطّمت ألواح النوافذ، وصار الباب عصياً على الفتح والإقفال إلا بشقّ الأنفس، حتى يصبح مستحيلاً تحريكه أخيراً.

أتصوّر أن هذا النوع من البناء ينتمي إلى مناخ أكثر اعتدالاً. ولا أعرف سرّ التمسّك به، ما دام يتسبّب بفرار الناس من بيوتهم بوتيرة تخيف حتى أهل «فينغربون». وإذا كان الطريق إلى الملاذ التالي مسدوداً بالثلج، فلن تُرى العائلة حتى يذوب الثلج. وكانت الغابة مليئة بالقصص عن هجرة جماعية جرت في وقت من الأوقات، ولم يكن العدد القليل من العائلات الموجودة في الغابة، وحتى على مقربة من البلدة، يؤيّد وجود مثل هذه القبيلة الضخمة من الأسلاف، ولو كانوا ميّالين، كما يجري وصف هؤلاء، على إبادة جماعية من هذا القبيل.

بيد أن المساكن المهجورة مثل هذا كانت قليلة، لذا ربما كانت جميع القصص عن السكان الذين طاولهم الفناء على هذا النحو، تنتسب إلى جذر واحد، إلى حكاية واحدة حملت في شتى الاتجاهات مثلما تنتشر صرخة إنذار واحدة بين الطيور في الغابة بأسرها وصولاً حتى السماء. ربما كان هذا البيت الوحيد المأهول في هذه الجبال وحين تداعى قد يكون بثّ آلاف الحكايات الأخرى غير مرئية في الريح، كالجراثيم التي

فقست من شرنقة واحدة عفنة، أو الملايين منها، إذ لم يكن ثمة ما يدعو للاعتقاد أن أحداً قد سمع جميع الحكايات عن الأشخاص معدومي المأوى الذين استوطنوا هذه الجبال، أو أن أحداً سيسمعها يوماً. ولهذا السبب ربما، حين رأونني وحدي، راحوا يشدون كمي. ولعلك لاحظت أن الناس في محطة الحافلات حين يلاحظون أنك وحيد مثلهم، تحين منهم نظرة جانبية في اتجاهك، نظرة ثاقبة وحميمة في وقت واحد، وإذا سمحت لهم بالجلوس قربك، فسيخبرونك أكاذيب طويلة عن أطفال لا يحصون رحلوا جميعاً، وأمهات جميلات وقاسيات، وفي أي حال سيخبرونك أنهم منبوذون وخائبو الأمل أو متعرضون للخيانة – أنهم لا ينبغي أن يكونوا وحيدين، وأن أحداثاً مأساوية من النوع الذي يقرأ عنه المرء في الروايات جعلت أوضاعهم استثنائية إلى هذا الحدّ. ولهذا السبب، حتى إذا كان ما يروونه صحيحاً، تجد أن لديهم العيون السريعة والأيدي النشطة وشغف الإطناب التي تميّز الأشخاص الذين يعرفون أنهم يكذبون. لأنه ما أن يكون المرء وحيداً حتى يستحيل تصديق أنه كان عكس ذلك يوماً. الوحدة اكتشاف مطلق. حين ينظر المرء من داخل نافذة مضاءة، أو حين يطلّ من الأعلى على بحيرة، يرى انعكاس ذاته في غرفة مضاءة، أو بين الأشجار والسماء – والتوهّم هنا واضح، لكنه يشعر المرء بالرضا عن الذات في الوقت عينه. بيد أنه حين ينظر المرء من العتمة إلى الضوء، يرى كل الفرق بين هنا وهناك، بين هذا وذاك. ربما كان جميع من هم بلا مأوى غاضبين في صميم قلوبهم، ويحبون أن يكسروا السقف والهيكل والأضلاع، وأن يحطموا النوافذ ويجعلوا

المياه تفيض على الأرض ويخربوا الستائر ويغمروا الكنبة بالماء.

بدأت أسحب ألواحاً خشبية مرتخية من فتحة القبو عند الزاوية اليمنى من واجهة البيت. كانت الألواح متشققة ومليئة بالمسامير المعقوفة، لكنني تمكنت من سحبها بكل تصميم ووضعتها أرضاً ورائي وكأنه لدي هدف حقيقي أو مقصد فعلي من وراء ذلك. كان عملاً شاقاً لكنني غالباً ما لاحظت أنه مما لا يُحتمل أن تشعر بأن أحدهم ينظر إليك، يراقبك، عندما تكون جالساً لا تفعل شيئاً. عندما يكون المرء متبطلاً ووحيداً، فإن إرباك الوحدة يستمر بلا نهاية. فرحت أعمل حتى تبلل شعري بالعرق واحمرّت يداي وامتلأتا بالتقرّحات، بما لا بدّ من أنهى بدا أملاً ضارياً أو يأساً. رحت أتصوّر نفسي منقذة، وأن هناك أطفالاً نائمين في المنزل المتداعي. وسرعان ما سأكشف عن أهداب ثياب نومهم التي تجعّدت وتصلبت بفعل المطر، وأرجلهم العظمية الصغيرة، وقد سقطت منها الأصابع كالبتلات. ربما فات الأوان على تقديم العون، فهم مضطجعون تحت الثلج منذ شتاءات كثيرة جداً، وهو أمر محزن، لكن التخلّي عن الأمل قد يكون الخيانة الأخيرة.

تخيلت نفسي في مكانهم - ليس من الصعب فعل هذا، ذلك أن مظهر بيت جدتي الذي يوحي بثبات نسبي كان مخادعاً، ليس أكثر من انطباع يتولّد من البيانو والكنبة القابلة للطي وخزائن الكتب المليئة بالتقاويم وأعمال كيبلينغ وديفو[1]. هذه الأشياء أوحت ظاهراً بالأهمية

(1) روديارد كيبلينغ (1865–1936) الكاتب والشاعر الإنجليزي المعروف صاحب «كتاب الأدغال»، الحائز على جائزة نوبل للعام 1907. ودانييل ديفو (1660–1731): كاتب وصحافي إنجليزي، مؤلف كتاب روبنسون كروزو.

والصلابة وكان يستحسن النظر إليها كوزن خطر على بنية البيت الهشة. فكان سهلاً عليّ أن أتخيّل البيانو وهو يتداعى متحطماً على الأرض مع وقع رنين جميع أوتاره. كما لم يجدر بأن يكون لبيتنا طابق ثان، إذ في حال وقع ونحن نيام فسنطمر بصورة كارثية في الظلمة غير عالمين بشيء ربما أكثر من أن أحلامنا اتخذت منحى رهيباً ثم انتهت فجأة. كان يستحسن أن يكون بيتاً صغيراً يتحطم برشاقة مثل بسلة يانعة أو صَدَفة. وعلى الرغم من القصص التي اختلقتها لنفسي، كنت أعلم أنه ليس من أطفال عالقين تحت هذه الأطلال الحقيرة. كانوا أطفالاً خفيفين نحيلين اعتادوا البرد، وكان أمراً هيناً بالنسبة إليهم أن يطردوا إلى الغابة، حتى لو ذهبت أبصارهم وتكسّرت أقدامهم. يحسن ألا يمتلك المرء شيئاً، ذلك أنه حتى عظامنا ستتداعى أخيراً. يحسن ألا يمتلك المرء شيئاً.

اقتعدت العشب الذي كان متيبساً بفعل البرد، وخبأت وجهي بيديّ وتركت جلدي يحتمل البرد فسرت تموّجات من القشعريرة كالمياه الباردة بين صفحتي كتفي وأعلى عنقي والعشب المخدر يلامس كاحليّ. فكرت أن سيلفي ليست في أيّ مكان وعما قريب ستعتم. فكرت، فليأتوا ويحرروني من جلدي هذا، فليحطموا ملاذي هذا لأنه لم يعد ملاذاً بعد أن تركني وحيدة هنا، وأفضل أن أكون معهم، ولو لأراهم فحسب، حتى ولو أشاحوا عني. لو استطعت رؤية أمي، وليس ضرورياً أن يكون لها نفس العينين والشعر ولن أحتاج إلى لمس كمها. لم يكن هنالك أكثر من انحناءة كتفيها العاليين. وقد ابتلعت البحيرة هذا.

مرّ زمن طويل جداً منذ طاف شعرها في العتمة، ولم يعد ثمة ما يحلم به، لكنها غالباً كانت تنسل من أيّ باب ألمحه بطرف عيني، وكانت هي، ولم تكن متغيّرة، ولا مندثرة. كانت موسيقى ما عدت أسمعها، ترنّ في رأسي، هي نفسها ولا شيء آخر، غائبة عن كل حس، إنما غير مندثرة. غير مندثرة.

وضعت سيلفي يدها على ظهري. كانت قد جلست على العشب قربي على غفلة مني. نظرت إلى وجهي ولم تقل شيئاً على الإطلاق. بل بسطت معطفها واحتوتني في داخله وضمتني بصورة غريبة بحيث استراح وجهي على صدرها. وأخذت تهدهدني على وقع أغنية بطيئة لم تدندنها، ومكثت ساكنة على صدرها مخفية إحساسي بالغرابة وعدم الراحة لكي تستمر في احتضاني وهدهدتي. كانت جدتي غالباً ما تنسى أنها وضعت دبابيس في فستانها، وكانت أحياناً تعانقني بشدّة، وأظلّ ساكنة قدر ما أستطيع، لأنني لو تحركت أيّ حركة تضعني من حضنها وتمسّد شعري قليلاً ثم تحيد عني.

لسبب ما كانت رائحة بطانة معطف سيلفي أشبه برائحة الكافور وكانت عذبة كفاية كرائحة البخور أو السدر، شفائية وموحية بالحداد. كان ثوبها من القطن المتين الجاف، وفوقه ارتدت سترة من النايلون وكان الثوب بالتاكيد بنياً أو أخضر، والسترة زهرية أو صفراء، لكنني لم أستطع رؤيتها. اندسست في سيلفي قريبة كفاية بحيث منع معطفها حتى تسلل الضوء إلى عيني. قلت: «لم أرهم، لم أستطع رؤيتهم».

«أعرف، أعرف». كانت تلك الأغنية التي تهدهدني على وقعها،

أعرف أعرف، أعرف». قالت مدندنة: «مرة أخرى، مرة أخرى».

حين نهضنا لكي نغادر، خلعت سيلفي معطفها وألقته عليّ. وزررته من الأسفل للأعلى، ولفّت ياقة المعطف الرجالي العريضة حول رقبتي، ثم أحاطت كتفيّ بذراعها وقادتني نزولاً إلى الشاطئ بعناية مفرطة كأنني عمياء يمكن أن أتعثر. أحسست بسرورها لاعتمادي عليها، وأكثر من مرة مالت لكي تنظر إلى وجهي. وكان على وجهها تعبير تأمل وتركيز من دون أي مسافة أو تحفظ كأنها تتأمل وجهها هي في المرآة. كنت غاضبة منها لأنها تركتني هذه المدة الطويلة، ولأنها لم تعتذر مني أو تقدّم تفسيراً، وأنها بهجراني افترضت في نفسها سلطة أن تمنحني مثل هذه التجربة الثرية أو النعمة. ذلك أنني ارتديت معطفها كأنه تطويب، والتفّ ذراعاها حولي بدفء الرحمة، ولم أكن لأقول شيئاً من شأنه أن يجعلها ترخي ذراعيها أو تبتعد عني خطوة واحدة.

كان القارب يتقلب على صفحة الماء وقد ربطته سيلفي بحبل وثقّلته بحجر. وقرّبت القارب مني لكي أتمكن من الصعود دون أن أبلل قدمي.

كان قد حلّ المساء. وأخذت السماء تومض كبيضة مضاءة بالشموع. وكانت المياه رمادية صافية، والأمواج في أقصى علوها دون أن تتكسر. تمددت جانبياً في قاع القارب، وألقيت رأسي وذراعي على المقعد الخشبي المتشقق. صعدت سيلفي واتخذت مكانها واضعة رجلاً عند كل جانب مني.

ثم استدارت ودفعتنا قدماً بمجذاف، ثم بدأت تجذف دون كثير

من الجهد. اضطجعت كبذرة في بسلة، شاعرة بالمياه الغامرة تتلاطم مدوية تحت رأسي، وشعرت أننا صامدتان على متن القارب بسبب خفتنا، وأننا نمضي متراقصتين كوريقات الشجر فوق تيارات مدمرة، وأن القارب لم ينقلب بنا لأن الخراب الذي نركبه كان مقصوداً لأمور أعظم.

سرحت بفكرة أننا قد ننقلب. كان نظام العالم في نهاية المطاف، يقضي بأن تنفذ المياه من الشقوق، التي وإن كانت مشدودة مزمومة، لم تصنع إلا للاختراق. كان يقضي نظام العالم أن تنكسر الشرنقة وأن أنتفخ وأتمدّد، أنا الجرثومة الصغيرة النائمة.

لنقل إن المياه تسرّبت من حافة المركب، وأنني رحت أنتفخ وأنتفخ حتى تمزّق معطف سيلفي منفجراً. لنقل إنني والمياه أغرقنا القارب، وإنني بطريقة عجيبة ضارية شربت المياه من كلّ مسام جسدي حتى يصير آخر شق أسود في دماغي مجرد نقطة، بل قطرة صغيرة. وأخذاً في الاعتبار أنها طبيعة المياه أن تملأ حتى التخمة والانفجار، فستنتفخ جمجمتي وسيتضخم جسدي حتى السماء، حتى يصير وجهي مكبوساً على ركبتي. ثم، افتراضاً، يأتي المخاض بطريقة ما، وإن كانت ولادتي الأولى بالكاد قد استحقت اسم الولادة، فلماذا آمل أن تكون الولادة الثانية أفضل؟ الولادة الحقيقية هي الأخيرة، تلك التي تحررنا من عتمة المياه وفكرة الظلمة المائية، لكن أيمكن تخيل ولادة كهذه؟ ما هو الفكر في النهاية، ما هو الحلم، سوى السباحة والطوفان والصور التي تبدو حية؟ الصور هي أسوأ ما في الأمر.

سيكون رهيباً الوقوف في ظلمة الخارج ومشاهدة امرأة في غرفة مضاءة تتأمل وجهها في زجاج النافذة، وأن ترميها بحجر يحطم الزجاج، ثم أن تشاهد النافذة تشفي نفسها ثانية، وتعاود الأشلاء اللماعة، الشفتان والرقبة والشعر، لصق نفسها بسرعة إلى تلك المرأة المجهولة اللامبالية. سيكون رهيباً رؤية مرآة متشظية تشفى لتظهر انعكاس امرأة حالمة تعقد شعرها. وهنا نجد صلتنا الأعمق بالماء، أكثر ما يجذبنا إليه، ذلك أنه كالانعكاس على صفحة الماء لا تعاني أفكارنا صدمة متغيرة، ولا تحولاً دائماً. بل إنها تسخر منا بخفتها الظاهرة. ولو كانت أفكارنا هذه أكثر جوهرية، لو اتخذت وزن وفضاء، لغرقت أو لجرفها التيار بعيداً. لكنها تثابر في مكثها، خارج الطاقة التي يملكها خراب العالم. أظن أن خطة أمي كانت أن تمزّق هذا الصفحة المنيرة، أن تغوص تحتها في الظلمة الكثيفة، لكن ها هي، أينما وقعت عيناي، ووراء عينيّ، تبرز كاملة ومتشظية، ألف صورة لإيماءة واحدة، لا تتبدّد، بل تتكرر باستمرار وبصورة حتمية، مثل امرأة غارقة.

اضطجعت بين ساقي سيلفي، وتحت ذراعيها، وأحياناً كانت إحدانا تتكلم، وأحياناً كانت إحدانا تجيب. كان هناك بركة من المياه في الموضع المجوف الذي اضطجعت، وكانت شبه دافئة. ثم قالت سيلفي: «فينغربون». فاستويت قعوداً على ركبتي. كانت رقبتي متصلبة وامتدّ التنميل إلى ذراعيّ ويديّ. رأيت أضواء قليلة متناثرة على الشاطئ الذي بدا بعيداً. قرّبتنا سيلفي من الجسر وهي تجذّف لكي تمنع التيار من سوقنا إلى تحت الجسر.

كنت أعرف الجسر جيداً. فهو يمتدّ ابتداء من الشاطئ، على علو ثلاثين قدماً من حافة المياه. كنت أعرف مساميره الضخمة الصدئة ودعاماته المطلية بالقار. وكان منظره فظاً عن كثب، وإن بدا من بعيد – بإزاء اتساع البحيرة – هشاً هزيلاً. وها هو يرتفع فوقنا الآن، على ضوء القمر، كثيف السواد كالفحم. وكانت الأمواج تندفع وتتلاطم بين دعامات الجسر وعوارضه الخشبية بصورة لجوجة حميمة ومهيمنة كالقوارض في بيت معتم. نجحت سيلفي في إبعادنا بضعة أقدام عن الجسر ثم عاود القارب جرنا باتجاهه. سألتها: «لماذا نبقى هنا يا سيلفي؟». قالت: «ننتظر القطار». لو سألتها لماذا ننتظر القطار كانت ستجيب: «لكي نراه»، أو «لِمَ لا؟»، أو «بما أننا هنا على أيّ حال يمكننا مشاهدته وهو يمرّ». أخذ قاربنا الصغير يتمايل ويتأرجح، وشعرت بالجزع جراء السيولة الصرف للمياه تحتنا. لو أنني خطوت فوق حافة القارب فأين ستستقر رجلي؟ فالمياه في نهاية المطاف لا شيء ليست شيئاً، فهي لا تختلف عن الهواء إلا في ميلها إلى الفيضان والإغراق وحتى هذا الفارق يمكن أن يكون نسبياً لا مطلقاً.

في ذلك الصباح الذي لم تستيقظ فيه جدتي، وجدناها أنا ولوسيل متكوّمة على نفسها جانباً وقد ألقت رجلها فوق كدسة من الشراشف وطرحت ذراعاها عالياً ملقية رأسها إلى الخلف، وقد افترشت ضفيرة مؤخر شعرها الوسادة. بدت تغرق في الهواء كأنها قفزت إلى الأثير. أيّ حماسة لابدّ سرت بين من تبقى من المسؤولين[1]، أيّ نقر للقبعات

(1) مسؤولي شركة السكك الحديدية. تقفز المؤلفة هنا فجأة من مشهد موت الجدة إلى =

الموشاة بشرائط الكريب، أي تصفيق حار للأيدي في القفازات، حين اندفعت جدتي من الزبد، بعد زمن طويل من انسدال الغيوم على الكارثة، بعد زمن طويل من التخلي عن الأمل بالإنقاذ. وكيف سارعوا لكي يدثّروها بمعاطفهم، وربما لكي يعانقوها، وقد غمرهم إحساس كبير بعظمة الحدث. أما هي فجعلت تمسح الشاطئ بعينيها علها تتبيّن مدى الشبه بين ولاية النعمة[1] وولاية إيداهو، ولتبحث بين الوجوه المتزايدة احتشاداً عن وجه تعرفه.

أبعدت سيلفي القارب مسافة عن الجسر. وقالت: «لا ينبغي أن يطول انتظارنا الآن». كان القمر مشعاً خلفها، فلم أستطع رؤية وجهها. كان هناك الكثير من النور بحيث أعتمت النجوم، وكانت بقعة من الضوء تغمر سطح البحيرة على امتداد النظر. وبدا القارب في ضوء القمر بلون الحطب المنجرف مع التيار، كما كان نهاراً. كان الجسر المطلي بالقار أكثر سواداً مما يكون نهاراً، لكن بنسبة قليلة فحسب. شكّل الضوء نوعاً من الهالة حول سيلفي. رأيت شعرها، وإن ليس لونه شعرها، وكتفيها وخطوط ذراعيها، والمجذافين اللذين كانا يكسران الضوء باستمرار. أخذت الأضواء في «فينغربون» بالخفوت، لكنها شكّلت إضافة إلى الضوء الإجمالي ولم تنتقص منه شيئاً.

سألتها: «كم سننتظر بعد؟».

قالت: «إممم؟».

= حادثة موت الجد كما شأنها في كثير من الأحيان.

(1) الجنة.

«كم سننتظر؟»».

لم تجبني. فجلست صامتة، متدثرة بمعطفها. بدأت تدندن «آيرين»، فبدأت أدندن معها. وقالت أخيراً «سنسمع صوته قبل أن نراه. سيهتز الجسر». جلسنا صامتتين. ثم عدنا إلى غناء «آيرين». بين الظلمة والمياه كانت الريح قاسية كالمعدن، وتمنيت من كل قلبي أن أكون في مكان آخر، وقد ساهم هذا إضافة إلى شعاع القمر في جعل العالم يبدو شديد الاتساع. لم تكن سيلفي واعية بالوقت. بالنسبة إليها كانت الساعات والدقائق أسماء قطارات - كنا ننتظر قطار الساعة التاسعة واثنين وخمسين دقيقة. لم يبدُ على سيلفي الصبر أو نفاده، كما لم يبدُ عليها الارتياح ولا الانزعاج. كانت صامتة فحسب، إلا حين تغني، وساكنة، إلا حين تجذف بنا بعيداً عن الجسر. كرهت الانتظار. فإذا كان عندي شكوى واحدة، فهي أن حياتي برمتها كانت سلسلة من التوقعات. كنت أترقّب دوماً وصولاً ما، تفسيراً ما، اعتذاراً ما. ولم يصل أي منها، وكنت لأقبل هذه الحقيقة لو لم يكن صحيحاً أيضاً – في اللحظة التي أعتاد فيها على حدود أي لحظة وأبعادها – أرمى إلى اللحظة التالية، لأجدني أتساءل من جديد عن تلك الأشكال المخبوءة في ظلالها. وحقيقة أن جميع اللحظات في جوهرها واحدة لم تقلّل البتة من احتمال أن اللحظة التالية قد تكون مختلفة بالكامل. وهكذا يتطلب الاعتيادي اهتماماً لا يلين. كلّ ساعة مضجرة قد تكون الأخيرة من نوعها.

قلت: سيلفي».

فلم تجبني.

وكلّ لحظة راهنة هي تفكير فحسب، والأفكار تحمل الصلة نفسها في الحجم والوزن – مع الظلمة التي نشأت منها، مثلما تفعل الانعكاسات على صفحة الماء التي تحتلها، وعلى النحو ذاته فإن هذه الأفكار اعتباطية أو بالكاد محدّدة. أيّ شخص ينحني لكي ينظر إلى بركة ما هو المرأة في تلك البركة، أي شخص ينظر في عيوننا هو صورة عيوننا، وهذه الأشياء حقائق لا تقبل الجدل، وهكذا تعكس أفكارنا ما يمرّ أمامها. لكن ثمة صعوبات. منها أن ركام قطار جدي يمثل في عقلي بواقعية أكبر مما لو أنني رأيته (ذلك أن عين العقل لا تشوشها الظلمة بالكامل)، ولسبب آخر، وهو أن الشكل الماثل أمامي الذي لا أرى وجهه يمكن أن يكون هلين أو سيلفي. كلمتها باسمها، سيلفي، ولم تجبني. فكيف أعرف إذن؟ وإذا كانت هلين هذه الواقعة أمام ناظري، فكيف لا تكون هي في الواقع؟

قلت: «سيلفي؟».

فلم تجبني.

اقتربنا ثانية من الجسر، وكدنا نعبر تحته حين بدأت ترتجّ عوارضه الخشبية. وضعت سيلفي باطن كفها على إحدى الركائز. وأخذ الصوت يزداد صخباً، وبدأ هيكل الجسر الطويل يرتعش برمته، سريعاً متوتراً، كفقرات العمود الفقري، ولم يكن في وسعي أن أعرف من الصوت من أي وجهة يأتي القطار. كانت سيلفي قد وضعت المجذافين من يديها، وتقدمنا أكثر فأكثر تحت الجسر. ثم طوت ذراعيها على ركبتيها ودفنت وجهها فيهما، وراحت تتمايل وتتمايل وتتمايل، إلى أنْ مالَ القارب قليلاً.

همست: «هلين». لكنها لم ترد.

ثم بدأ كل مفصل من مفاصل الجسر يرتج ويرتعش وكأنه موشك على السقوط. لمحت ضوءاً يمرّ فوق رأسي كالمذنّب، ثم شممت رائحة نفط حادة حارة سوداء وسمعت صرير العجلات على السكة. كان قطاراً طويلاً جداً.

وقفت سيلفي. فتأرجح القارب أكثر وتسللت المياه من الحواف إليه واستقرت تحت أقدامنا. التفتت سيلفي لتنظر وراءها. فتشبثت بدعامة الجسر لكي أثبّت القارب. مرّ طرف القطار فوق رؤوسنا وابتعد مسرعاً. شبكت يلفي أناملها في شعرها وقالت شيئاً لم أسمعه.

صرخت: «ماذا قلت؟».

«لا شيء»، قالت وهي تقلب يديها مشيرة إلى الجسر. ثم أخذت تحدق بالبحيرة المضاءة بنور القمر، وهي تمسّد شعرها إلى الخلف، ولم يكن ثمة في وضعيتها هذه ما يوحي بأنها تتذكر أنها موجودة على قارب. فلو وقفت فجأة وقفت على حافة المركب، وأخذ هدب ثوبها يتلاطم منتفخاً حولها، ثم رفعت ذراعيها وقفزت إلى نور القمر المتكسّر فوق البحيرة الشتوية، لما فوجئت البتة.

قلت: «سيلفي».

وقالت: «ما كنت لأرى الكثير على أيّ حال». فهم يطفئون الأضواء لكي يتمكن الركاب من النوم. كنت شاردة الذهن فحسب، وفجأة كان هناك فوقنا. لم يكن هادراً رغم ذلك».

«أرجو منك الجلوس».

جلست سيلفي وأمسكت المجذافين وأبعدتنا ثانية عن الجسر.

قالت: «لابدّ من أن يكون القطار تحتنا هنا»، ثم مالت وأخذت تنظر إلى المياه «كثر جاءوا من التلال. كان الأمر أشبه بعيد الاستقلال، سوى أن الرايات كانت سوداء». ضحكت سيلفي. ثم انتقلت إلى الجانب الآخر من القارب ونظرت إلى المياه.

أخذت سرعة الريح في الاشتداد، وكان القارب ثقيلاً، لأن المياه في قعره وصلت إلى ما فوق أحذيتنا. غرفت بعضاً منه بيدي ورميته في الماء. هزّت سيلفي رأسها. وقالت: «ليس ثمة ما يدعو للخوف، لا شيء على الإطلاق. لا شيء على الإطلاق». غمست يدها في مياه البحيرة وتركت المياه تنثال من بين أناملها. وقالت: «لابدّ من أن البحيرة مليئة بالناس. لقد سمعت قصصاً حول هذا طوال حياتي». بعد برهة ضحكت «يمكنك أن تراهني على أنه كان في القطار أناس لم يعرف بهم أحد». أخذت تعبث بالماء وكأنها لم تكن باردة. «لم أفكّر بهذا على أنه سرقة»، قالت بتأمل «فقط تجدين لنفسك مكاناً شاغراً، بعيداً عن درب الجميع، فلا يحصل أيّ ضرر. لا أحد يعرف حتى بوجودك». صمتت لبرهة أطول. «الجميع ركب ذلك القطار. كان جديداً تقريباً كما تعرفين، جديداً تماماً. كان ثمة ثريات في الحانة. وقال الجميع أنهم ركبوا القطار - جميع أصدقائي القدامى. أو أن أمهاتهن فعلن، أو أعمامهن. كان قطاراً شهيرا». راحت تغرف الماء وتجعله ينثال بين أناملها «لذا لابدّ من أنه كان هناك الكثيرين في عربات الشحن. من يعرف عددهم. جميعهم كانوا نائمين. لن نعرف أبداً».

لاحظت أن قدمي، من الكاحلين نزولاً، قد اختفتا في شعاع القمر. حين كانت تتحرك سيلفي أو تومئ بيدها، كان الضوء يتجعّد وتغمره الظلال، لكن عندئذ كانت مضطجعة على ظهرها على مقدّم المركب، تمرّر يدها في الماء. خطر لي أن أتساءل ما إذا كان هذا الشعاع مجتمعاً، إذا ما نظر إليه من علو شاهق، يعكس صورة القمر، مع ظلال سوداء حين يكون بدراً أو هلالاً ترسم على صفحته الفم ومحجري العينين.

سألتها: «ألا تشعرين بالبرد يا سيلفي؟».

«أتريدين العودة إلى البيت؟».

«حسناً».

أخذت المجذافين ثانية وبدأت تنحو بنا نحو «فينغربون».

قالت: «لا أستطيع النوم على متن قطار. هذا شيء لا أقدر عليه».

كانت الريح تهبّ من الشاطئ، وظلّ التيار يجذبنا نحو الجسر. ورغم أن سيلفي جذّفت وجذّفت فقد شعرت أننا بالكاد نفارق مكاننا. كانت أضواء «فينغربون» خامدة وأعمدة الجسر متشابهة فلم أستطع التأكد ما إذا كنا نتقدّم أم لا. لكن مشاهدة سيلفي بدت أشبه بالحلم، لأن الحركة كانت دائماً نفسها، وكانت ضرورية وشاقة وعقيمة ومتكررة، لا بوصفها حركة ضمن سلسلة من الحركات، بل بوصفها حركة واحدة تتكرر لأنه هنا كان يكمن اللغز، إذا أمكن أحدهم أن يجده. بدا أننا ننجذب فحسب إلى الركام القديم في قاع البحيرة. كانت الريح التي جعلتنا نحوم في موضعنا.

كان يمكننا تجاوز نظرة عين جدي الفارغة، مع أن الجهد كان رهيباً.

تركت سيلفي المجذافين وطوت ذراعيها وحملتنا المياه ثانية بعيداً عن الشاطئ.

قلت: «دعيني أحاول التجذيف». وقفت سيلفي فتأرجح القارب. زحفت بين رجليها.

كانت ذراعي اليسرى دائماً أقوى من اليمنى. وبعد كل حركتين بالمجذافين معاً كان عليّ أن أحرك اليمنى وحدها، حتى تخليت عن فكرة البقاء بمحاذاة الجسر. فاتباع مسار الجسر كان أسرع طريق للعودة، أو كان ليكون كذلك لو كان أي تقدّم ممكناً، لكن على تلك الحال آثرت ترك التيار يحملنا تحت الجسر باتجاه الجنوب.

كانت الريح ثابتة والشاطئ بعيد. تركت المجذافين. كانت سيلفي قد طوت ذراعيها وألقت رأسها عليهما. سمعتها تدندن. قالت «أتمنى لو معي بعض الفطائر المحلاة».

قلت: «أتمنى لو معي شطيرة هامبرغر».

«أتمنى لو معي بعض اللحم المطهو».

«أتمنى لو معي فطيرة».

«أتمنى لو معي معطف منك».

«أتمنى لو معي وسادة كهربائية».

«لا تغفي يا روثي. لا أريد أن أنام».

«ولا أنا أريد».

«سأغني».

«حسناً».

«لنفكّر بأغنية ما».

«حسناً».

جلسنا صامتتين نصغي إلى الريح.

«يا له من يوم»، قالت سيلفي. ثم ضحكت «كنت أعرف امرأة تقول ذلك طوال الوقت. يا له من يوم، يا له من يوم. كانت تجعل الأمر يبدو مفعماً بالحزن».

«أين هي الآن؟».

«من يدري؟». ضحكت سيلفي. كان القمر قد أخذ بالتواري خلف الجبل، وبدأت الليلة تصير سوداء دامسة. أخذت سيلفي تدندن بينها وبين نفسها أغنية لا أعرفها، وكل لحظة كانت كالتي سبقتها، إلا أن القارب كان يميل أحياناً، وترتطم موجة بجانبه.

قالت سيلفي: «كان يمكننا ربط القارب إلى الجسر، عندئذ كنا بقينا قريبتين من البلدة وما كنا لنضيع».

«لَمَ لم تفعلي ذلك؟».

«لا يهم. أتعرفين أغنية عصفور الدوري في أعلى الشجرة[1]؟».

«لا رغبة لي في الغناء».

ربتت سيلفي ركبتي. وقالت: «فلتنامي أنت إذا كنت ترغبين في ذلك».

«لن يشكل هذا فرقاً».

مع شروق الشمس. كنا قرب الشاطئ الغربي من البحيرة، وكان

(1) Sparrow in the Treetop: أغنية شعبية تعود إلى العام 1951.

الجسر لا يزال ضمن مجال رؤيتنا. جذفت سيلفي بنا، وركنا القارب على الشاطئ وتسلقنا إلى الطريق العام ومشينا إلى السكة الحديد. نمت على الصخور في حين راقبت سيلفي قطاراً متجهاً نحو الشمال. جاء قطار شحن بعد وقت طويل، وخفف سرعته بحذر شديد لعبور الجسر بحيث تمكنا من تسلّق إحدى عرباته بدون صعوبة. كانت ممتلئة حتى نصفها بالصناديق الخشبية وتفوح منها رائحة النفط والتبن. وكان ثمة امرأة هندية عجوز جالسة في الزاوية وقد رفعت ركبتيها ووضعت ذراعيها بينهما. كان جلدها شديد السمرة باستثناء بقعة بيضاء على جبهتها أسبغتها خصلة من الشعر عديم اللون وحاجب أبيض. كانت متدثّرة بوشاح أرجواني متسخ وله أهداب مثل غطاء بيانو. أخذت المرأة تمتص الهدب وتنظر إلينا. وقفت سيلفي بالباب، ناظرة إلى البحيرة. وقالت: «إنها جميلة اليوم». تراقصت غيوم بيضاء سمينة كالملائكة وهي تعبر السماء، وكانت السماء والبحيرة مكسوتان بلون لازوردي رائع. يمكن أن يتخيل المرء أنه في ذروة الفيضان، حين كان الكون كرة من الماء، جاء يوم المغفرة الإلهية، عندما فتحت زوجة نوح مصاريع النافذة على صباح صُمّم خاصة لكي يظهر روعة الطبيعة. نستطيع أن نتخيل مياه الطوفان وهي تتموّج متلألئة، وكيف تحولت الغيوم – تحت تدبير إلهي معاكس – إلى مجرد زينة في السماء. صحيح أن المياه كانت مزدحمة بالبشر، نعرف هذه الحكاية منذ الطفولة، وقد تكون السيدة الواقفة وراء النافذة تمنت أن تكون مع الأمهات والأعمام، بين العظام الراقصة، بما أن العالم الذي انفتح أمامها بالكاد كان بشرياً. هنا في الضوء المنتشر، تحت الغيوم

المنتفخة، حين ينظر المرء إلى البحيرة يراوده إحساس بأن الطوفان لم ينته قط، وبأنه إذا ضاع أحدهم في خضم الماء فكل هضبة هي «أرارات». والقاع هو دائماً ماض متراكم، يختفي دون أن يختفي، يتبدّد ومع ذلك يبقى. إذا تخيلنا أن زوجة نوح، حين صارت طاعنة في السن، وجدت في مكان ما تذكاراً عن الطوفان، فقد تمشي نحوه حتى يطوف فستانها الأرملي فوق رأسها وتفك المياه شعرها المضفور. ولكانت تركت هذا الأثر لأبنائها لكي يخبروا قصة رتيبة عن الأجيال. كانت امرأة بلا اسم، وبالتالي كانت في مكانها الطبيعي بين أولئك الذين لم يجدهم أحد ولا افتقدهم أحد، الذين لم يحتفِ أحد بذكراهم ولم يحفل بموتهم أحد، ولا حتى ذريتهم.

أخذت العجوز الجالسة في الزاوية تحدجني بزاوية عينها. مدّت إصبعاً طويلاً في داخل فمها لكي تتحسّس سنّها. ثم قالت: «إنها تكبر».

ردّت سيلفي «إنها فتاة طيبة».

«كما قلت دائماً». غمزتني المرأة.

فعبرنا فوق المياه إلى «فينغربون»، ثم نزلنا في باحة الشحن.

واتجهنا إلى البيت. كان منظرنا بالغ الفوضى لكن معطف سيلفي الذي امتد حتى أصابع يديّ، وإلى أسفل ركبتي، أخفى كلياً خراب ثيابي. شدّت سيلفي شعرها إلى الوراء بأصابعها، ثم تكوّرت على نفسها واتخذ شكلها مظهر الكرامة الجريحة.

قالت: «لا تبالي بهم إذا حملقوا».

مشينا عبر البلدة. ثبتت سيلفي نظرتها ستة إنشات فوق مستوى العين، لكن في الحقيقة لم يحدّق أحد، على الرغم من أن كثراً نظروا إلينا، ثم عاودوا النظر. مررنا بلوسيل ورفيقاتها في المتجر، مع أنه بدا أن سيلفي لم تلاحظ ذلك. كانت تشبههن جميعاً بقميصها السميك وحذائها الرياضي وجينزها المرفوع، وتتبعتنا بنظراتها، وهي تضع يديها في جيبي وركيها. فكرت أنه لا يجب أن ألفت الانتباه لنفسي، مدركة مدى الأهمية التي باتت تعلقها لوسيل على المظاهر، لذا ببساطة تابعت سيري، وكأنني غير واعية أنها رأتني.

كان مريحاً الوصول إلى «سيكامور ستريت»، مع أن الكلاب جميعاً ركضت عن الشرفات وقد طوت آذانها إلى الخلف وأخذت تنبح وتحاول نهشنا بشراسة لم أرها قبلاً.

قالت سيلفي: «تجاهليها». ثم حملت حجراً. وبدا أن هذا أثارها. خرج الناس إلى شرفاتهم وصرخوا «تعال إلى هنا يا جيف»، و«عد إلى البيت يا بروتوس»، لكن بدا أن الكلاب لا تسمع. على طول الشارع أحاطتنا الكلاب المسعورة وراحت تجري بين أقدامنا. حاكيت سيلفي في عدم اكترائها. حين وصلنا أخيراً إلى البيت، أشعلت سيلفي ناراً وجلسنا قرب الموقد. وجدَت بسكويت «غراهام» وسيريل «شيريوس» لكننا كنا أشدّ تعباً من أن نأكل، فرتبت سيلفي سريري وذهبت إلى غرفتها لكي تنام. كنت شبه غافية أو غافية بالفعل حين دخلت لوسيل إلى المطبخ وجلست على كرسي سيلفي. لم تقل شيئاً. فقط رفعت رجلها

لكي تعقد شريط الحذاء الرياضي، وراحت تنظر حولها في المطبخ، ثم قالت: «أتمنى أن تخلعي هذا المعطف».

«ثيابي مبللة».

«يجدر بك أن تبدّلي ثيابك».

كنت أكثر تعباً من أن أتحرك. جلبت بعض الحطب من الشرفة ووضعته في الموقد.

قالت لوسيل: «لا يهم. أين كنت؟».

الآن، كان يمكن أن أخبرها أين كنت، ورغبت في ذلك، بعد أن أستجمع أفكاري. بدأت بالقول إلى البحيرة، وإلى الجسر، لكنني شعرت بقوة أن لوسيل تستحق جواباً أفضل. تمنيت كثيراً في الحقيقة أن أخبر لوسيل أين ذهبت بالضبط، وكان إحساسي بأهمية أن أخبرها بهذا هو بالتحديد ما جعلني أنام. لأنني حلمت وحلمت أنني وسيلفي نطوف في العتمة، غير عارفتين بمكاننا، أو أن سيلفي تعرف لكنها لا تخبرني. حلمت أن الجسر انحدر باتجاه البحيرة وأن قطارات جميلة تنزل تباعاً إلى الماء من دون أن تحدث حتى اضطراباً على صفحة الماء. حلمت أن الجسر كان إطار البيت المحترق وأنني وسيلفي كنا نبحث عن الأطفال الذين يعيشون هناك، ومع أننا سمعنا أصواتهم لم نستطع أبداً العثور عليهم. حلمت أن سيلفي تعلمني السير تحت الماء. أن أتحرك ببطء شديد يحتاج إلى صبر وبهاء، لكنها جرتني خلفها على إيقاع «فالس» بطيء، وتطايرت ثيابنا مثل أردية الملائكة المرسومة.

بدا أن لوسيل تكلمني. أظن أنها قالت إنني يجب ألا أبقى مع سيلفي. أظن أنها ذكرت الراحة. كانت تسوي تجعيدة في ركبة جينزها، وكان حاجبها منكمشاً وعيناها هادئتين، وأنا واثقة أنها كلمتني بكل رقّة، لكنني لم أسمع كلمة مما قالته.

9

خلال الأسابيع التي تلت ذلك اليوم زارنا مأمور البلدة مرتين. كان رجلاً طويلاً بديناً، ذقنه مضمومة إلى الداخل، وذراعاه مطويتان تحت بطنه وكل ثقله يقع على مؤخرته، ويرتدي بزة رمادية مع سروال مجعد وسترة منتفخة أعلى الذراعين. في المرتين وقف عند الباب الأمامي وراح يتكلم عن الطقس. كلّ ما في سلوكه أوحى بمدى إحساسه بالحرج. تلمّظ بشفتيه وأخذ يحملق في أصابعه أو في السقف وكان صوته بالكاد مسموعاً. كان هذا الرجل هو من يقود دائماً مسيرة الاحتفال بعيد الاستقلال، فيرتدي جلد الغزال وحذاء جلدياً ويركب فرساً كُميت ضخمة ويحمل راية ضخمة يسندها إلى ركاب الفرس. ويتبعه زعيم قبيلة «فينغربون»[1] الواهن العجوز، وابنة زوجته نصف

(1) زعيم قبيلة السكان الأصليين.

الأيرلندية، وأكبر أولادها من زواجها الأول. وبعدهم تأتي الراقصات[1]. كنت أعرف بالطبع أن دوره يتعدى الطابع الاحتفالي. فقد كان لدى سكان «فينغربون» وضواحيها ميل إلى الجريمة. وبدا أنه في مقابل كلّ جريمة حقيرة هناك حادث مروع. فبسبب البحيرة والسكة الحديدية، وبوجود العواصف الثلجية والفيضانات وحرائق الحظائر وحرائق الغابات وكثرة الأسلحة النارية وفخاخ الدببة والمسكرات منزلية الصنع والديناميت والهيجان والنشوة الناشئة عنه وقرب العائلات من بعضها بعضاً، فقد كان العنف حتمياً.

كان هناك الكثير من القصص القديمة العنيفة التي تتشابه مع بعضها بعضاً وتختلف فقط في تفاصيل الانهيار الثلجي والانفجار، وهي قصص أكثر كآبة من أن ترويها لأحد ما عدا الغرباء الذين تكون متيقناً من أنك لن تلقاهم ثانية. على مرّ عقود من الزمن كان هذا الشريف يُستدعى مثل قابلة لكي يشهد على بدايات هذه القصص، على لحظة ولادتها في المزاريب والأمكنة المظلمة، في صلب الظروف الدامية.

فيخال للمرء إذن أنه كان رجل صلب، بيد أن هذا لم يحل دون شعوره بالحرج وهو يقرع على بابنا، وأن يقف هناك عاجزاً عن التعبير بسبب الخجل والأسف بحيث أمكن سيلفي الادعاء أن أسباب مجيئه كانت غامضة.

فهي لم تكن متعلقة بسرقة القارب على الرغم من أنه تم تقديم شكوى

(1) اللواتي يستعملن عصي الرقص ويكنّ عادة في مقدمة المسيرة التي تطوف الشارع الرئيسي في كل بلدة في أمريكا.

بذلك، ولا بتهربي من المدرسة، إذ كنت كبيرة كفاية لأترك المدرسة لو اخترت ذلك. ولا أن سيلفي أبقتني في البحيرة طوال الليل، لأن أحداً لم يعرف أين كنا. كانت المسألة أننا عدنا إلى «فينغربون» على عربة قطار شحن، والخشية من أن سيلفي المسكونة بداء الترحال تريد أن تجعلني مترحّلة مثلها. تحولت البلدة إلى شيء يدعو للرثاء. ليس من ساكن فيها لا يعرف مدى ضحالة جذورها. وكانت تجتاحها الفيضانات سنوياً، وقد احترقت مرة وغالباً ما أقفلت منشرة الخشب أو احترقت. وكان ترد حكايات عن أن الأشياء مختلفة في أمكنة أخرى، وأيّ شخص في أمسية حزينة يمكنه أن يشعر أن «فينغربون» مكان هزيل وشاق. فكانت الهجرة تهديداً دائماً. وليس من كائن حيّ – وإن وضعت نزوات الدهور عينيه على سويقات هزيلة، وثبتته في درع سلحفاة، أو قلّصته إلى دبوس وجعلته محباً للطين، وجعلت معيشه في ظلمة بئر أو تحت حجر – إلا وسيستمر في الحياة إذا وجد إليها سبيلاً. لذا من المؤكد أن «فينغربون»، على الرغم من كل مشقاتها، كانت تبدو أحياناً بلدة لطيفة اعتيادية، وتقدّر نفسها أيضاً، وتعيش إذا أمكنها ذلك وعلى نحو ما تستطيع. فكان كل متجوّل يوحي حضوره بالترحال، وبأنه ليس ذا شأن، كان يقابل من قبل أهل البلدة بشيء يبدو للوهلة الأولى ردّ فعل أخلاقي، بما أن الأخلاق هي كبح جماح أقوى المغويات. فكان يجري إطعام أولئك الغرباء على الشرفة الخارجية، أو تدفئتهم أمام الموقد، بروحية تبدو للوهلة الأولى شفقة أو صدقة، لأن كلاهما في جذرهما قد يكونان محاولة لاستعطاف القوى المظلمة التي لم تلمسنا

بعد. حين ينتهي المطاف بإحدى هذه الحيوات إلى البلدة، فمن الممكن الاعتماد على القس ليقول «هذا التعس»، وكأن قبراً مجهولاً في مكان ما أعمق من قبر يحمل اسماً. وإذن، كان يتنقّل المرتحلون عبر «فينغربون» كالأشباح، مخيفين مثلهم لأنهم ليسوا شديدي الاختلاف عنا. وهكذا شعرت البلدة بضرورة إنقاذي، وبأنه يمكن تحقيق ذلك. أما شعور مأمور البلدة بأنه لا يجدر به أن يقرع على باب ليس وراءه شخص ارتكب جرماً، فقد رأى أكثر مما ينبغي أن يراه أحد، وكان بالتالي معذوراً. فبسبب تسامحه مع المرتحلين كانوا يطوفون البلدة على ذلك النحو، فينامون في البيوت المهجورة وفي خرائب البيوت المتداعية، ويبنون أكواخهم وأعشاشهم تحت الجسر وعلى امتداد البحيرة. نادراً ما كانوا يتكلمون على مسامعنا أو ينظرون إلينا مباشرة، لكننا كنا نسترق النظر إلى وجوههم. كانوا مثل الناس في الصور الفوتوغرافية القديمة؛ لم نكن نراهم عبر حجاب المعرفة والعادة، بل ببساطة ووضوح، سواء كانت وجوههم باطنية أم مليئة بالندوب، وسواء في إجفالهم أو غفلتهم. كان يمكننا أن نعتبر تواريخ حياتهم مكتملة كالموتى، متسائلين فحسب ما الذي جعلهم على هذه الحال من الارتحال، من التشرد، بما أن حياتهم كمرتحلين كانت أشبه بحيوات الأشباح الهائمين الذين لا يملكون ثمن عبور نهر ستيكس[1]. مهما تكن طويلة حاشية حياة مهما بلغت من القصر، فإنها تبقى لا تشكّل جزءاً من القصة. تخيلنا أنهم إذا تكلموا

(1) Styx River: في الأساطير اليونانية والإغريقية نهر مظلم في العالم السفلي كانت تعبره أرواح الموتى، ولكي تتجاوزه ينبغي أن تدفع جزية معينة وستيكس باليونانية تعني الشيء المكروه.

إلينا فسيذهلوننا بقصص كوارث وأمور شائنة ومآسي مريرة، تحلق إلى التلال وتبقى هناك في التربة المظلمة وفي زعيق الطيور. فحيال أسف محض كهذا الأسف، من يمكنه أن يميز ما هو لي عما هو لك؟ فالأسى الحقيقي هو أن كل روح تخرج من مثواها. وقد عاشت «فينغربون» دائماً بين المطرودين المنبوذين.

كانت البلدة تغصّ بهم في الأوقات الحرجة، وحين يمشون على جوانب الطرق ليلاً، كان أطفال «فينغربون» يرفعون أغطيتهم فوق رؤوسهم ويدمدمون الأدعية المعروفة التي ترجو من الرب، في حال ماتوا وهم نيام، أن يعتني بأرواحهم على الأقل[1].

بدأت الجارات ومرتادات الكنيسة يجلبن لنا كسرولات الطعام والكعك بطعم القهوة. وقد جلبن لي جواريب خطنها بأنفسهن وقبعات ولحفاً. وكن يجلسن على طرف الكنبة، واضعين ما جئن به في أحضانهن ويطرحن استفسارات رقيقة عن مجموعة سيلفي من الصفائح والعبوات. وإحدى هذه السيدات قدّمت صديقتها بوصفها زوجة قاضي محكمة إشهاد.

كنت في حقيقة الأمر سعيدة لأن لوسيل نجت من هذه المشاهد. وفي البداية لم أفكّر أنا أو سيلفي فكرنا بدعوة أولئك الجارات إلى الدخول. كانت ردهة البيت مكتظة بالصحف والمجلات التي جمعتها سيلفي، وقد كدّست بصورة مرتبة، أخذاً في الاعتبار أن بعضها جرى

(1) في هذا أشارة إلى صلاة يتلوها الأطفال عادة:

Now I lay me down to sleep, I pray the Lor my soul to keep; If I should die before I wake, I pray the lord my soul to take

لفّه ربما لضرب الذباب به. ومع ذلك فقد احتلت نهاية الغرفة حيث كانت المدفأة في السابق. ثم كان هناك الصفائح المصطفة على طول الجدار قبالة الكنبة. ومثل الصحف كانت تصل إلى السقف ومع ذلك فقد احتلت مكاناً كبيراً من الأرض. بالطبع كان يمكننا القيام بترتيبات أخرى، لو أننا خططنا لاستضافة الناس، لكننا لم نخطّط لذلك. حدّقت الزائرات بالصفائح والصحف وكأنه يجدر بسيلفي أن تفكّر أن أموراً كهذه لا يناسب وضعها في ردهة البيت. وكان هذا سخيفاً. فنحن ما عدنا نعتبر تلك الغرفة ردهة، بما أنه، وقبل أن نلفت أنظار تلك السيدات، لم يأت أحد لزيارتنا. من يفكّر في إزالة الغبار وشباك العنكبوت في غرفة تستعمل لتخزين الصفائح والصحف؛ أشياء لا قيمة لها على الإطلاق؟ أظنّ أن سيلفي احتفظت بها فقط لأنها اعتبرات أن المراكمة هي جوهر التدبير المنزلي، ولأنها اعتبرت أن ادخار أمور ذات قيمة دليل على تقشف مثير للريبة بصورة خاصة. وكان المطبخ مزدحماً بالصفائح والأكياس الورقية البنية. وكانت سيلفي تعرف أن مثل هذه الأشياء تأتي بالفئران، فأحضرت إلى البيت قطة صفراء سمينة قضمت نصف أذنها، وقد وضعت هذه القطة مرتين، وكانت الجراء التي أنجبتها في الحمل الأول كبيرة كفاية بحيث تتغذى على طيور السنونو التي بنت أعشاشها في الطابق الثاني. وكان هذا جيداً ومفيداً، لكن كانت القطط غالباً تأتي بالطيور إلى الردهة، وتترك الأجنحة والقوائم والرؤوس منتشرة في المكان، وصولاً إلى الكنبة. وبالطبع فإن النسوة اللواتي زرننا قد قتلن وسلقن ونتفن وأفرغن أحشاء ومزقن أوصال وشوين وأكلن ما

لا يحصى من الطيور. ومع ذلك، فقد أجفلهن منظر تلك البقايا من طيور السنونو والدوري، بقدر ما أجفلتهن القطط نفسها، التي كان يصل تعدادها إلى ثلاثة عشر أو أربعة عشر قطاً. كلما صارت تطول أكثر مدة مكوث تلك السيدات، عرفت أن اهتمامهن لن يزول وأن الموضوع لن يتغيّر، ولطالما اعتذرت عن البقاء وصعدت إلى حجرتي في الطابق الأعلى وخلعت حذائي وعاودت التسلل ثانية على السلم مختلسة النظر والسمع، بهذه الحيلة البسيطة، على أعمال القدر، قدري الشخصي على الأقل.

خلال أحاديثهن مع سيلفي كانت تسود فترات كثيرة من الصمت. تقول سيلفي مثلاً «يبدو أن الشتاء جاء باكراً هذا العام»، فتجيب إحداهن «سأطلب من زوجي أن يصلح لك تلك النوافذ المحطمة»، وتقول أخرى «عزيزي ميلتون سيؤمن لك بعض الحطب، فهو يحتاج إلى التمرين». ثم يسود الصمت. تقول سيلفي: «أأجلب المزيد من القهوة؟»، فتجيب إحداهن: «لا تزعجي نفسك يا عزيزتي»، وأخرى «لقد عرجنا عليك فقط لكي نترك القفازات والكعك والكسرولات»، وثالثة «لا نريد أن نتعبك يا عزيزتي». ثم يسود الصمت. وقد سألت إحدى النسوة سيلفي ما إذا كانت تشعر بالوحدة في «فينغربون»، أو إذا كوّنت صداقات جديدة مع نسوة من عمرها. فأجابتها سيلفي بلى إنها وحيدة، وبلى من الصعب تكوين صداقات، لكنها معتادة على الوحدة ولا تمانع هذه الحال.

«لكنك وروثي تترافقان كثيراً».

«آه طوال الوقت، إنها كالأخت بالنسبة إلي. كأنني أرى أمها من جديد».

ساد صمت طويل.

كان لدى أولئك النسوة نية واضحة، وهدفاً محدداً، لكنهن كنّ خائفات من تمزيق شرنقة خصوصيتنا. كانت لديهن فكرة عامة عن أصول اللياقة الاجتماعية لكنهن بالكاد مارسنها عملياً، وبالتالي كن ميالات إلى التزام جانب الحذر، والتكلم بصورة غير مباشرة، والاستسلام للخجل. لقد داوين جرحى واعتنين بمرضى وشاركن منكوبين أحزانهم وأطعن الوصايا التوراتية، وأولئك منهن اللواتي كن أكثر حزناً وعزلة من أن يضطلعن بأنشطة اجتماعية مباشرة كن يظهرن عاطفتهن عبر التبرع بالأطعمة أو الملابس، إلى حدّ ما تسمح به مقاصدهن المقتصدة، في ذلك الخفر الذي جعل صدقاتهن مقبولة. إذا ما عنت أعمالهن الخيّرة افتقارهن إلى سوى ذلك مما يشغلن أنفسهن به، فهذا لا يعني أنهن نسوة صالحات في نهاية المطاف. لقد خلقن لكي يلتزمن المثل المسيحية منذ الصغر، حتى أصبحت عادة لهن، واكتسبت العادة صلابة شديدة بحيث بدت دافعاً أو غريزة.

فإذا كانت «فينغربون» تتميّز بشيء – عدا عن الوحدة والجريمة – فهو تلك الحماسة الدينية من أنقى الأنواع وأندرها. كان هناك في الواقع العديد من الكنائس التي تتشابه رؤاها عن الخطيئة والخلاص، إلى حدّ أن تميّز كنيسة عن أختها يظهر في أعمال الخير التي تقوم بها فحسب. وكان واجب أداء تلك الأعمال ملقى على كاهل النساء، بما

أن الخلاص، على المستوى الكونيّ، يعدّ شأناً نسائياً أكثر منه ذكورياً.

كانت دوافعهن لزيارتنا معقدة يصعب إدراك كنهها، لكنها جميعاً من النوع العام نفسه. كن مجبرات على الاتساق مع فكرتهن عن الورع والتربية الصالحة، وبرغبة وتصميم لإبقائي، إذا جاز القول، آمنة ضمن الأبواب المغلقة. لأنهن بالتأكيد لاحظن فيّ، خلال الأشهر الأخيرة، ميلاً إلى ألا أصفف شعري أبداً، وأن ألعب به وأضعه في فمي باستمرار. ولم يرينني أنطق بكلمة خلال تلك الأشهر، بما أنني لم أكن أتكلم مع غير سيلفي. فكان لديهن سبب للشعور بأن امتيازاتي الاجتماعية تتناقص، وأنه قريباً سأشعر بعدم الانسجام والراحة في بيت نظيف وضعت ألواح زجاجية على مصاريع نوافذه؛ أنني يمكن أن أضيع في المجتمع الاعتيادي، أن أصبح شبحاً، وعندئذ لن يشبع طعامهن جوعي، وستتحسس يداي لحفهم وأغطية وسائدهن المخرمة من دون الإحساس بها أو إيجاد الراحة فيها. مثل روح منعتقة، لن أجد في هذه الأشياء سوى الصور المشابهة الزائفة التي أحتاج إليها للاستمرار في العيش. إذا كان الجبل الذي يرتفع وراء «فينغربون» بركانياً[1]. وإذا أغرق البلدة يوماً بالحجارة، وجاء من تبقى من الناجين والفضوليين لكي يشاهدوا الخراب ويقدّروا الخسائر ويزيلوا الفوضى بالديناميت والمعاول، فسيجدون فطائر متحجّرة

(1) في هذا إشارة إلى جبل Vesuvius البركاني في شرق إيطاليا، الذي انفجر في سنة 79 وقبل ذلك انفجر في سنة 1660 قبل الميلاد وأدى هذا الانفجار إلى مقتل آلاف الناس، ولكن المهم هنا أن الرماد حافظ على ما طمر تحته، ولهذا فهو مهم للجيولوجيين اليوم وللأنثربولوجيين في دراسة المتحجرات. روثي هنا تعقد مقارنة بين ذلك المكان وفينغربون كما يتضح.

وأحفورات كسرولات وسيخدعهم المشهد. وبالطريقة نفسها إلى حدّ كبير، فالمتشردون المتسكعون، بعد أن يخلعوا قبعاتهم ويدخلوا إلى مطبخ أحدهم مثلما يفعلون حين يكون الطقس قاسياً، ينظرون إلى الردهة ويدمدمون «لديك مكان جميل هنا»، والسيدة التي تقف على مقربة من أي واحد منهم تعرف أنها إذا ما هجرت زوجها ونبذت أطفالها وقدمت كل ما تملكه لهذا الرجل المتشرد الوحيد، فآجلاً أم عاجلاً سيقول «شكراً»، ويرحل ليكون عند المساء أكثر الكائنات جوعاً على الكوكب ولا يجد شيئاً ليقيته، بعد أن ترك كل شيء خلفه، مثل شيء دفعته الريح إلى الزاوية. لماذا يتعيّن عليهن أن يشعرن بالإدانة في حقيقة أن تلك الأرواح عديمة الاسم نظرت إلى نوافذهن المضاءة بلا أي حسد وحصلت على أفضل الوجبات، بوصفها ليست أكثر من واجبها الضئيل؟

تخيل أن نوح هدّ بيته واستعمل ألواحه لبناء طوف، بينما جيرانه ينظرون متشككين كلياً. البيت، لابدّ من أن يقول لهم، يجب أن يطلى بالقار ويبنى لكي يطفو على علو غيمة، إذا تطلب الأمر ذلك. لا فائدة من الأرض المزروعة بالخس، والبناء الجيد أسوأ من أنه عديم الجدوى. يجب أن يكون في البيت بوصلة ورافدة قص[1]. كانت الجارات يضعن أيديهن في جيوبهن ويلوين شفاههن ويعدن إلى بيوت يجدنها تنتظرهن بطرق لا يفهمنها. وربما، وهن على تلك الحال من الورع، لم يشأن أن يرينني أصل إلى الحالة الحزينة المنبوذة حين يدفعني كشف داخلي ما إلى

(1) Keel: عارضة رئيسية تمتد على طول قعر المركب.

الإحساس بأنني متفوقة على جيراني.

«أسمعت شيئاً عن والدهما؟».

لابدّ من أن سيلفي هزت رأسها نفياً.

«أو عن السيد فيشر؟».

«من؟».

«زوجك يا عزيزتي».

أخيراً قالت إحداهن «أتعرفين لماذا نطرح كل هذه الأسئلة؟».

ربما أومأت سيلفي برأسها، أو هزت رأسها. لم تقل شيئاً.

تابعت السيدة، «بعض الناس - بعضنا - يشعرون أن روثي ينبغي أن... أن فتاة صغيرة مثلها ينبغي أن تحصل على حياة طبيعية».

«لقد عرفت الكثير من المتاعب والأسى. الكثير أجل، هذه حقيقة الرب، وهذا مؤسف. مؤسف حقاً».

«إنها بخير حقاً»، أجابت سيلفي.

دمدمات. قالت إحداهن «تبدو حزينة جداً».

فأجابت سيلفي «حسناً، إنها حزينة».

صمت.

قالت سيلفي «يجب أن تكون كذلك». ضحكت. «لا أعني أنها يجب أن تكون حزينة، لكن كما تعرفن من لا يكون كذلك في مثل حالها؟».

مجدداً، صمت.

قالت سيلفي: «هكذا الأمر في العائلات. يشعر المرء بهم حقاً بعد

رحيلهم. عرفت امرأة ذات مرة كان لديها أربعة أطفال، ولم تبدُ مكترثة البتة بأمرهم. كانت تقدم لهن الفاصولياء الخضراء على الإفطار، ولم يكن يهمهما أن تنسجم فردة حذاء أحدهم مع الفردة الأخرى. هذا ما أخبرني به الناس. لكنني عرفتها حين صارت عجوزاً، وكان لديها تسعة أسرّة صغيرة في بيتها، كلها مرتبة، وكل ليلة تتنقل من واحد إلى الآخر، وتضع فيها الأطفال، مجدداً ومجدداً. كان لديها أربعة أطفال لكن بعد رحيلهم جميعاً أصبح لديها تسعة! حسناً، لعلها كانت مجنونة. لكن فهمتن قصدي. هلين وأبي لم يكونا مقربين من بعضهما أبداً».

صمت.

«الآن أنظر إلى روثي وأرى هلين أيضاً. لهذا السبب العائلة مهمة جداً. أناس آخرون يخرجون من الباب ويختفون بعدها!».

صمت. صوت تململ على الكنبة.

«يجب أن تبقى العائلات معاً. وإلا خرجت الأمور عن السيطرة. أبي، كما تعرفن... لا أستطيع أن أتذكر حتى شكله، أعني حين كان على قيد الحياة. لكن منذ ذلك الحين إنه أبي هنا وأبي هناك، وأحلام... مثل المرأة المسكينة ذات التسعة أطفال. كانت تجوب البيت طوال الليل!».

ساد صمت طويل. أخيراً قالت إحداهن «العائلات أمر محزن، وهذه هي الحقيقة»، وقالت أخرى «لقد فقدت ابنتي قبل ستة عشر عاماً في يونيو وما زلت أرى وجهها أمامي الآن»، وقالت ثالثة «إذا استطعت الاحتفاظ بهم، فهذا سيء كفاية، لكن إذا خسرتهم...». العالم مليء

بالمتاعب. أجل إنه كذلك.

قالت سيلفي «يجب أن تبقى العائلات معاً، هذا ضروري، ليس من سبيل آخر. أنا وروثي لدينا ما يكفي من المتاعب بسبب خساراتنا حتى الآن». بدت السيدات مستغرقات في أفكارهن. أخيراً قالت إحداهن «ولكن يا سيلفي عليك أن تبقيها بعيدة عن قطارات الشحن».

«ماذا؟».

«لا يجب أن تتنقل بين عربات الشحن».

ضحكت سيلفي «آه لا. لقد حصل هذا مرة واحدة فقط. كنا متعبتين جداً كما تعرفن. كنا في الخارج طوال الليل، وأخذنا أسرع الطرق إلى البيت».

«في الخارج أين؟».

«في البحيرة.

دمدمات.

«على متن ذلك القارب الصغير؟».

«إنه قارب ممتاز. لا يبدو رائعاً لكن لا بأس به».

ودعتها النسوة وتركن ما جلبنه على الكنبة.

نزلت واقتعدت الأرض قرب سيلفي وتناولنا بعض الطعام من القدور والأطباق التي تركنها.

قالت سيلفي: «أسمعت ما قلنه؟».

«إممم».

«ما رأيك؟».

كانت الغرفة معتمة. والصفائح المكدّسة عالياً التمعت باللون الأزرق وكان منظرها بارداً محزناً. قلت: «لا أريد التكلم».

قالت سيلفي: «لا أعرف ماذا أفكر». ثم أضافت أخيراً: «يمكننا أن نصلح الأمور هنا. أظن أنه يمكن نقل بعض الأشياء إلى السقيفة».

في اليوم التالي مشطت شعري وذهبت إلى المدرسة وحين عدت وجدت أن سيلفي قد أفرغت الردهة من الصفائح كلياً وشرعت بإزالة الصحف ووضعت باقة من الورد الاصطناعي على مائدة المطبخ، وكانت تقلي الدجاج.

سألتني: «والآن أليس هذا جميلاً؟»، ثم: «أكان يومك جيداً في المدرسة؟».

كانت سيلفي جميلة لكنها كانت تبدو أجمل حين تحفل من أمر ما وتشعر بأنه تجب مواجهة العالم على نحو ما، وعندئذ تفعل أكثر الأشياء اعتيادية بإرادة مكثفة وقوية، يجعل هذه الأمور تبدو صعبة ومميزة، وكانت تسرّ حتى بالنجاح الجزئي.

قلت: «كانت المدرسة جيدة». على الرغم من أنها كانت رهيبة. لقد ضاق ثوبي علي، وكلما توقفت عن السيطرة على نفسي بجهد واع، تبدأ رجلاي بالارتعاش أو أقضم براجم أصابعي أو ألعب بشعري. لم أستطع أن أبدو أنني مهتمة بشرح المعلمة خوفاً من أن تناديني وأصبح فجأة مركز الاهتمام. رسمت أشكالاً لا تنتهي على دفتري، التي كنت أغيرها كلما شعرت أنها وصلت إلى نقطة أن تكون ملحوظة. وكان هذا لكي أصرف تفكيري عن الرغبة في الخروج من الصف، وكان

هذا دافعاً قوياً، على الرغم من أنني أستطيع المراهنة على لطف الآنسة نول التي كانت شديدة البدانة بحيث أنها انتعلت حذاء رياضياً من دون شريط ولسانه ناتئ إلى الأعلى، والتي كانت تبكي حين تقرأ أشعار كيتس وتشعر بالخجل.

«أرأيت لوسيل؟».

«لا». بلى رأيتها، كانت في كل مكان، لكننا لم نتحادث.

«ربما كانت مريضة. ربما يجدر أن أزورها وأطمئن على حالها، فأنا في نهاية الأمر خالتها».

«أجل». ولكن، أي فرق كان ليحدثه ذلك؟ شعرت أن هشاشة منزلنا أصبحت الآن عظيمة بحيث أن التصدّع بات حتمياً، فكان عبثياً القلق ما إذا كان ثمة حكمة أو منطق في أي خطة ما تهدف لإنقاذه. شيء ما أو سواه سيتسبّب بانهياره عما قريب.

قالت سيلفي: «سآخذ لها بعض الدجاج». أجل، خذي لها بعض الدجاج. استحوذت هذه الفكرة على سيلفي إلى درجة أنها وضعت جانباً الرقبة لنفسها والأجنحة لي، ووضعت كل شيء آخر في منديل شاي. غسلت يديها وربطت شعرها بالدبابيس وانطلقت إلى منزل لوسيل.

كان الوقت متأخراً حين عادت. كنت قد التهمت أجنحة الدجاج ومضيت إلى السرير مع كتاب «ليس كغريب»[1]. جاءت سيلفي وجلست على حافة السرير.

(1) Not As a Stranger: رواية لمورتن تومبسون نشرت عام 1954.

قالت: «أولئك النسوة كنّ يتكلمن إلى لوسيل. أتعرفين ماذا يردن أن يفعلن؟».

«أجل».

«أخبرتني لوسيل بذلك، لا أحسبهن قادرات على فعل ذلك، أتظنين ذلك؟».

«لا». أجل.

«لا أظن ذلك أنا أيضاً. سيكون ذلك رهيباً. إنهن يعرفن ذلك».

«أجل». أجل. سيكون رهيباً. وهنّ يعرفن ذلك.

«اعتقدت أنهن أردن فقط التحدث عن قطار الشحن. ظننت أنهن فهمن. لكن لوسيل تقول الآن إنه بسبب أننا أمضينا الليلة في البحيرة. تباً، سأوضح لهن».

وضّحي لهن يا سيلفي؟

«لا تقلقي». ربتت الكتلة التي كونتها ركبتي تحت الملاءة.

«سأشرح لهن كل شيء». أخيراً غفوت على الرغم من الضوضاء التي أحدثتها سيلفي خلال غسيل الأطباق وترتيبها. في الصباح كانت نافذة المطبخ قد نظفت وحفت وكان هناك زبدية وملعقة وصندوق من «الكورنفلايكس» وكأس من عصير البرتقال وقطعتان من التوست المدهون بالزبدة على طبق وآنية من الأقحوان الاصطناعي. كانت سيلفي متسخة من أثر الصحف وكان هناك شباك عنكبوت في شعرها.

قلت: «هذا جميل».

أومأت برأسها.

«يا للفوضى! صدقاً. سهرت طوال الليل. والآن تناولي إفطارك. ستتأخرين على المدرسة».

«أتظنين أنني يجب أن أبقى في البيت لمساعدتك؟».

«لا! أنت اذهبي إلى المدرسة يا روثي. سأساعدك لكي تفرشي شعرك. يجب أن تبدي بمظهر حسن».

لم أتخيل يوماً أن سيلفي كانت قادرة على السرعة أو العجلة. كنت متفاجئة في الحقيقة أنها تمضي إلى هذا الحدّ من أجلي. لطالما شعرت أن سيلفي وأنا كنا معاً بفعل الصدفة؛ الريح تهب محملة بحشيشة اللبّن وتبقى بذرتان على الأرض. شعرت أننا تشاركنا البيت نفسه بالتراضي لأنه كان فسيحاً كفاية وشعرنا كلانا بالراحة فيه، ولأن التهذيب كان مزروعاً في صميم كل واحدة منا. لو جاء قاض وأخفاني تحت ردائه الأسود مثلما يفعل المتشردون في قصص جدتي التخويفية، وحملني إلى المزرعة التي يُحكى عنها، فستسري في أرجاء البيت هزة، وتقرقع الأطباق، وتهتز الأكواب، وترن الكؤوس لأيام ربما، وسيكون لدى سيلفي قصة أخرى تحكيها، ليست حزينة بقدر القصص الأخرى. بيد أنه هنا كان ثمة الهدف والإلحاح. عرفت أننا محكومتين باللعنة. ارتديت تنورة أحضرتها سيلفي لي وكوتها (أمور كهذه تعني لهن كما قالت)، وأفضل كنزة عندي، ونعّمت سيلفي شعري الأجعد شعري بفرشاة عريضة الأسنان.

قالت وأنا أخرج من الباب «والآن امشي مستقيمة، وابتسمي للناس». أمضيت اليوم في بؤس وتشوق، وعدت إلى البيت لأجد سيلفي

جالسة في ردهة نظيفة وأقل قططاً، تتكلم برقة مع مأمور البلدة.

إنه لمن الرهيب أن تفرق أفراد عائلة. وإذا فهمت هذا، ستفهم الباقي. كان مأمور البلدة يعرف ذلك جيداً كالجميع وكان وجهه طافحاً بالأسف.

«ستكون هناك جلسة استماع يا سيدة فيشر»، قال ببرم، لأنه مهما كان ما قد ستقوله سيلفي، فلم يكن ليقول أيّ كلام آخر.

قالت سيلفي: «سيكون هذا رهيباً». وضرب مأمور البلدة كفيه بركبتيه موافقاً، ثم قال: «سيكون هناك جلسة يا سيدتي».

حين دخلت إلى الغرفة وقف ووضع قبعته على بطنه. كان لديه كل سلوكيات الحانوتي الرسمية، وقلت «عمت مساء»، من باب اللطف.

قال: «اعذرينا نحن البالغين، فيجب أن نتكلم». فصعدت إلى غرفتي وتركت مصيري يتحدد بنفسه، بما أنه لم يكن لديّ أيّ فضول بمعرفة ما هو مقدّر لي.

10

قتل قايين هابيل. وراح الدم يصرخ من أعماق الأرض؛ وقع البيت على أولاد يعقوب، وسمع صوت من قلب الزوبعة؛ وحدّت راحيل على أولادها، والملك داود على أبشالوم[1]. القوة التي تقف خلف حركة الزمن هي حداد لا ينتهي. ولهذا يُعرف الحدث الأول بوصفه نفياً، والأخير بوصفه مصالحة وعودة. وهكذا تقودنا الذاكرة قدماً، وهكذا ليست النبوءة إلا ذكرى ناصعة؛ ستكون حديقة ننام فيها جميعاً كطفل واحد في كنف أمنا حواء، معلقين بصلبها وأطرافها.

قتل قايين هابيل، وراح الدم يصرخ من أعماق الأرض، قصة بالغة الحزن لدرجة أنها استوقفت الربّ. ربما لم يستوقفه الحزن القائم في القصة –بما أن أموراً أسوأ حصلت منذ ذلك الحين– بل جدتها. قايين،

(1) Absalom: الابن الثالث للنبي داود، وبحسب الرواية التوراتية عصا والده فقتل في معركة «غابة إفرايم».

صورة الرب، منح تربة الحقل البسيطة صوتاً وأسى، والرب نفسه سمع الصوت، وأحزنه الأسى، وأحدث اضطراباً في الماء حيث رأى وجهه، وأصبح قايين صورة أطفاله وأطفال أطفاله وأطفالهم جميعاً، عبر ألف جيل، وأصبحوا جميعاً عابرين، وأينما ذهبوا يتذكّر الجميع أنه كان خلق ثان؛ أن الدم جرى في الأرض وأنشدت أسيانة. وليكن فيضان الرب، ثم فلتتقهقر المياه إلى برك وبحيرات ومزاريب، تعكس صورة الجنة، جنة. ومع ذلك فوآحة بالدم والشعر. لا يسع المرء أن يكوّر يديه ويشرب من شاطئ أي بحيرة دون أن يتذكر أن أمهات غرقن فيها، وهن يرفعن أطفالهن في الهواء، مع أنهن عرفن، وهن يفعلن ذلك، أنه عما قريب سيبتلع الطوفان جميع الأطفال أيضاً، وإن استطعن إبقاءهم عالياً. افتراضاً، وحده العجز صنع ذرية والطاعن في السن بدا غير مؤذ نسبياً. حسناً، كل هذا قد تطهر، ولم يبق شيء منه بعد الكثير من السنين سوى نكهة ومذاقاً خاصين في المياه، وفي أنفاس الغدران والبحيرات، التي مهما بلغ حزنها وضراوتها، فمن الجليّ أنها أنفاس بشرية.

لا أستطيع أن أتذوق كوب ماء دون أن أتذكر أن عين البحيرة هي عين جدي، وأن مياه البحيرة الثقيلة العمياء هي أطراف أمي، وهي التي أثقلت ثيابها وقطعت أنفاسها وحجبت عنها البصر. هناك تذكّر وقربان، كلاهما بشريّ لا شيء من سموّ القداسة فيهما. لأن العائلات لن تفرّق. فليلعنوا وليشتتوا في المنافي، وليضيع أطفالهم، وليغرقوا في الفيضانات ولتبتلعهم النيران، ولتنشد النسوة العجائز أغنيات حول كل هذه المآسي وليجلسن على الشرفات ويغنين في الأمسيات المعتدلة. كل

أسف يلهم ألف أغنية، وكل أغنية تستدعي ألف أسى، ولهذا هي غير مطلقة في العدد، وكلها واحدة.

الذاكرة هي الإحساس بالخسارة، والخسارة تجرّنا خلفها. بل إن الربّ نفسه هبط إلى الدوامة التي انشأناها في سقوطنا، أو هكذا تروي القصة. وبينما كان على الأرض أعاد جمع عائلات ببعضها. أرجع إليعازر إلى أمه، وأعاد إلى القائد الروماني ابنته. حتى أنه أعاد أذن الجندي المقطوعة الذي جاء لاعتقاله؛ حقيقة تجعلنا نأمل بأن البعث سينطوي على قدر كبير من الاهتمام بالتفاصيل.

بيد أن هذا لم يكن أكثر من تشاغل. كونه إنساناً[1] أحس بقوة الموت، وكونه ربّاً لابدّ من أنه تساءل أكثر مما نفعل كيف سيكون الموت. ومن المشهور عنه أنه مشى على الماء، لكنه لم يولد لكي يغرق. وحين مات حقاً كان ذلك محزناً؛ كم كان شاباً مليئاً بمستقبل واعد، فناحت أمه ولم يصدّق أصدقاؤه الخسارة، وانتشرت القصة في كل مكان ولم يتوقف الحداد، حتى صار مفتقداً بحدة ومتذكراً بقوة بحيث أن أصحابه شعروا به قربهم وهم يمشون على الدرب، ورأوا أحداً يشوي سمكة على الشاطئ وعرفوا أنه هو، وجلسوا ليكي يتناولوا العشاء معه، وهو ما زال مليئاً بالندوب. هناك القليل جداً لنتذكره من أيّ كان؛ نادرة صغيرة، محادثة. لكن كل ذكرى تستعاد وتستعاد ثانية، كل كلمة، مهما كانت عرضية، تنقش في القلب بأمل أن تملأ الذاكرة نفسها، وتتخذ لحماً، وأن يجد التائهون طريق العودة إلى الديار وأن يدخل المندثرون،

(1) السيد المسيح.

الذي نفتقدهم دوماً، من الباب أخيراً ويمسدون شعورنا بمحبة حالمة اعتيادية، معتذرين لأنهم جعلونا ننتظرهم طويلاً إلى هذا الحدّ.

لم ترد سيلفي أن تخسرني. لم تردني أن أصير عملاقة وأتضاعف، إلى درجة أن أملأ البيت برمته، ولا أرادتني أن أرغب في أن أعود خفية وسائلة، إلى الحد الذي يمكنني من أن أخترق الأغشية التي تفصل حلماً عن حلم. لم تشأ أن تتذكرني. فضلتْ أكثر بكثير حضوري البسيط الاعتيادي، مهما بدا هذا الحضور صامتاً أخرق ،حتى تستطيع النظر إليّ دون عاطفة كبيرة؛ كشكل كشكلٍ مألوفٍ، ووجه مألوف، وصمتٍ مألوف. كان يمكنها أن تنسى وجودي في الحجرة، وأن تحدّث نفسها، أو شخصاً يتراءى لها، بمتعة وحماسة، حتى وأنا جالسة قربها. هذا كان قياس حميميتنا؛ أنها لم تكن تفكر بي إطلاقاً.

لكن إذا خسرتني فسيجعلني غيابي استثنائية. لنقل إن أمي عادت يوم الأحد ذاك، لنقل في المساء، وأنها قبّلت رأسينا وتصالحت مع جدتي، ثم جلسنا لنتناول العشاء، جزوعتين ونحن نصغي إلى قصص عن أناس لا نعرفهم، ثم خرجنا للعب في العشب المصقع في الباحة العميقة الغربية، آملتين أن أمنا ستلاحظ كم الوقت تأخر، وآملين ألا تلاحظ. قل إننا عدنا طوال الليل بالسيارة إلى البيت، وتكومنا أنا ولوسيل في المقعد الخلفي وغفونا واعيتين على للهواء البارد الذي يصفر من النافذة المشقوقة بمقدار إنش واحد، للتخفيف من عبق عطر أمنا ودخان سجائرها.

قد تغني «ماذا سأفعل حين تبتعدين عني»[1] أو «رسائل حب من

(1) What'll I do when you are far away أغنية لأيرفينغ برلين.

قلبك مباشرة»[1] أو «كوخ للبيع»[2] أو «آيرين». كانت تلك أغنياتها المفضّلة. أتذكر أنني رحت أنظر إليها من المقعد الخلفي في طريقنا إلى «فينغربون»؛ شعرها المتموج الكثيف، كتفاها المربعان، فستانها الرمادي الجميل، يداها الطويلتان على المقود، وأظافرها المتوهجة بحمرة قانية. كنت مشدوهة من هدوئها، بالرزانة التي تقوم بها بأقل إيماءة. أنا ولوسيل لم نرها تقود سيارة من قبل، وأعجبنا أشدّ الاعجاب بها. كانت سيارة برنيس مليئة برائحة الغبار مثل كنبة قديمة. تمسكنا بالحبل الرمادي الغليظ الذي امتد على ظهر المقعد الأمامي وكان يرتفع ويهبط بنا كأننا نقود مركبة تجرها الجياد.

امتلأ الهواء بحبيبات الغبار الشبيهة بالخيوط الصغيرة الملتوية، أو الشعيرات، والتي أخبرنا أحدهم مرة أنها ذرات. تشاجرنا أحياناً، وعددنا الجياد والمقابر في أحيان أخرى، ولم تخاطبنا مرة. طلبنا التوقف عند كشك للآيس كريم على جانب الطريق في الغابات، وتوقفت واشترت لنا الفدج الحار[3] بالمثلجات، وقالت البائعة إننا لطيفتان وابتسمت أمي بشرود وقالت أحياناً تكونانِ كذلك.

شعرت أن هناك في هذا كله سكون بداية التجلي ووقاره. ربما الذاكرة هي منشأ، ليس النبوّة فحسب بل المعجزة أيضاً. لأنه يبدو لي أننا كنا نسحب مراراً إلى الإحساس بهدوئها. يبدو أن سكونها أجفلنا، مع أنها

---

(1) Love letters straight from your heart أغنية لنات كينغ كول.

(2) A Cottage for Sale، أغنية شعبية من الثلاثينات، عرفت بأصوات كثيرين من بينهم فرانك سيناترا.

(3) Fudge عبارة عن شوكولا سائلة حارة حلوة المذاق تسكب فوق الآيس كريم.

لطالما كانت هادئة. أتذكرها واقفة طاوية ذراعيها، تدفع الغبار المتكوّم بطرف خفّها بينما تنتظرنا حتى ننتهي من تناول «الفدج». جلسنا إلى طاولة خضراء حارة، وكان الطقس رطباً، وكان هناك ذباب أسود يطن طنيناً عالياً وقد تلونت أجنحته بألوان قوس قزح وراح يتغذى من بقايا المثلجات ثم يحف حواصله بدقة بقوائمه الأمامية، كالقطط المنزلية. كانت طويلة جداً وهادئة في ثوبها الرمادي الفضي، دون أن تنظر إلينا قط، وكنا متعرقتين لزجتين ومتخمتين وسئمتين من بعضنا بعضاً.

أتذكرها، وقورة في دعة المقدّر، المستدعى، وتكاد تبدو شبحاً. لكنها لو عادت بنا ببساطة إلى البيت، إلى الشقة العالية ذات السقالات، فما كنت لأتذكرها على هذا النحو. ربما كنا انزعجنا من غرابة أطوارها حين نكبر. ربما ننسى عيد مولدها، ربما نشجعها على شراء سيارة أو تغيير قَصّة شعرها. وربما نرحل عنها أخيراً. ربما كنا ضحكنا معاً بمرارة ورضا من طفولتنا المستوحدة الغريبة، على الضوء الذي تبدو معه جميع إخفاقاتنا حتمية، وجميع نجاحاتنا إعجازية. ثم نبادر إلى الاتصال بها هاتفياً بدافع الحنين، ونضحك بمرارة بعد ذلك لأنها لم تطالبنا بشيء ولم تقل لنا شيئاً، وكانت تصمت من وقت لآخر، وكانت مسرورة لإنهاء المخابرة. قد نصحبها إلى مطعم وإلى السينما في عيد الشكر ونشتري لها الكتب الأكثر مبيعاً على عيد الميلاد. وقد نحاول أن نأخذها في نزهات، ونساعدها على ممارسة الهوايات، لكنها في النهاية ستتقلص بين أيدينا وتصبح عاجزة. قد تحمل عجزها بالصبر المشدود نفسه الذي حملت فيه همّنا، والذي به تحمّلت كل مصاعب

الحياة، وقد يجعلنا صمتها أشدّ غضباً. ربما نتقابل أنا ولوسيل من حين لآخر، وتقريباً لا نتكلم أبداً عن أمور أخرى. لا شيء يمكن أن يكون أكثر إلفة لنا من صمتها، ومن حزنها وهدوئها الشارد. أعرف كيف كان سيكون الأمر، لأنني لاحظت أنه، في الطريقة التي يبدو فيها الناس غرباء، يزدادون غرابة. قد نضحك ونشعر أننا مهجورتان ومظلومتان دون أن نعرف أنها قطعت كل تلك المسافة إلى حافة البحيرة لكي تريح رأسها وتغمض عينيها، وأنها عادت ثانية من أجلنا. قد تكون بقيت غير متحولة، وما كنا لنعرف أن هدوءها كان بخفة صفحة الماء، وأنه أبقاها كما قطعة معدنية يمكن أن تطفو على صفحة مياه ساكنة. ما كنا لنعرف شيئاً عن طبيعة ومدى أساها لو أنها عادت. لكنها تركتنا وفرقت شمل العائلة وأُطلق الأسى ورأينا أجنحته ورأيناه يسلك ألف درب إلى التلال، وأحياناً أظن أن الأسى هو حيوان مفترس لأن الطيور تزعق فجراً برعب رهيب، وهناك، كما قلت قبلاً، مرارة قاتلة، في رائحة البرك والقنوات. حين كنا طفلتين وكنا نرتعب من الظلمة، كانت أمي تقول لنا إننا إذا أغمضنا عيوننا فلن نراها.

كان عندئذ حين أدركت التطابق بين الفضاء الذي في رأسي والفضاء الذي حولي. بت أرى فحسب الشكل نفسه على جفن عيني أو على جدار حجرتي، أو في الأشجار تحت نافذتي. حتى وهم الأشكال الخارجية يفشل حين تتفرق العائلات.

أدركت سيلفي أن خطتها الأولى لكي تبقينا معاً قد أخفقت. كان لديها القليل من الأمل بأن جلسة الاستماع، التي كان موعدها بحسب

رسالة تلقيناها بعد أسبوع، ستجري حسناً. ومع ذلك أصرّت على تدبيرها المنزلي. لمعت النوافذ أو تلك التي ما زال لديها ألواح زجاجية، وغطّت الأخرى بترتيب بشريط كرتوني بني. وغسلت أنا أدوات المائدة وأعادتها إلى خزانة المطبخ وأحرقت علبها في البستان. رأت سيلفي النار وخرجت تحمل كدسة من المجلات التي تجمعت على الشرفة. كان من الصعب حرقها. فأحضرت سيلفي صحفاً من السقيفة ورحنا نكوّر الصفحات ونحشرها بين المجلات ثم نشعلها بأعواد الثقاب، وبعد قليل بدأت المجلات تنتفخ وتنبعج وتنقل النار إلى بعضها بعضاً، وأخيراً بدأت تتصاعد دخاناً في الهواء. كان ذلك يوماً جميلاً.

كانت الأشجار المثمرة جرداء كلها، ووريقاتها على الأرض كانت رخوة وكريهة الرائحة كالجلد المبلل. وكانت السماء زرقاء صافية، لكن الضوء كان بارداً باهتاً والظلال سوداء ومحددة. لم يبد أنه هناك أيّ ريح على الإطلاق. رأينا حرارة النيران تشد الهواء وتستفزه، ممدّدة نسيج الفضاء ومستقرة على تصاعدها الوحشيّ.

اسودّت صفحات المجلات وتحوّلت الأحرف والمواضع السوداء من الصور سوداء فضية، ثم حامت خفيفة إلى ذرى عالية، حتى التقطها تيار هوائي مرتفع، وحملتها ريح غير محسوسة. مدت سيلفي ذراعيها وجعلت ورقة محلقة تحطّ على سطح كفها. أرتها لي؛ في أسود فضي، وجه امرأة فضي معتم تضحك وتحتها بأحرف عريضة عبارة: «الأفضل أن تتأخر من ألا تأتي أبداً!» لوّحت سيلفي بيدها لتطيّر الورقة، فتناثرت زواياها وحوافها، ليبقى الوجه الضاحك فحسب، من الحاجبين نزولاً.

صفقت بيديها في عامود الحرارة، وسقطت السيدة في رماد وهباء.

«ها قد انتهينا!»، قالت سيلفي، وهي تراقب الهباء يطير. مسحت يديها المسودّتين بحاشية تنورتها. رأيت الهيئة المشتعلة لكلب والزبدية التي يأكل منها، وفريق بايسبول وسيارة شيفروليه ومئات الكلمات. لم يخطر لي قطّ أنه يجب إنقاذ الكلمات أيضاً، وإن بدا ذلك – حين فكّرت به – جلياً. كان من العبثي التفكير أن الأشياء ممسوكة في مكانها بشبكة من الكلمات.

ظللنا نحرق الصحف والمجلات حتى ما بعد الظلام. نسينا العشاء. مرة بعد أخرى خرجت سيلفي من بقعة الضوء المنبعثة من النار وعاودت الظهور بعد قليل محمّلة بكدسات جديدة لنحرقها. أصبحنا كلانا واعيتين بأنه ما لم تكن «فينغربون» كلها تراقبنا فهي بالتأكيد واعية إلى ما نفعله. لو كنت وحدي لكنت انكمشت تحت كل هذه النظرات. لكنت بقيت في البيت وقرأت على ضوء المصباح اليدوي تحت الأغطية دون أن أخرج إلا لشراء الخبز والبطاريات. لكن سيلفي تصرفت مع جمهورها بصوت مسرحي وإيماءات كبيرة. استمرت بالقول بصوت عال: «لا أعرف لَمَ لم نفعل هذا منذ أشهر»، كأنها تحسب أنه ثمة مستمعين وراء ضوء النيران، بين أشجار التفاح. كل شيء حسبت سيلفي أن أياً كان قد يفسره على أنه أهلية وجدارة كانت تفعله بجهد وكدّ هائلين. أحرقنا كل مجموعة الصحف والمجلات في تلك الليلة، وعلب الصابون والأحذية والتقاويم وكاتالوجات محلات سيرز، وأدلة الهاتف بما فيها الدليل الراهن.

وأحرقت سيلفي كتاب «ليس كغرية». قالت: «هذا ليس من الكتب الذي ينبغي أن تقرأيها. لا أعرف كيف وصل إلى البيت!». كان المقصود من هذا أن يثير إعجاب السادة القضاة بين الأشجار، فلم أقل لها إنني استعرته من المكتبة.

أحببت مشاهدة نوبات الحماسة والحيوية هذه، سيلفي تورّد خداها من النيران، وهي ترمي كل ذخيرتها من المجلات لتلتهمها النار بما في ذلك عدداً من ناشيونال جيوغرافيك يتضمن صورة لتاج محل. قالت: «سنشتري بعض الثياب. سنشتري لك شيئاً ينمّ عن الذوق السليم. ربما بزة. ستحتاجين إليها للذهاب إلى الكنيسة على أيّ حال. وسأصطحبكِ إلى الصالون لتمويج شعرك. حين ترتبين نفسك فإنك تعطين انطباعاً حسناً جداً. هذا صحيح يا روثي». ابتسمت لي عبر النيران. بدأت أتخيل أنني وسيلفي قد نبقى معاً بعد جلسة الاستماع. بدأت أحسب أن الرغبة في الإصلاح قد تعتبر إصلاحاً في حدّ ذاته، لا لأن سيلفي لا تستطيع خداع أحد، لكن لأن توقها لإنقاذ بيتنا قد يقنعهم أنه لا يجب أن يهدم. ربما أنا وسيلفي يمكننا السير بتثاقل على الثلج إلى الكنيسة معتمرتين قبعتين دائريتين صغيرتين. ونجلس في الصف الأخير قرب الباب، وتستدير سيلفي لكي تمدّ رجليها. وقد تقاطع العظة وترتل «هولي هولي هولي»[1] وتتثاءب في قفازها. لا شك في أنها ستواظب على حضور اجتماعات الكنيسة أيضاً. وقد طلبت سلفاً بذوراً لكي تصنع مشاتل زهور حول البيت في الربيع، ووضعت ستارة صفراء

(1) Holy, Holy, Holy: ترتيلة كنسية تعود إلى القرن التاسع عشر.

جديدة في المطبخ. تلك الأيام كانت تبحث باستمرار عن سبل لكي تجعل حياتنا تبدو مناسبة في أنظار الآخرين، أو ما ظنته توقعاتهم حول حياتنا، وكانت مفعمة بالتصميم، الذي بدا في بعض الأحيان أملاً.

«طلبت ديكاً رومياً لعيد الشكر. فكرت أن ندعو لوسيل والسيدة رويس أيضاً». كانت الآن النار قد أصبحت كتلة من الدخان. ولكزتها سيلفي بقضيب، مما أطلق هبات الدخان السوداء كالريش. وفي طرف ناظريّ، قفزت الظلال بسرعة.

قلت: «يجب أن ندخل، الطقس بارد».

قالت سيلفي: «أجل، اسبقيني ريثما أرشّ بعض التراب على الرماد». على ضوء قمر شحيح ونور النيران مضت إلى السقيفة وجلبت أحد المجرافين اللذين استندا على الجدار منذ زمن طويل حتى علا الصدأ أطرافهما.

وقفت عند الباب أشاهدها وهي ترمي التراب على الجمر - ضربة مجرفة واحدة ويرتفع الشرر والضوء في الهواء. كانت سيلفي مضاءة كلها وحولها تقافزت الظلال من وراء تلك الأشجار. معاول أخرى من التراب وصار يقل تطاير الشرر وتبهت هالة الضوء حول سيلفي. وأخيراً لم تعد سيلفي ولا البستان باديين. جلست على الدرج خارج الباب المؤدي إلى غرفة سيلفي. سيلفي لم تتحرك. لم أسمعها تتحرك. انتظرت لأرى كم من الوقت ستظل ساكنة بعد. ظننت أن العتمة قد تعيد سيلفي إلى ذاتها القديمة ثانية،.وأنها قد تختفي من جديد، لكي تزيد من معارفي أو معارفها. لكنها غرزت المعول في الأرض. سمعت صوت اختراقه

للتربة وسمعتها تفرك يديها بطرف معطفها؛ حركة عنت دائماً انتهاء أمر مفعم بالتصميم.

مشت نحوي حيث أنا جالسة على الدرج. وبما أن القمر كان على الجانب الآخر من البيت، فقد كنت متوارية في الظل. فكرت أنها لن تراني، فملت على الجانب الآخر، بعيداً عن حافة الدرج. وكاد معطفها يحفّ بي في أثناء مرورها. سمعتها في المطبخ، تنادي «روثي! روثي!»، ثم سمعت خطواتها على الدرج، وركضت نحو البستان، لكي أكون متوارية تماماً إذا فكّرت أن تنظر من النافذة.

ولماذا ركضت إلى البستان وقبعت في الظلال واضعة يدي على فمي لكي أكتم هدير تنفسي؟ سمعتها تنادي روثي، روثي، روثي، في أنحاء البيت مضيئة جميع الأنوار في طريقها. ثم خرجت إلى الدرج ثانية وقالت «روثي!» بهمس مرتفع وحميم ومستنكر. بالطبع ما كان في وسعها الاستمرار في النداء عبر البستان والحقول في منتصف الليل. فستعرف «فينغربون» كلها عندئذ. تكوّرت ضحكة كبيرة صاخبة داخل فمي ولم استطع أن أكتمها كلها. ضحكت سيلفي أيضاً.

قالت تستدرجها: «تعالي إلى الداخل. تعالي إلى حيث الدفء، سأقدِّم لك شيئاً لذيذاً». تراجعت إلى الخلف بين الأشجار وظلت تتبعني. لابدّ من أنها سمعت خطواتي أو تسارع أنفاسي، لأنه حيثما ذهبت بدت تعرف بمكاني.

«تعالي، تعالي إلى الدفء». انتصب البيت بعيداً من البستان وقد أضيئت جميع نوافذه. وبدا كبيراً وغريباً ومتقوقعاً مثل سفينة راسية؛

شيء رائع العثور عليه في حديقة. لم أتخيل نفسي أدخل إليه. ذات مرة كان هناك فتاة صغيرة تتجوّل في أحد البساتين ليلاً. وصلت إلى بيت لم تره قبلاً، وكان مضاء كله بحيث أنه عبر أي نافذة أمكنها رؤية حلى خلابة وأشياء فاخرة. كان هناك باب مفتوح، فدخلت. يمكن أن يكون من هذا النوع من القصص، الحزين جداً. شعرها، فاحم السواد كالسماء، بالغ الطول بحيث كانت تجره خلفها، أشبه بريح في العشب... أصابعها، التي بلون سواد السماء، وجميلة جداً ونحيلة بحيث كانت بمثابة لمسة باردة مثل قطرات المطر... خطوتها التي كانت شديدة الصمت بحيث أن الناس كانوا يجفلون حين يفكرون بمجرد تفكير أنهم سمعوها... وتتحول في الضوء الشاسع إلى طفل بشري. وحين تقف عند النافذة المضاءة، تجد أن العالم قد اختفى، والبستان اختفى، واختفت أمها وجدتها وخالاتها. مثل زوجة نوح في الليلة العاشرة أو الخامسة عشرة بعد المطر، تقف عند النافذة وتدرك أن العالم قد اختفى حقاً. وأولئك في الخارج بالكاد باتوا يعرفونها لشدّة ما تغيّرت. قبل ذلك كانت تكتسي الهواء والعراء وتتدثّر بالبرد وكانت عظامها نفسها نحيلة كأعمدة الجليد. قد اختارت أن تتردّد على البستان، لكنها تستطيع أن تمشي على البحيرة دون أن يترقرق الماء أو ينزاح وأن تطفو عالياً في الهواء غير مرئية كالحرارة. والآن، وقد أصبحت غريبة عن بني جنسها، تكاد تنساهم، وتغذي لحمها الفظ بالطعام الفج، وتكون شبه راضية تقريباً.

تعلمت شيئاً مهماً في البستان تلك الليلة، وهو أنك إذا لم تقاوم البرد، بل استرخيت ببساطة وتقبلته، فلن يعود يزعجك. شعرت أنني

حرة ومتحمّسة، كما حين تكتشف في حلم أنك قادر على الطيران، بسهولة شديدة، وتتساءل لماذا لم تجرّب ذلك من قبل. وربما اكتشفت أشياء أخرى. على سبيل المثال، كنت جائعة بما فيه الكفاية لأتعلم أن الجوع ينطوي على لذة ما، وشعرت بالارتياح في الظلمة، وبصورة عامة أحسست أنني أكسر قيود الحاجة، واحداً بعد الآخر. لكن عندئذ جاء مأمور البلدة. سمعته يقرع على الباب وينادي «مرحباً؟». وبعد دقيقة خرجت سيلفي من البستان وهرعت نحو الباب الجانبي، لكنه التفّ حول المنزل ورآها على الدرج.

«عمت مساء يا سيدة فيشر».

«عمت مساء».

«أكل شيء على ما يرام هنا؟ لقد رأيت كلّ هذه الأضواء».

«كل شيء على ما يرام».

«هل الصغيرة بخير؟».

أجل بخير».

«أهي نائمة؟».

«أجل».

«مشعلة الضوء».

«أجل أظن ذلك».

«لا أرى البيت مضاء عادة هكذا في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل».

صمت.

ضحكت سيلفي.

«أيمكنني رؤية الصغيرة؟».

«ماذا؟».

«أيمكنني رؤية روثي؟».

«لا».

«أهي نائمة فوق؟».

«أجل».

«إذن لن يضير لو ألقيت نظرة من الباب».

«إن نومها خفيف جداً. ستصحو».

«سأخلع حذائي يا سيدتي. لن أشكّل أي إزعاج. أعدك».

صمت.

«أين هي يا سيدة فيشر؟».

«حول البيت في مكان ما».

«حسناً، سأدخل وأقول لها عمت مساء».

«ليست في الداخل، إنها في الخارج».

لمس مأمور البلدة حافة قبعته.

«أين؟».

«على الأرجح في البستان. كنت أبحث عنها».

«لست تجدينها؟».

«لا تسمح لي بأن أجدها الأمر أشبه باللعبة».

خرجت من البستان وتقدمت ووقفت على الشرفة بجانب سيلفي.

سألني المأمور: «روثي، أتودين مرافقتي إلى بيتي الليلة؟ تعرفين لدي أحفاد أنا أيضاً. ولدينا الكثير من الغرف. وستكون زوجتي سعيدة برفقتك. أنا في طريقي إلى لويستون[1]. لقد قبضوا على ذلك الفتى كرانشو الذي كنا نبحث عنه. سرق سيارة في...».

«أريد البقاء هنا».

«أأنت واثقة من ذلك؟».

«أجل».

زحزح بدنه الضخم. «ماذا كنت تفعلين في البرد دون معطف، في منتصف الليل، ولديك مدرسة في الغد؟».

لم أجب.

«هيا رافقيني إلى البيت».

«لا».

«إننا جماعة لطفاء كما تعرفين. وأؤكد لك أن زوجتي طباخة ماهرة. لدينا فطيرة تفاح يا روثي، أفضل فطيرة تفاح في العالم، صدقيني!».

«لا».

قالت سيلفي: «لا شكراً لك».

«حسناً، لا بأس إذن، لكنني لست مضطراً إلى أن أقول لك إنه عليك أن تأوي إلى النوم الآن، أليس كذلك؟».

«لا».

«حسناً. لكنني سأبقي عينيّ، عليك أريد أن أراك في المدرسة غداً،

(1) Lewiston: بلدة في آيداهو.

أتسمعينني».

«أجل».

«عمت مساء».

«عمت مساء».

«أراك غداً». قال مأمور البلدة واتجه إلى سيارته. «أريدك أن تكوني هنا غداً أيضاً. أريد أن أتكلم إليك في الغد»، قال لنا من أمام السيارة.

11

كان البيت شديد الرطوبة كالبستان، وأبى أن يحترق بسهولة. آه، اشتعلت شراشف الكنبة قليلاً، وتركت خواتم من الدخان على ذراعي الكنبة، لكن سيلفي أطفأتها بيدها، قائلة إنها غير مفيدة على أي حال. كنا قد أطفأنا كل الأضواء ما أن غادر مأمور البلدة، وبدا إذن كأن شيئاً رائعاً يحدث في البيت. في لحظة لم تكن لدي فكرة عن مكان سيلفي، وفي اللحظة التالية كانت النيران تشتعل في ستائر الردهة وكانت سيلفي مائلة فوقها، ثم نهضت باهتة في الضوء مع ظل أسود خلفها. لكن الستائر احترقت في غضون ثوان وسقطت أرضاً ثم انطفأت. «اللعنة!»، قالت سيلفي، وضحكنا، لكن بصوت شديد الانخفاض لأننا كنا نعرف أنه أمر مهيب أن يحترق البيت. ولأي مشاهد آخر ربما نكون قد بدونا جامحتين عابثتين، روحين غير بشريتين تقطنان البيت لا تعني لهما شيئاً أغطية المصابيح والبيانو،

لكننا كنا مستعجلتين فحسب وكان التنفس صعباً.

لم نستطع أنا وسيلفي (أظن أننا تلك الليلة ربما كنا شخصاً واحداً أيضاً) السماح بأن يجري اقتحام البيت، الذي كان متوارياً كمخ، كصندوق ذخائر، وتصنف ذخائره وترزم في الخارج أمام محتاجي «فينغربون» ومعوزيه. تخيل ضوء الإدانة يسقط عليك فجأة. هكذا شعرنا بالأمر. إذ أنه حتى الأشياء الضائعة في المنزل تبقى، مثل ضروب منسية من الأسى والأحلام الأولى، والكثير من الأشياء منزلية ذات قيمة عاطفية محضة، مثل اللفة الداكنة من الشعر الكثيف التي بقيت من صبا جدتي، وقد وضعت في علبة قبعات فوق الخزانة، إلى جانب حقيبة يد أمي الرمادية. تحت الضوء المتماثل للفحص غير المبالي لا تعود أشياء كهذه هي نفسها. بل تتحول إلى مجرد أشياء، فتصير رهيبة، ويتوجّب بالتالي حرقها.

إذ كان علينا أن نرحل. فأنا لم أكن قادرة على البقاء، وأبت سيلفي البقاء دوني. الآن بتنا مجبرتين بالفعل على الترحال، وكانت تلك نهاية التدبير المنزلي. أشعلت سيلفي قش المكنسة، وحملتها مشتعلة أمام حاشية ستارة حجرة المؤونة وأهداب الحصيرة فأصبح هناك كتلتان جيدتان من النار، لكننا عندئذ سمعنا صفير القطار وقالت سيلفي «يجب أن نركض! أحضري معطفك!، ففعلت وانتعلت جزمتي. حملت سيلفي ثلاثة أكياس من الخبز تحت ذراعها، ورمت المكنسة على كومة الحطب، وأمسكت يدي، وهرعنا إلى البستان، الذي كان مظلماً بارداً، ثم عبرنا الحديقة التي كانت محفرة ومليئة بالسماد وجذامة الزرع. ما أن وصلنا

إلى طرف الأرض المراحة الواقعة بين الحديقة والسكة الحديد، حتى مرّ القطار بنا واختفى.

«آه لا!»، قالت سيلفي. كان الهواء حاداً بارداً مؤلماً عند الابتلاع... ثم «بانغ!» سمعنا مصراع نافذة في بيت خلفنا. و«بانغ!» ثانية. وصاح أحدهم. استدرنا لنرى، لكننا لم نشاهد لا النار ولا الدخان.

قالت سيلفي: «لم تكن ناراً كبيرة».

«سيكتشفون فوراً أننا لسنا في الداخل وسيأتون بحثاً عنا. يا للفوضى».

«سنختبئ في الغابة».

«سيستعملون الكلاب».

بقينا ساكنتين لبعض الوقت، نستمع إلى الصراخ ونشاهد الأنوار تضاء في البيوت المجاورة، حتى أننا سمعنا أصوات الأطفال، وكان ثمة صخب بين الكلاب.

قالت سيلفي: «ثمة أمر يمكننا فعله». كان صوتها منخفضاً جذلاً.

«ما هو؟».

«نعبر الجسر».

«سيراً على الأقدام؟».

«لن تجرؤ الكلاب على اللحاق بنا، ولن يصدقها أحد بأية حال. لم يعبر أحد الجسر قط، ليس أحداً سمعت به على أي حال. علينا أن نذهب إذا كنا قد أزمعنا الرحيل. هل معطفك مزرر جيداً؟ يجدر أن تكون معك قبعة. أحاطتني بذراعها وعصرتني. همست «لن يكون

الأمر الأسوأ يا روثي، الارتحال، سترين، سترين».

كانت ليلة مظلمة محتشدة بالغيوم، لكن خط السكة الحديدية يؤدي إلى البحيرة مثل ممر عريض. مشت سيلفي أمامي. خطونا على كل رافدة على حدة، وإن جعل هذا خطواتنا قصيرة بصورة غير مريحة، لكنه كان سهلاً كفاية. تبعت سيلفي بخطوات بطيئة طويلة متأرجحة وفوقنا النجوم في ذراها الشاهقة[1]، في قلب دوامة فلكية شاسعة – إذ هذا ما هي عليه وقد رأيت ذلك في الصور الفوتوغرافية – كانت خفية، وكان القمر قد اختفى تماماً ومنذ فترة طويلةً. بالكاد رأيت سيلفي وموطئ قدمي. ربما كان فقط يقين أن سيلفي أمامي، وأنني بحاجة إلى أن أمدّ يدي مباشرة أمامي، هو الذي جعلني أظن أنني أبصر كلّ شيء هناك.

سألتها: «ماذا لو جاء قطار؟». وقالت: «لن يأتي القطار حتى الصباح».

شعرت بالجسر يرتفع، ثم فجأة هبت ريح محملة بالماء على رجلي ونفخت معطفي، وأكثر من ذلك، كان هناك أصوات تلاطم المياه، وهي أصوات هادئة إنما شاسعة– إذا غطست في الماء وبقيت هناك حتى ينقطع نفسك، فحين تعاود الصعود إلى الهواء تسمع الفضاء والمسافة. كان الأمر كذلك. موجة تقلب عوداً أو حجراً على شاطئ أسود ما على بعد أميال، فأسمعها في أذني. أن أكون فجأة فوق الماء كان أمراً باهراً مبهجاً، وجعلني غير واثقة من خطواتي. كان عليّ التفكير في أمور أخرى. فكرت في البيت وقد استحال كله ناراً وفي ألسنة اللهب وهي

(1) إشارة إلى برج بابل.

تندلع وتمتد في رياح جامحة خاصة بها. تخيل روح البيت تندفع مُكسِّرة النوافذ، ومُحطِّمةً الأبواب وتخيَّل جميع الجيران مذهولين من السهولة التي فجرت فيها ضريحها وحطمت قبرها. «بانغ!» وطين المرطبان يتشظى ويصير دوامة ترتفع في الهواء... «بانغ!» ومرآة المكتب تسقط في شظايا لها شكل اللهب ولاشيء تعكسه سوى النيران. كل شيء أخير يتحول إلى نيران ويرتفع، وتفر روح البيت، وتأتي كل «فينغربون» وتقف مذهولة أمام المكان المحترق الذي استقرت فيه الروح أخيراً. لم أجرؤ على الالتفات لأرى ما إذا كان البيت يشتعل. كنت خائفة من أنني إذا التفتّ فسأفقد إيقاع سيري وأتعثر. كانت عتمة شديدة بحيث لم أعد أتبيّن سيلفي أمامي، وكان الجسر يخلق نفسه مع كل خطوة أخطوها، ثم يختفي ثانية خلفي. لكنني سمعت صوته. كان خشبياً وكان يصرّ، متكئاً على الإيقاع البطئ الذي يحرك الأشياء في الماء، وقد جذبه التيار جنوباً وتحت قدمي شعرت به يميل جنوباً وإن قليلاً، ثم يعود إلى وضعه السابق ثانية. بدا هذا الإيقاع خاصاً به ولا صلة له، بقدر ما أعرف، باندفاع الماء الثابت في النهر. وقد ذكرني هذا الصرير البطيء بحديقة بجوار البحر اعتادت أمي أن تأخذني ولوسيل إليها. كان فيها أرجوحة خشبية، عالية كسقالة ومتقلقلة في جميع مفاصلها، وحين كانت تدفعني أمي كانت السقالة تميل خلفي وتصرّ. وذات يوم وضعتني أمي على كتفيها ورحت ألامس وريقات شجرة الكستناء الباردة جداً. وكان ذلك اليوم الذي اشترينا فيه الهمبرغر من عربة بيضاء للعشاء وجلسنا على مقعد أخضر أمام الجدار البحري نطعم

الخبز للنوارس ونشاهد الزوارق الضخمة تبحر بين السماء والمياه اللذين اكتسيا الزرقة نفسها بحيث لم يعد الأفق ظاهراً. وكانت الزوارق تطلق أبواقاً صاخبة دقيقة مثل خوار البقر. كان يمكن أن تترك نفساً حليبياً في الهواء. كانت أمي سعيدة في ذلك اليوم. ولم نعرف السبب. وإذا كانت حزينة في اليوم التالي، فإننا ما كنا لنعرف السبب أيضاً. وإذا رحلت في الذي بعده، فما كنا لنعرف السبب. كان الأمر كأنها تعدّل نفسها باستمرار مع تيار مستمر لا يني يجذبها، متأرجحة باستمرار، مثل شيء في الماء، وكانت حركتها مجيدة كرقصة بطيئة، وحزينة كرقصة عنيفة.

كانت سيلفي تحمل داخل معطفها قصاصة صحيفة تحمل العنوان العريض: «البحيرة تبتلع شخصين». منذ زمن طويل لم تضطر لطي الصحيفة مرات عدة قبل أن تثبتها بالدبوس. وتصف الصحيفة محاولتنا لحرق البيت. وتشرح أنه كان ثمة عما قريب جلسة استماع، وقد شعر الجيران بالخطر بسبب التصرفات الشاذة المتزايدة. وقد علق أحد سكان المنطقة «كان يجب أن نرى أن هذا سيحدث». (وهناك ذكر لواقعة أن أمي ماتت غرقاً في البحيرة، وأنه من الواضح كان انتحاراً). تبعتنا الكلاب إلى الجسر. بدأ أهل البلدة يبحثون فجراً عن الجثتين، لكن لم يعثر علينا قط، وتوقف البحث في النهاية.

حصل هذا قبل سنوات عديدة، وأسوأ ما في تلك السنوات أننا لم نتصل أبداً بلوسيل. في البداية خشينا أن يعثروا علينا إذا حاولنا مخابرتها أو إرسال رسالة لها. «بعد سبع سنوات لن يتمكنوا من النيل منك لأي سبب»، قالت سيلفي، ومرت سبع سنوات، لكن كلانا كنا نعرف أنهم

دائماً يمكنهم النيل منك بسبب تزايد التصرفات الشاذة، وأنا وسيلفي كان لدينا هذا النخشاه. إننا مترحلتان. وما أن تضع قدمك في هذا الطريق حتى يصبح صعباً تخيّل سواه. من عملت بصورة متقطّعة نادلة أو بائعة في متجر، وكان الأمر مبهجاً لفترة. أنا وسيلفي شاهدنا جميع الأفلام. لكن أخيراً يصبح الوهم ثقيلاً جلياً. كان الزبائن يتفاعلون مع ابتسامتي وكأنها تكشيرة وفجأة يدفعهم شيء ما في سلوكي إلى أن يعدّوا الفكة. لو كان لي الخيار لعملت في موقف للشاحنات. أحب استراق السمع إلى القصص التي يرويها الغرباء لبعضهم بعضاً، وأحب المتعة النيقة التي يعرفها المستوحدون في أصغر تفاصيل رفاهياتهم الصغيرة. في المطر أو الطقس القاسي يضعون كواحلهم على النضد ويسألون ما الفطائر التي لدينا، فقط لكي يسمعوا الابتهال الطويل ثانية. لكن بعد فترة، بعد أن أخبرني الجميع من زبائن ونادلات وغسالي أطباق وطباخين، أو قالوا في حضوري، الكثير عن أنفسهم، بدا صمتي فجأة استثنائياً، فبدأوا يشكّون بأمري، كأنني أقدم لهم قهوة باردة رديئة. ما شأني أنا بطقوس الغذاء والتعاضد هذه؟

بدأوا يسألونني لماذا لا آكل شيئاً. فهذا سيكسو عظامك ببعض اللحم، كما كانوا يقولون. ما أن يبدأون بالنظر إليّ هكذا حتى يصبح من الأفضل لي الرحيل. متى صرت عديمة الشبه إلى هذا الحدّ بالآخرين؟ إما أن ذلك كان حين تبعت سيلفي عبر الجسر، وابتلعتنا البحيرة أو حين تركتني أمي أنتظرها، وأسست فيّ عادة الانتظار والترقب التي تجعل لحظتي الراهنة مهمة بما لا تحتويه. أو ربما كان هذا في في أصل تكويني. ولا أعرف عن

تكويني في رحم أمي أكثر مما تعرفه عن تكوينك في رحم أمك. بدأ ذلك في العتمة، وأنا كنت غير موافقة على ذلك. «أنا» الأنحف[1] كبيرة جداً على الشيء النادر الذي كنته حينذاك. مشيت إلى الأبد في خواء سرمدي، في مزاج شخص يشمّ الأزاهير التي تتفتح ليلاً، وفجأة ترك خاطفايّ آثارهما فيّ، ذكوراً وإناثاً، وعلى مرّ الشهور تكوّرت، وصرت بدينة، حتى لم يعد ممكناً إخفاء الفضيحة وطردت من ذلك الفراغ السرمدي. لكن هذا مشترك بيني وبين البشر؛ وفقاً لكيمياء كئيبة ما كان بالكاد انعدام كينونة يصبح موتاً حين تمتزج به الحياة. فأقفلوا الباب دون عودتنا إلى ذلك الخواء.

ثم هناك مسألة هجران أمي لي. مجدداً، هذه هي التجربة المشتركة. يمشين أمامنا بسرعة شديدة، وينسيننا، ويضعن في أفكارهن، وآجلاً أم عاجلاً يختفين. واللغز الوحيد هو أننا نتوقع أن يكون الأمر عكس ذلك. أظن أنه كان عبور الجسر الذي غيرني أخيراً. كان رعب العبور رهيباً. تعثرت مرتين ووقعت. وهبت ريح من الشمال، بحيث أن الريح والتيار البحري كانا بالقوة نفسها، وبدا من المستحيل مقاومتهما. ثم كانت عتمة شديدة.

حدث شيء ما، شيء لا ينسى إذ أنني حين أتذكر عبور الجسر، تنتفخ لحظة مثل بطن عدسة وتصبح جميع اللحظات الأخرى على الأطراف وتختفي. أكان فقط أن الريح هبت فجأة، إلى درجة أننا أضطررنا أن ننكمش وننحني إلى الأمام ونستند عليها مثل امرأة عجوز عمياء

(1) أنا تعني [I] التي هي أنحف كلمة بالانجليزية والتي هي المكوّن اللغوي للذات.

تتحسس طريقها على جدار. أم أننا حقاً سمعنا صوتاً أكثر صخباً من أن يسمع، وكلمة أكثر حقيقية من أن تُفهم لكننا أحسسنا بها تتدفّق عبر أعصابنا مثل الظلمة أو الماء؟

لم أميز بسهولة يوماً بين التفكير والأحلام. أعرف أن حياتي كانت ستختلف كثيراً لو أنني استطعت ذلك. أعرف أن حياتي ستختلف كثيراً لو كان بوسعي القول: هذا تعلمته من حواسي، أما ذاك فكان متخيلاً وحسب. سأحاول أن أخبرك الحقيقة الصريحة. أنا وسيلفي سرنا طوال الليل دامس الظلمة على جسر السكة الحديدية في «فينغربون»، جسر طويل جداً كما ستعرف لو رأيته، وكنا مضطرتين إلى السير ببطء بسبب الريح والعتمة. والحقيقة البسيطة أننا لم نكن بعيدتين عن الشاطئ حين حلّ الفجر، وانحدرنا عبر الصخور قبل أن يخرج القطار المتجه شرقاً من الغابة ويعبر الجسر باتجاه «فينغربون». التحقنا بالقطار التالي المتجه غرباً وغفونا بين أقفاص محملة بالدجاج طوال الطريق إلى سياتل. ومن هناك ذهبنا إلى بورتلاند، ومن هناك إلى كرسينت سيتي، ومن هناك إلى فانكوفر، ومن هناك مجدداً إلى سياتل. في البداية اخترنا مساراً متشابكاً بحيث لا يكتشف أمرنا، ثم صار متشابكاً لأنه لم يكن لدينا سبب للذهاب إلى هذه البلدة أو تلك، ولا سبب محدداً للبقاء في أيّ مكان أو للمغادرة.

أنا وسيلفي لسنا بمسافرتين. أحياناً نتكلم أحياناً حول سان فرانسيسكو، لكننا لم نذهب إليها أبداً. ما زال لسيلفي أصدقاء في مونتانا، فمن وقت لآخر نعبر «فينغربون» في طريقنا إلى «بوت» أو

«بيلينغز» أو دير لودج». نقف عند باب عربة الشحن لكي نتفرج على البحيرة، ثم نراها تمرّ، ونحاول أن نلمح البيت القديم، لكننا لا نستطيع رؤيته من هناك. أحدهم يعيش هناك. أحدهم شذب أشجار التفاح واقتلع الميتة منها وأعاد تعليق حبل الغسيل ورقّع سقف السقيفة. أحدهم زرع زهور عباد الشمس والأضاليا الضخمة على طرف الحديقة.

أتخيل أنها لوسيل، مرتبة بطريقة مخيفة في سعيها إلى القضاء على قوى الخراب. أتخيل أغطية كنبة راقية منشاة وستارة حجرة مؤونة زاهية، وقد وضعت بمثابة توبيخ لنا من خلال جدّتها ورائحة النشاء المنبعثة منها، إذا فكرنا بالاقتراب من الباب.

لكنني أعرف أن لوسيل ليست هناك، فقد غادرت إلى مدينة ما، وفازت بإعجاب المتشككين عبر الإحكام والتصميم اللذين تفعل بهما كل شيء. ذات مرة اتصلت سيلفي بمركز المعلومات في بوسطن وسألت ما إذا ثمة رقم مسجل باسم لوسيل ستون. فرد عامل الحوالة، هناك لورانس وليندا ولوكاس، لكن لا لوسيل. لذا لا نعرف أين هي، ولا كيف نجدها.

«إنها متزوجة على الأرجح»، قالت سيلفي، وبلا ريب هي كذلك. ذات يوم حين أشعر أنني حسنة المظهر سأذهب إلى «فينغربون» وأستخبر عن أحوالها. يجب أن يكون هذا في يوم قريب، لأن أياماً كهذه باتت نادرة الآن.

كل هذا حقيقة. الحقيقة لا تفسّر شيئاً. على العكس، إنها حقيقة تتطلب تفسيراً. على سبيل المثال أمر مراراً وراء منزل جدتي، ولا

أنزل أبداً في المحطة وأعود لأرى ما إذا كان المنزل هو نفسه أو قد تغير بسبب الإصلاحات التي جعلها الحريق ضرورية، أو ما إذا كان قد بني مكانه بيت جديد. أحب أن أرى الناس الذين يعيشون هناك. وهذا يستثني المسكينة لوسيل التي، في عقلي، انتظرت هناك، في حمى الصوابية، تنظف وتلمع، طوال تلك السنوات. تحسب أنها تسمع أحداً في الممشى فتسارع إلى فتح الباب متشوقة فلا يسعها انتظار الجرس. إنه ساعي البريد. إنها الريح، أو ليس شيئاً على الإطلاق. أحياناً تحلم بأننا جئنا ماشيتين من نهاية الطريق ومعاطفنا المطرية تعصف حولنا، وقد انحنت قامتانا بسبب البرد، ونتكلم معاً بكلمات لا تفهمها تماماً. وحين نرفع رأسينا ونتكلم إليها تختنق الكلمات، وتتسع الفترات الفاصلة بينها، وتنتفخ نغماتها، مثل الأصوات في الماء. ماذا لو دخلت إلى البيت ذات يوم ووجدت لوسيل هناك؟ أيعقل ذلك؟ بما أننا متنا فالبيت أصبح ملكها الآن. ربما كانت في المطبخ تضع ابنتين حلوتين في حضنها، وربما تنظران من وقت لآخر إلى النافذة السوداء علهما تعرفان ما الذي تراه أمهما هناك، وتريان انعكاس وجهيهما ووجهاً يشبه كثيراً وجه أمهما، مستغرقاً للغاية ومفعماً بالرقة، ووحدها لوسيل يمكن أن تظن أن هذا الوجه وجهي. لو أن لوسيل هناك، لوقفت وسيلفي خارج نافذتها آلاف المرات، ولفتحنا الباب الجانبي ووجدناها في الأعلى تبدّل ملاءات الأسرّة، ولجلبنا وريقات شجر، ولاقتلعنا الستارة وأوقعنا الأصص أرضاً– وعلى نحو ما غادرنا البيت – قبل أن تجري إلى الأسفل، تاركين وراءنا

رائحة بحيرة قوية. وهي يمكن أن تتنهد وتقول «لا تتغير أبداً».

أو تخيل لوسيل في بوسطن، على طاولة مطعم، تنتظر صديقة، مرتدية ثياباً تنمّ عن ذوق رفيع، قل بزة من نسيج «التويد» مع وشاح أرجواني عند العنق لتلفت الانتباه إلى حمرة شعرها القانية. كأس مائها يخلف ثلثي حلقة على الطاولة، وهي تعمل على إنهاء الدائرة بإبهامها. أنا وسيلفي لا نقتحم المكان، مشذبتين أطراف معطفينا الفضفاضين ومرتبتين شعرينا بأصابعنا، ولا نجلس إلى الطاولة المجاورة لطاولتها، مرتبتين أغلفة العلكة والبطاقات، وجامعتين ما نملكه من قطع معدنية وورقية، ونضحك ونعيد الجمع ثانية. أمي، كذلك، ليست هناك، وجدتي في خفيها المنزليين وضفيرتها تتأرجح على قفا رأسها، وجدي بشعره المصفف مسطحاً على جبينه، لا يتمعن في لائحة الطعام باهتمام جاد.

إننا ليس في أي مكان في بوسطن، ومهما بحثت لوسيل، فلن تجدنا هناك، ولن تجد أي إشارة أو أثر. لا نقف في أي مكان في بوسطن، ولا لنتأمل واجهة متجر، فحدود ترحالنا هي اللامكان.

لا أحد يشاهد هذه المرأة وهي ترسم بسبابتها حرفي اسمها على سطح كوب الماء، أو تدسّ البسكويت في حقيبة يدها من أجل النوارس، يمكنه أن يعرف أن أفكارها تحتشد بغيابنا، أو يعرف أنها لا تنظر، ولا تصغي، ولا تنتظر، ولا تأمل. ودائماً أنا وسيلفي...

تدبير منزلي

لطالما عرفت ألف طريقة لكي تحيطهن جميعاً بما بدا نعمة بكل تأكيد. كانت تعرف ألف أغنية. وكان خبزها طرياً ومربياتها شهية، وكانت في الأيام الماطرة تعدّ الكعك المحلّى وشرائح التفاح المطهية. وفي الصيف تبقي وروداً في الأصص على البيانو، ووروداً ضخمة ضوّاعة، وحين تتفتّح وتسقط بتلاتها، تضعها في مرطبان صينيّ طويل، مع كبش القرنفل والزعتر وعيدان القرفة. وكانت تنيم بناتها على ملاءات مكوية جيداً تحت طبقات من اللحف، وفي الصباح تمتلئ ستائرها بالضوء على نحو ما تمتلئ الأشرعة بالريح.بالطبع كنا يعانقنها ويتحسسنها وكأنها عادت للتو من بعد غياب ليس بسبب خوفهن من أن تختفي مثلما فعل والدهن ولكن لأن اختفاءه المفاجئ جعلهن يدركن حضورها .

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

9 789948 016038

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

كلمة
KALIMA